سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

التاريخ العسكري للجزائر من الفتح الإسلامي إلى القرن 10 هـ / 16 م

رئيس المشروع : الدكتور مختار حساني

أعضاء فرقة البحث : د. علي خلاصي

أ. الأخضر درياس

أ. عبد العزيز شهبي

أ. عبد الحق معزوز

أ. عبد القادر أوقاسي

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة

الذكرى الـ 45 لعيد الإستقلال والشباب

منشورات المركز الوطني للدرسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

© المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية
وثورة أول نوفمبر 1954. الجزائر، 2007.

تدمك : 4 - 38 - 846 - 9961 - 978
الإيداع القانوني 1588 - 2007

جميع الحقوق محفوظة.

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين

كثيرا ما عادت إلى ذهني عبارة قالها المؤرخ الشاعر الموسوعي الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله، مفادها أننا شعب يحسن صناعة التاريخ ولكنه لا يجيد روايته والتأريخ لما يصنعه.

وإذا كان هذا الإستنتاج المشحون بغصّة أكيدة هو وليد معاناة البحث والإستقصاء التي تحمّلها هذا العالم الفاضل، وهو يقلب دفاتر الماضي ويدقّق ويغوص بخبرته وعلميته وسعة اطلاعه في ثنايا تاريخنا الوطني ويرى بأم عينيه كم هو قليل عدد الذين يخوضون معه غمار هذا اليم الواسع المليء بالأسرار والمكنونات، والمليء أيضا بالبحارة المزيفين أو المناوئين الذين لم ولن يدخروا ما في وسعهم للمضي في تزوير الحقيقة التاريخية أو تزييفها أو تغليفها بما يخدم الأهداف المعلنة وغير المعلنة للعدو، والتي ما اتسع حقلها و علا صوتها إلا بسبب ما بدر من المؤرخ الوطني من انسحاب وغياب وما ظهر فينا من سلوك غالب لا يعير التاريخ الأهمية التي تستحق والأولوية التي يجب أن يتبوأها .

ولله الحمد إذ وقعت همسة الدكتور أبو القاسم سعد الله الهادفة ومعها كثير من الدعوات الواعية في سمع راعية أمينة حملت همسة الاستغاثة هذه على محمل الجد وقالت معه ومع غيره من الغيورين على التاريخ الوطني، أنه حان الوقت لعمل جاد لاستغلال هذا الفضاء الحيوي وإعادة ترتيبه ليكون من بين أهم الاهتمامات الأولوية

والفضل في هذا المنحى يعود بالدرجة الأولى إلى فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ما كان ليفوت مناسبة وطنية أو محلية إلا وقد حث الهمم ونبّه إلى الآثار السيئة والثقوب الخطيرة التي بدأت تبدو على هذا المستوى أو ذاك من الأعطاب التي تصيب الذاكرة الوطنية، والتي بدأت نتائجها السلبية واضحة في وعي الأجيال الجديدة وتصرفاتها.

قالها فخامته بلغة واضحة أننا وإن كنا مجبرين على التكيف مع المستجدات الحاصلة من حولنا والمشاركة كطرف فاعل في الفضاء الإنساني الجديد، إلا أن نوعية مشاركتنا

وحماية مصالحنا مرهونتان بنجاحنا في تغذية الأجيال الجديدة بالمرجعيات الذاتية ومرتكزات القوة التي تجعلهم يشاركون ولا يذوبون يتصدرون ولا يكونون تبعا لغيرهم، وليس لبلوغ هذه الغاية من خيار غير العناية بالتاريخ وتطعيم هذه الأجيال بخلاصاته.

وقد تمّ الحرص في كل هذا الجهد المتكامل على وضع الأسس لمدرسة تاريخية وطنية لا تستغني عن المناهج العلمية الموضوعية والائتمان على الحقيقة، ولا تسعى في محصلتها إلى زرع الأحقاد كما تفعل المدرسة التاريخية الكولونيالية، ولكنها مع ذلك لا تنسى أنها إزاء بحث علمي إنساني اجتماعي في المقام الأول، وأنها تخوض غمار العمل في حقل ظل مسكوناً بالمغالطات والتعصب في الكثير من المؤلفات التي صدرت عن المؤرخين الإستعماريين، وإنه من حقها أن تعيد ترتيب الحقائق كما وقعت بالفعل وبالصورة التي تبين للأجيال كفاح آبائهم، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله (من حفظ التاريخ زاد عقله).

في سياق هذا الجهد الذي ابتدأ منذ بضع سنوات و احتفاء بالذكرى الخامسة والأربعين لاستعادة السيادة الوطنية يقدم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 مجموعة جديدة من البحوث العلمية التاريخية قامت بإعدادها بالتعاون مع المركز، كوكبة من الباحثين والمؤرخين والأساتذة، المعروفين بقدراتهم العلمية، وبمساهماتهم المتخصصة في هذا المجال .

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأوجه إلى هؤلاء الأساتذة جزيل التقدير على ما تحملوه من عناء البحث والتنقيب والتدقيق ليقدموا هذا الإنتاج الذي سيكون خير عون للطلبة والباحثين والراغبين في التعرف على التاريخ الوطني من منابعه الصافية.

كما أعبر عن بالغ التقدير والشكر لجميع القطاعات التي ساهمت إلى جانب وزارة المجاهدين، في إنجاز هذا المشروع وأخص بالذكر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والوزارة المنتدبة للبحث العلمي اللذين وجدنا فيهما خير مساند في هذا المسعى الوطني الرفيع.

وفق الله الجميع في خدمة التاريخ الوطني، وتخليد مآثر الأمة الأزلية، ومن سار على الدرب وصل.

السيد : محمد الشريف عباس

تقديم بقلم مدير المركز

يتشرف المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بإصدار ثلاثين دراسة علمية، هي ثمرة عمل مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي نال المركز شرف تأطيرها منذ انطلاقها إلى اليوم.

وإذ تتناول هذه الدراسات تاريخ الجزائر بكل مراحله، فإن ذلك يعتبر تأكيدا لفكرة: أن التاريخ الوطني كل لا يتجزأ على اختلاف العصور والأحداث والأزمنة التي عرفتها بلادنا، وأن هذا المكنون التاريخي، مترابطة مراحله ومتواصلة من القديم إلى الوسيط إلى الحديث والمعاصر، بما في ذلك فترتي المقاومة والثورة التحريرية.

وإذا كان الهدف البعيد في طبع ونشر هذه الأعمال هو إبراز دور المركز ومساهمته الفعالة في كتابة تاريخ الجزائر، في إطار الدور المنوط به منذ نشأته سنة 1995، فإن الهدف القريب و المباشر يتمثل في تدعيم المكتبة الوطنية بعصارة جهد ثلة من خيرة الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين المشهود لهم بالخبرة والكفاءة والاختصاص، وإثراء الرصيد العلمي والمعرفي للطلبة والمهتمين والباحثين.

ولا يفوتنا بمناسبة نشر هذه الأعمال أن نهنئ أنفسنا وشعبنا وأن نشكر وزارة المجاهدين وعلى رأسها معالي الوزير السيد محمد الشريف عباس، على رعايته واهتمامه البالغ بهذا المشروع، كما نثني على الدور الكبير الذي لعبته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الوزارة المنتدبة للبحث العلمي، الأساتذة والباحثون وكل الذين حرصوا وساهموا في إخراج هذا المشروع إلى النور.

د: جمال يحياوي

المقدمة

تشكل الدراسات العسكرية البحث في أحد مقومات السيادة لكل دولة ولكل مجتمع، كما تشكل فصلا من فصول الصراع الدائم بين الإنسان وصراع الحضارات.

وليس من السهل على كل باحث تناول موضوع الجيش الإسلامي على مر العصور في الجزائر بصفة خاصة، وفي المغرب الإسلامي بصفة عامة، وهذا لعدة أسباب منها : قلة المصادر والمراجع التي تتناول الموضوع، بل وحتى الموجود منها فقد بعضه، والبعض الأخر إما ترجم عن الأصل، أو خطته أيدي أجنبية مما يجعله يتطلب تحقيق خاص، وحتى المصادر المادية ما زالت في معظمها غير مستغلة، أو تحت أيدي فرق عسكرية، وبالتالي فهي غير متاحة للدراسة والتقييم، وقد تتطلب إجراءات معقدة.

ومهما كان فالدارس للتاريخ العسكري لأي دولة، يتطلب منه الرجوع إلى المصادر التي أرخت لتلك الدولة، وقد يجد الباحث معلومات قيمة في مصدر فقهي أو جغرافي أو أدبي، لذا كان علينا أن ننوع مصادرنا من البداية، لأن الدراسات العسكرية تحتاج إلى تخصصات عديدة، ومصادر متنوعة، فمثلا الرسائل التي كان يبعث بها القادة، كانت بمثابة تقارير عسكرية عن المعارك، هذا إلى جانب الوثائق الإدارية والأثرية، والمجموعات المتحفية، والمخطوطات وأمهات الكتب.

إن مشروع التاريخ العسكري للجزائر من الفتح الإسلامي إلى القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد)، تضمن معلومات تاريخية وشخصيات بارزة، وقادة

عسكريين، وتنظيم للجيوش، وخطط حربية، واستراتيجيات عسكرية، واشتمل على مختلف العناصر التي تكون فرق الجيش، والرتب العسكرية، والوسائل الحربية، والأسلحة، والتمويل، والعطاء والغنائم، والإعداد والتهيئة للمعارك، والاستعراضات، ووسائل الهجوم والدفاع من آلات حربية متنوعة، وحصون وقلاع، وأسوار المدن.

والتزمت فرقة البحث الدقة العلمية، وشمولة المعلومات، والتقيد بعناصر الموضوع، حتى يظهر في صورته الأكاديمية.

وركز المشاركون في هذا الإنجاز أن يكون عملهم منطلقاً من التراث الحضاري للجزائر، ومعتمدا على المصادر والمراجع التاريخية المتخصصة والمتنوعة، والمختلفة المشارب.

ومن هذه المنطلقات، حاولت فرقة البحث، وفي مقدمتها المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، أن يساهم هذا العمل في إثراء المكتبة الجزائرية، ويستجيب للهدف الرامي لإيجاد الوسيلة العلمية لتزويد القارئ والمثقف بتراث الأسلاف، ودفع الباحث إلى الغوص في ماضي الأحداث، وإعطاء التجربة لمن أراد الخبرة، وتقديم العبرة السابقة للأجيال اللاحقة.

إن مشروع التاريخ العسكري للجزائر من الفتح الإسلامي إلى القرن 10 هـ / 16 م، الذي نقدمه للقارئ اليوم، هو ثمرة جهد مجموعة من الباحثين، جمعتهم خطة مشتركة، في إطار فرقة بحث برئاسة الدكتور مختار حساني، أستاذ بجامعة الجزائر، وإشراف وتمويل من المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، والمتمثل في مديره أ. جمال يحياوي.

عن أعضاء فرقة البحث : د. مختار حساني.

الباب الأول

تنظيم الجيش الإسلامي في بلاد المغرب

من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 10 هـ/16 م

1

الجيش الإسلامي من الفتح إلى نهاية الدولة الرستمية

التنظيمات العسكرية للجيش الإسلامي عموما

مدخل إلى نشأة الجيش الإسلامي

من مخاض الصراع الذهني العربي بين مبادئ الجاهلية المستمدة من الخرافة والأسطورة التي خلقتها العادات والتقاليد الوثنية والتي بقيت محل شك عند معظم الناس لكن خضوع الفرد لأي جماعة ثبتت هذه التقاليد، وبين معظم التعاليم اليهودية والمسيحية التي حرفت فصولها وأسفارها وبين ما وجدوه في الدين الجديد من تعاليم وأفكار تتناسب مع الصفات والمميزات العربية التي أقرها هذا الدين.

لم يكن اندماج المحاربين لنصرة الدعوة الجديدة صعبا سواء تعلق الأمر بالجيش الإسلامي في المشرق أو في المغرب لان طبيعة العربي القتالية جعلت منه محاربا فذا وفارسا لا يشق له غبار حيث أن الفتى كان لا ينظر إليه كرجل إلا بعد اجتماع مجلس الشيوخ الذي يبث في أمر رجولته ثم يقلدونه سيفا رمزيا احتفاء به كمحارب جديد في القبيلة.

وما دامت القبيلة مهددة دائما بالغزو فان الشاب يربى على الشجاعة ويخضع لتدريبات عسكرية دائمة ومتواصلة استعدادا للحماية والنجدة فالقتل ركن من أركان الحياة الاجتماعية علاوة على كونه سجية من سجايا أية رجولة.

كانت المجتمعات العربية بين فكي رحى أي بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية وهذا الوضع فرض عليهم التحلي باليقظة مما شد من ساعد المحاربين

ثم إن رحلتي الشتاء والصيف للتجارة والتنقل في الصحراء وما يلاقيه التجار من أهوال الطريق ومن لصوصية تجعلهم يستعدون للمواجهة بتكثيف التدريبات القتالية وعلى ركوب الخيل باستعمال السيف والرمح والمزاريق والأقواس لرمي السهام ولا ننسى طبعا أيام العرب الغزوات والحروب التي خلدت اسم القبائل العربية والتي كانت تعكس القسم الثاني من تاريخ العرب.

وعلى خلاف الدول الكبرى التي كانت تحيط بالجزيرة العربية فان القبائل العربية المتفرقة لم يتعودوا على ترتيب الجيش وتنظيماته.

أن نزعة العربي إلى الاستقلال والحرية جعلت من كل قبيلة دولة منفصلة رغم آن العرب في شمال الجزيرة كانوا من السباقين إلى ذلك التنظيم وتذكر منهم البابليين الذين قدموا للحضارة روحها والفينيقيين الذين ربطوا بين المشرق والمغرب بفضل التنظيمات العسكرية والبحرية والغساسنة الذين تأثروا بالروم والمنادرة الذين تأثروا بالفرس في جميع مناحي الحياة فكانت لهم فرق عسكرية خاصة للقتال.

وخلاصة ما يمكن أن يصف الإنسان به المجتمعات العربية في صدر الإسلام ما جاء على لسان جعفر بن أبي طالب الذي قاد الجماعة الأولى المهاجرة إلى الحبشة امتثالا لأمر الرسول ﷺ وهو يرد على سؤال الملك النجاشي عن أحوال المسلمين وعن مبادئ الإسلام الجديد حيث قال: " أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي الضعيف فكلنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الأوثان وامرنا بصدق الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور، واكل مال اليتيم وقذف المحصنات وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به عند الله فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا ".

وما يقال عن العرب في شبه الجزيرة العربية ينطبق على شمال أفريقيا بصفة عامة فالمحارب كان إما تابعا للجيش الروماني وهو ما يعرف بالجيش المساعد أو

كان يعيش على هامش حدود الدولة الرومانية سواء في مصر موريتانيا أو أفريقية ولكنه لا يكون جيشا رغم أن مصر الفرعونية كانت مصدر التنظيمات وعنوان الحضارة.

كما إن الدولة القرطاجية قد تأثرت بالتنظيمات العسكرية الفنيقية والرومانية مثل ما تأثر الغساسنة والمنادرة بالفرس والروم.

هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب بعد اشتداد أذى قريش على المسلمين ومحاصرتهم بشعاب مكة وقطع الأرزاق عنهم دون إن يرد المسلمون الأذى بالسلاح لأن الأوامر الإلهية كانت تقضي بمقارعة المشركين بالحجة ومجاهدة المشركين بالقرائن سلاحا لما فيه من إعجاز فلا تطع الكافرين وجاهدهم به.

وبعد أن تمادى الكفار في غيهم وبالغوا في إذلال من تبقى من المسلمين في مكة بعد الهجرة أذن الله لنبيه بالقتال والدفاع عن حرمة المسلمين وعن أموالهم فنزلت الأية الكريمة : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير". ولتثبت مبادئ الدين الجديد لما يحمله من أوامر وتوجيهات ربانية.

كانت الاستجابة لهذه الأوامر وللبواعث الشرعية وتطبيقا لأحاديث النبي ﷺ قوية.

إذن فالظاهرة الحربية في الإسلام تمثل إرادة المجتمع بقدر ما تمثل التوجه العام لسياسة الدولة الجديدة التي تعتمد على الإسلام كدولة وعلى الإسلام كدين وقد اعتنى الدين الإسلامي بجعل وظيفة الحرب والجهاد وافية بالأهداف الاجتماعية التي تؤمن حياة الفرد وتحافظ على تماسك المجتمع ووحدته ثم حماية حدود الدولة الفتية ونشر الدعوة.

ولما انتشر الإسلام وأمر النبي ﷺ المسلمون بالقتال صار النبي يقود الجيش بنفسه ويحث المسلمين على القتال تاركا أمر ترتيب الصفوف لعمه حمزة قبل أن يقتل في المعركة الثانية، معركة أحد ثم صار يرتب رجاله قبيل القتال ويضع الخطط العسكرية ورغم كونه رسولا من عند ربه لا ينطق على الهوى فقد كان يستشير قادة الجيش من الصحابة في وضع الخطط العسكرية لكل غارة.

وللرفع من شأن ومكانة المرأة في المجتمع الجديد كان النبي ﷺ يسمح بمشاركة النساء في حروبه وغزواته وكانت وظائفهن في ما يعرف اليوم بالصحة العسكرية والإشراف على التموين وإعداد الطعام، يقمن على خدمة الجرحى ويفدن الماء ويخطن الثياب ويحمسن المقاتلين واشهر اسم حفظه لنا التاريخ هو اسم نسيبه بنت كعب المازنية التي ردت على النبي ﷺ ضربة تلقتها بجسمها في معركة أحد .

الجيش الإسلامي بصفة عامة

يمكن التأكيد على أنه بفضل الجيش الإسلامي سجل المسلمون بأحرف من ذهب قوة الحضارة خلافا لما كانت ترسمه الجيوش من حضارة القوة وبفضل مكارم الأخلاق التي جاء الرسول الأعظم لإتمامها نبعت القوانين العسكرية إضافة إلى التعاليم الربانية وما جاء به القران الكريم من بيان لمكانة المجاهد وأجر الشهيد فقد روي عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة ترغب المسلمين في الجهاد نذكر منها على سبيل المثال:

مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم الدائم الذي لا يفتري من صلاة ولا صيام حتى يرجع، تكفل الله لمن جاهد في سبيل الله لا يخرجه من بيته إلى الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة آو يرده إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة.

ألا أخبركم بخير الناس منزلا رجل أخذ بعنان فرسه يجاهد في سبيل الله من فأقتل ثم أحيا فأقتل.

وكانت هذه الأمنية الغالية على الرسول ﷺ من أكثر الأحاديث تأثيرا في المسلمين سواء من الناحية النفسية أومن ناحية التحقير والرفع من معنويات الجيش المقبل على الغزوات والمعارك خاصة وأن آلموا جهة كانت ضد الروم والفرس اكبر قوتان في العالم آنذاك وحتى اليوم مازالت الفرق المقاتلة باسم الدين تستعمل هذا الحديث.

نظرا لما للحروب من خسائر في الأرواح ومبالغا في التكيل بالعدو والنهب وما دام الدين الجديد دين المعاملة ودين النصيحة فقد استن الرسول ﷺ لمن بعده نظاما صار منهجا وسنة ثم قانونا وهذه السنة هي آن يعطي القائد العام للجيش توجيهات ويبين الأوامر والنواهي للجيش فصارت قاعدة لكل القادة ولكل المجاهدين فكان ﷺ يوصي فرقة المقاتلة أحسن الوصايا من ذالك ما يروي عنه قوله اغزوا باسم الله وفي أحسن الوصايا من ذالك ما يروي عنه قوله «اغزوا باسم الله وفي سبيل تقاتلون من كفر بالله لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا».

وكان عليه السلام ينهي الجيوش في حروبه عن النهب فيقول «من أنهب فليس منا» كما قال في شأن منع التفريق في السبي بين الولد ووالدته : «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة».

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وارتقاء أبي بكر الصديق كرسي الخلافة بعث خالد بن الوليد على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألف كما بعث أحد عشر ألف إلى مختلف ربوع الجزيرة لمحاربة أهل الردة فأوصى جميع الجيوش الإسلامية الذاهبة لإعادة المرتدين إلى الإسلام ومن قوله إلى جيش أسامة بن زيد.

«يأيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع دعوهم وما فرغوا أنفسهم إليه».

وبعد أن انتقلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب بعث مع سعد بن أبي وقاص إلى العراق على رأس جيش قوامه ما يزيد عن الثلاثين ألف مجاهد أوصاه بإتباع المنهج الذي سار عليه من سبقوه فقال له «ترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم سيرا بتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع والخيل أقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم

أمتعتهم وخلِ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يزر أحد من أهلها شيئا فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح وإذا وطئت أرض العدو فاترك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أمن أهل الأرض ممن تطمئن إلى نصحه صدقة فان الكذوب لا ينفعك خبره وان صدق في بعضه وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقتهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوا فكان أول ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص أحد بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حييت به أهل خاصيتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية فإذا عنيت العدو فاضمم ما لم يستنكره قتال حتى تبصر عورة عدوك حراستك على عسكرك وتيقظ من البات جهدك».

ومن خلال القراءة البسيطة لهذه الرسالة تتبين لنا التنظيمات الأولى للجيش الإسلامي من أقسام وترتبت طلائع سرايا عيون.

لم تظهر الخطط الأولى لسير الجيش واستراحته وتجمعه وعدم الانفراد بالرأي والمشورة.

وفي أمر من الخليفة أمر سعد بأن يسير على رأس الجيش إلى المدائن أمره بترك النساء بالعتيق وان يجعل معهم جندا كثيفا لحمايتهم وان يشركهم في كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمون في عيالهم وفي هذا قال علي بن أبي طالب لعمر بن الخطاب إنك عففت فعفت الرعية ولو رتعت لرتعت.

إجبارية التجنيد :

واذا كان المسلمون الأوائل قد تطوعوا راغبين في الجهاد امتثالا لأوامر الله ورسوله بعد ما نزل على المسلمين من آيات تحث على الجهاد وتحبب الشهادة التي

يجازى من نالها الجنة فإن البعض منهم تقاعسوا عن واجب الجهاد حتى في عهد الرسول ﷺ فلقبوا بالمنافقين.

وفئة أخرى اندفعت للقتال بعدما رأت ما يفتح الله على المسلمين من بلاد وما يغنمون من أموال ومتاع وفي الخطاب الذي أرسله أبو بكر الصديق إلى أهل اليمن يقول فيه «فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا وقال جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله فالجهاد فريضة مفروضة وثوابه عند الله عظيم وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا وحسنت في ذلك نيتهم وعظمت في الخير حسنتهم فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم والى أحد الحسنين أما الشهادة وأما الفتح والغنيمة فان الله لم يرضى من عباده بالقول دون العمل ولابترك أهل عدوه حتى يدينوا بالحق ويقروا بحكم الكتاب أو يهدوا الجزية على يد وهم صاغرون».

ولما استنفر الخليفة عمر بن الخطاب المسلمين لحرب الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية لاحظ تخاذل قلة من الناس خوفا ورهبة من هذين الدولتين الكبيرتين فعمد إلى الحزم في التجنيد أرسل إلى عمال الأقاليم لتجنيد المقاتلين ذكر فيها ولا تدعوا أحدا من أهل النجدة ولا فارسا إلا جلبتموه فإن جاء طائعا وإلا حشرتموه.

ولما وضع الخليفة عمر الدواوين سجل فيها أسماء المسلمين جميعا ورتب لهم تمويلهم السنوي وأفرد للجند منهم ديوانا خاصا سماه ديوان الجند وحدد لهم رواتب تدفع من بيت المال إضافة إلى ما يحصلون عليه من الغنائم وكان على هؤلاء تلبية دعوة الجهاد كلما دعا إلى ذلك مع بقاء التطوع لمن يريد ممن لم يسجل في الديوان من سكان البوادي والأمصار.

وقام الحجاج بن يوسف والي العراق بتطبيق مبدأ التجنيد الإجباري يدلنا على ذلك خطبته في أهل العراق عندما أمرهم بمحاربة الخوارج مع جيش المهلب بن أبى صفرة وقوله فيها «أني والله لا أجد رجلا تأخر بعد إعطائه ثلاثة أيام إلا ضربت عنقه وهذا أول تطبيق للجندية الإجباري في التاريخ الإسلامي».

أنواع الجند :

في الدولة الأموية نجد نوعان من الجند الجيش الدائم وهو الجيش النظامي يقيم في ثكنات أو خيام وتقوم الدولة على حماية المؤسسات الرسمية كما تتكون منه الفرق الخاصة بحراسة الخلفاء والأمراء وكبار قادة الجيش وهم على أتم الاستعداد لخوض المعارك متى طلب منهم ذلك.

فرق الاحتياط وهي الفرق المسلحة على قوائم لكنها غير عاملة وهي التي تلتحق عندما تعلن التعبئة للقتال في الأيام العصيبة.

ولما قامت الفتن والحروب الداخلية بين المسلمين في الصراع الذي دار بين علي ومعاوية انحاز إلى كل طرف جماعة من المقاتلين ووقف آخر موقف الحياد ولكن بعد حسم الأمر للأمويين لم يرى الخلفاء بدا من إجبار الناس على الجهاد حسب أوامر الخليفة عبد المالك بن مروان عندما أراد أن يخمد الثورات التي قامت في عهده.

كان المسلمون في بدء الأمر يعتمدون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا عليه في جاهليتهم فيكون فسطاط الأمير في الوسط وحوله خيام الأمراء والخاصة وإذا كانت النساء والأولاد معهم جعلوهم وراء المعسكر وقد منع عمر بن الخطاب الجنود من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة وأمرهم أن يسكنوا في معسكرات خاصة تقام في ضاحية المدينة على ألا يكون بينهم وبين الخليفة بحر أو نهر ولذالك لم يقم جند مصر في الإسكندرية عاصمة البلاد أو في إحدى المدن الكبرى بل أقاموا المعسكر في مكان عرف بالفسطاط على شاطئ النيل الشرقي قرب موقع القاهرة اليوم ولم يقم جند العراق في المدائن عاصمة الفرس بل أقاموا على ضفاف الفرات مما يلي بادية الشام في البصرة والكوفة ولم يقم الجيش الفاتح للمغرب بقرطاج بل شيدوا معسكرهم بالقيروان وكذا عند تأسيس الإمارات المحلية التي انفصلت عن الخلافة العباسية.

وكان على حدود الدولة الإسلامية معسكرات دائمة فيها الحاميات والأسلحة يكون فيها الجند على أهبة الحرب للدفاع عن حدود الدولة أو الهجوم على العدو وغزو بلاده وهذه الثغور هي التي أصبحت فيما بعد تشكل المدن والحواضر في العصور الموالية.

كان الجيش الإسلامي يولي اهتماما كبيرا للتدريبات العسكرية مثل ما كان عليه الحال في المجتمعات القديمة في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام وشمال أفريقيا فحياتهم البدوية نفسها من غزو ودفاع عن النفس هي عبارة عن تدريبات حربية دائمة وكان أفراد القبيلة يتمرنون منذ حداثتهم على لعب الرمح ورمي النشاب وركوب الخيل ومختلف أساليب القتال.

ولما أمر الرسول ﷺ أتباعه بضرورة التدريب على بعض من فنون القتال قائلا: "علموا أبناؤكم السباحة والرماية وركوب الخيل."

ثم لما تكون الجيش الإسلامي من عهد الرسول ﷺ توحدت منهجيتهم القتالية ونظمت صفوفهم، أصبحت الضرورة تقضي بالاستعداد والتأهب لقتال الأعداء وقد وردت أحاديث كثيرة تشير إلى ذلك منها قوله ﷺ : فارموا واركبوا وان ترموا أحب إليّ من أن تركبوا ومن ترك الرمي بعد ما علمه فإنما هي نعمة كفرها.

واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي. ومن المعروف أن النبي ﷺ كان في كل مرة يتعرض فيها الجيش إلى معوقات أو مواقف تستحق توجيهات يحث فيها القادة كانت تنزل آيات قرآنية من عند الله في صيغة أوامر أو نواهي كما تصدر عنه أحاديث تبين المخرج الحقيقي أو قيمة الجهاد والشهادة.

تنظيم الجيش الإسلامي :

وقع اختلاف في تنظيم الجيش الإسلامي، كان الجيش الإسلامي في بادئ الأمر يتالف من المشاة والفرسان ويلبسون الخوذ والدروع ويحملون الرماح والسيوف والأقواس والسهام كذلك وجد منذ عهد النبي ﷺ فرقة المدرعات التي استعملت المنجنيق والدبابات وبتقدم ورقي الدولة تنوعت أساليب القتال وتعددت الفرق حسب تنوع الأسلحة وتخصيص الأعمال وكانت أشهر فرق الجيش التي عرفت زمن ازدهار الدولة الإسلامي هي الفرسان.

الفرسان :

كان الجيش الإسلامي يتالف من الفرسان الخيالة لأن الحروب كانت خاطفة ولان القبائل كانت متفرقة وبعيدة عن المدينة ثم أن العربي كان فارسا بالفطرة وكانت الفرق تتسلح بالسيوف والرماح وتشكل منهم فصيلة من الرماة السهام كثر استعمالها في العهد العباسي.

أما في شمال أفريقيا فقد بقي الجيش يستعمل الخيل البربرية وخاصة الفرق التي تكونت من بقايا المحاربين من جيش الكاهنة تحت قيادة ابنائها ثم العدد الهائل من الفاتحين والذين تجندوا مع طارق بن زياد وأغلبهم من البربر.

يعتبر المشاة قلب الجيش النابض والقوة الفعلية لكل تنظيم عسكري منهم الرماح ورماة المزارق والقسي والسهام يحملون اللطيات والقوادم والتروس ويلبسون الدروع والخوذ ويسيرون خلف الفرسان وينقسمون إلى عدة تشكيلات:

-**الطليعة** : هم سرية من الفرسان يختارون من بين أحسن الخيالة يلبسون الدروع والخوذ ويحملون الرماح المربوطة بباقات من ريش النعام يتقدمون الجيش عادة بأميال.

-**الكشافة** : هم عبارة عن فرق صغيرة يعتمد عليها الاستطلاع تسبق فرق الطليعة.

-**الحرس الخاص** : أنشئت هذه الفرقة لحراسة الخليفة أو أمير الجيش وكانت بمثابة الحرس الجمهوري حاليا وكان أكثرها انتشارا أيام الإمارات المستقلة والمنفصلة عن الدولة العباسية كما كانت فرق من الشباب تقوم على خدمة الخليفة والأمير يتدربون على الفنون العسكرية كانوا يعيشون في ثكنات من فصيلة الرماة وهم مجموعة من الفرق تعرف كل فرقة منها بالمهمة والوظيفة المسندة إليها.

- **رماة السهام** : وهم النشابون ورماة النشاب تفوقت منهم فرقة تدعى رماة الحدق لمقدرتهم على رمي إحدى عين الغزال.

- **رماة النفط** : وهم فرق تهاجم حصون العدو بمادة النفط المحرقة وكانت هذه الفرق تقيم على الأسوار لمنع الجيوش من تسلقه.

- **رماة القذائف** : ويطلق عليهم اسم المنجنقيون هم فرق يقومون على حماية الآلة الحربية.

-**العيون** : أما ما يعرف بالجواسيس كان المسلمون يعتمدون على رجال يرتدون لباس التجار والأطباء وغيرهم ويدخلون أراضي العدو ويجمعون أخباره.

وقد اعتمد عليهم المسلمون منذ أيام الرسول ﷺ اذ أن الرسول ﷺ بعث يوم حنين عبد الله الإسلامي وأمره أن يدخل في صفوف عدوه فيجمع أخباره ويرجع إليه.

تعدد رواتب الجند :

كان عدد الجند في أواخر عهد الرسول ﷺ ثلاثين ألفا من المشاة وستة آلاف فارس. أما في أيام أبي بكر وعمر بلغ عددهم مائة وخمسون ألف وتضاعف العدد في أواخر عصر الخلفاء الراشدين وفي زمن الأمويين بلغوا مائة وأربعين ألفا.

القيادة :

كان النبي ﷺ هو قائد الجيش وكان يسند القيادة إلى غيره في بعض الأحيان وفي عهد الخلفاء الراشدين كانوا يختارون القادة ممن عرفوا بالشجاعة.

وجرى بعض التعديل على قيادة الجيش في العهد الأموي عما كان عليه في صدر الإسلام كما حدث تغيير في العصر العباسي أيضا العريف على عشرة رجال، النقيب على عشر عرفاء القائد على عشرة نقباء الأمير على عشر قياد.

مراجع الجيش بصفة عامة :

1 - الرفاعي أنور«الإسلام في حضارته ونظمه» .
2 - احمد عادل كمال «سقوط المدائن» .
3 - المسعودى «مروج الذهب» .
4 - يحيى الليث «موطأ الإمام مالك».
5 - ابن خلدون «العبر ج 4».
6 - عبد العزيز سالم «البحرية الإسلامية في حوض البحر -الأبيض المتوسط».

الجيش الإسلامي في المغرب من الفتح إلى قيام الدولة الأغلبية :

لقد اعتمد الجيش الإسلامي في فتوحاته لإفريقيا على العنصر العربي بشكل رئسي لأنهم كانوا مقاتلين ولديهم الاستعداد للانخراط ضمن الحمالات العسكرية لنشر الإسلام والفوز بالشهادة وبالنصر.

تحثهم إلى ذلك الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ في فضل المغرب منها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن سعد بن آبى وقاص عن الرسول ﷺ قال «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة».

وعن البخاري عن النبي ﷺ «ستكون فتنة خير الناس فيها الجند الغربي» وروي عن الرسول ﷺ «انه كان يقول خير الأرض مغاربها أعوذ بالله من فتنة الغرب». وفي الحديث «إن شعب أفريقيا يحشرون فيها وبها سبعون ألف شهيد وجههم كالقمر ليلة البدر».

هذه الأحاديث شجعت الكثير من المؤمنين على الانخراط ضمن حمالات الفتح لعلهم ينالون إحدى الحسنتين الشهادة أو النصر.

وهذا الأخير قد يحل مشكال المتطوعون الاقتصادية بسبب ما تدره من الحروب من غنائم وعطايا بعد انتهاء الحملة يعودوا المقاتلون لعائلاتهم لكن موضوع الفتوحات والدفاع عن الدولة الفتية دفع والأمراء إلى أيجاد وحدات شبه نظامية كوحدة الحرس الخاص بالخليفة والأمير وسرايا الفتح يقودها قائد يعرف باسمها بالإضافة لتنظيم محارس بالمدن البعيدة الغير المستقرة.

كما ظهرت بعض هذه الحمالات التي عرفت باسم قوادها كحملتي عمر بن العاص الأولى، والثانية وحملة عبد الله بن سرح، المعروفة بحملة العبادلة وحملة معاوية بن خديج وحملة عقبة بن نافع الأولى والثانية وحملتي حسان بن النعمان الأولى والثانية وحملتي موسى بن نصير وهي الأخيرة في فتوحات المغرب.

والذي يهمنا منه هذه الحمالات كلها حملة حسان بن النعمان الثانية التي أسس فيها النظام الإداري والمالي مستيرا في ذلك بعمل السابقين في تنظيم الجزيرة العربية لكون البربر شعب يشبه العرب من حيث التكوين الاجتماعي والذهني رجال وقبائل وشيوخ كما هو الحال في الجزيرة العربية لكون البربر شعب يشبه العرب.

والقبائل لا ينطبق عليها نفس التنظيم المعتمد لدى الحظر وما يكونه من دور وأعمال وأحواز بل تخضع لتنظيمات لدى القبيلة بمجال يتحدد بموارد المياه ومواضع الكلاء بتحركها طوال السنة في مجالاتها حسب نظام معروف في الحياة البدوية لهذا رأى حسان التنظيمات المناسبة لهذا البلد هو الاعتماد على النظام السياسي القديم الذي اتبع في العهد الروماني وطبق على الساحل مع أحداث نظام إداري جديد في الداخل يشبه التنظيم المعمول به في شبه الجزيرة العربية وتكون مقادير الجباية بالا تفاق مع رؤساء القبائل ومواعيد جبايتها وحماية موظفي الدولة التي ترسلهم لتقيد أحكامها.

التقسيم الإداري :

إن طبيعة التقسيم الإداري الذي طبقه حسان بن النعمان على بلاد المغرب هو ما يعرف بالإقليم.

إقليم برقة : ويعرف اليوم بأقاليم بن غازي ويتبع لمصر من الناحية الإدارية والمالية ويمتد من ساحل البحر إلى زويلة بالشرق عاشت فيه قبائل هوارة ولواتة ومن نزل به من المهاجرين العرب.

إقليم طرابلس : ويضم المساحة الممتدة من عمل صيرت أو عمل صبرة بما فيها طرابلس وجبل نفوسة الذي تقطنه قبيلة نفوسة وهي من القبائل الكبيرة في المنطقة اعتنقت المذهب الإباضي ولعبت دورا هاما خلال العهد الرستمي.

إقليم فزان : ويبعد عن الجنوب بحوالي 8000 كلم، يمتد إلى الحدود التشادية ويصل بذلك المغرب بأفريقيا المدارية استقرت فيه الكثير من القبائل العربية التي كان لها دور كبير في نشر الإسلام في إفريقيا.

إقليم أفريقيا : ويمتد من بلدة قابس إلي نهر شلف غربا بما في ذلك إقليم الزاب الأقصى ومرسى جيجل وسكيكدة.

المغرب الأوسط : ويشمل المساحة الممتدة من نهر شلف إلى نهر ملوية الذي يصب في المتوسط.

المغرب الأقصى : وهو ما يلي ذلك حتى المحيط وعاصمته طانجة واعتبرت الأقاليم وحدات إدارية وقدرت الجباية عن هذا الأساس تدفع في الغالب عينا كما جرت العادة إن تقدم القبائل مقاتلين للقوة العسكرية العربية في الإقليم ضمن الجباية.

بالإضافة إلى هذا التنظيم الإداري دون الدواوين وصالح على الخراج وانشأ مدينة تونس ودار صناعتها لتحل محل قرطاج.

غير أنه ما كاد ينهي أعماله حتى عزل من قبل عبد المالك بن مروان لفائدة أخيه عبد العزيز الذي حاول أبعاده عن الخلافة وإسناد ولاية العهد لابنه وقام عبد العزيز بن مروان بتعيين موسى بن نصير الذي أضاف ولايات أخرى وهي ولاية السوس الأقصى مع بعض التعديلات حيث أصبحت الأعمال كالتالي :

برقة : إفريقيا تضم طرابلس وإقليم الزاب وعاصمتها القيروان، ولاية المغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان، ولاية المغرب الأقصى وعاصمتها طانجة، ولاية السوس وعاصمتها سجلماسة.

المراكز الإدارية ومقرات الجند :

بعد إخضاع المغرب للتقسيم الأخير عيّن موسى بن نصير ابنه مروان على طانجة عاصمة إقليم المغرب الأقصى وعلى سجلماسة طارق بن زياد. ثم عاد إلي القيروان بعد أن عيّن في عاصمة كل إقليم والي ومعه حامية عسكرية واستقرت معها جماعة من العرب لتعليم الدين الإسلامي وبذالك أصبح رجال القبائل البربرية أيضا أعضاء في الجماعة الإسلامية العربية.

عناصر الجيش :

لقد اعتمد العرب في فتوحاتهم لإفريقية على الجند العربي من العرب الشاميين واليمنيين والقيسية والكلبية وسرعان ما واجهتهم مشكلة العصبية بين القبائل

لكونهم كانوا يحابون القيسية عن اليمنية مرة واليمنية على القيسية مرة أخرى حتى يضمنوا الاستقرار وولاء الجند للدولة، ولم يقرؤوا حسابا للنزاع الذي سيتحول بتحول هذه الأقاليم وتزداد حدته بالإضافة إلى مشاكل العرب البلديين عرب الأنصار والعرب الشاميين وعرب الإقليم وعرب الدولة.

الجند الرسمي للدولة :

زد على ذلك الخوارج والأحزاب الساخطة عن الدولة والعاملة على تأليب نفوس الناس وإثارتها على الحكومة المركزية :

فالخوارج الذين انهزموا في قلب الدولة وقتل منهم الألوف اضطروا الفرار إلى الجبهات التي تدركهم فيها الدولة خاصة عمان اليمن المغرب وهم على مذاهب شتى منهم المتطرفون الذين يروا أن الخلافة مغتصبة والدين يتعاملون معها من عامة الناس خارجين عن الإسلام مثل الخليفة وهؤلاء هم الأزارقة. وقد لقيت دعوة هؤلاء قبولا عند البربر خارج الحدود الرسمية للدولة الأموية بالمغرب الاقصى.

غير ان هذه الدعوة لم يستحسنها جمع غفير من العامة لكونها تدعوا إلى التصدي للنظام بالسلاح وظهرت فرقة أخرى لقيت قبولا أكثر من أصحابها يقولون بان العدو الوحيد هو الدولة أما من يؤيدها فليس عدو للإسلام وحسابهم عند الله فهم كفار نعمة لا كفار إيمان وهذه تعرف بالصفرية.

أما المذهب الثالث هو مذهب الإباضية الذي لقي قبولا أكثر إلا أنه يدعوا المؤمنين بآراء أصحابه إلي إقامة نظام سياسي خارج حدود الدولة تاركين حساب الدولة لله سبحانه.

وهذا المذهب لا يزال قائم إلى الآن في كل من تونس والجزائر وعمان وتونس وليبيا

أعداد الجند الفاتحين في العصر الأموي :

سبق وان ذكرنا أن الفتوحات الإسلامية للمغرب اعتمدت على العرب فما هي الأعداد التي دخلت إلي المغرب ياترى، في الواقع للا أملك رقما ثابتا عن جنود

العرب الأوائل والخراسنيين الدين زحفوا جماعات متتالية في اتجاه المغرب لكننا نستطيع من خلال بعض الإشارات أن نجمع بعض الإحصائيات لهذه الجموع فهذا صاحب البيان مثلا يشير إلى أن حملة العبادلة كانت تظم 20000 . حملة عقبة الأولى 10000... الثانية 40000 بينما رافق كلثوم بن بن عياض في حملته 30000 منها 10000من بني أمية.

أما في عصر الولاة العباسيين نجد حملة ابن الأشعث 763م/146هـ تضم 40000جندي وحملة يزيد بن حاتم نضم 90000جندي 28اقتطعوا من جند الشام والعراق وخرسان. هذا بالإضافة إلى الأعداد التي كانت ترافق الحملة من مصر وإقليم برقة والأعداد الكبيرة من البربر الذين دخلوا الإسلام وبذلك يصل العدد إلى حوالي مليون يدخل في ذلك العائلات التي استوطنت أماكن مختلفة من المغرب ابتداء من برقة حتى حدود الدولة العباسية.

أماكن استقرار الجند :

استقر هؤلاء بعائلاتهم في كامل المغرب. ففي برقة القبائل اليمنية وفي ودان قوم مسلمون من مزاتة وزويلة واغلبهم تجار للعبيد في هذه المدة وفي قابس أخلاط من سائر بطون العرب وفي القيروان يسكن أخلاط من العرب امتازوا بتوارثهم وفي كل من الاربس وباجة وطبنة وبإغاية أخلاط من العرب والعجم ونجد بني تميم في كل من بلزمة وفي نقاوس الجند.

الجيش في عصر الولاة :

يتكون هذا الجيش من السكان الأصليين الدين دخلوا في الإسلام، أول النصوص التاريخية التي أشارت إلى ذلك عندما قتلت الكاهنة،تولى أبنائها قيادة الجيش الإسلامي وهو المتكون من البربر. ثم ازداد استعمال هؤلاء مع انتشار الفتوحات الإسلامية. ولعل أهم من يمثل هذا طارق بن زياد الذي قاد حملة الأندلس مع أغلبية الجند من البربر.

وأما العرب فكانوا من الأوائل الدين ساهموا في عملية الفتح وهم القبائل العربية يمنية أو قيسية.

وبما أن دخول البربر للإسلام كان جماعيا أدى إلى حدوث اختلاط بين هؤلاء والبربر عن طريق المصاهرة وبذلك ظهر جيل جديد يتشكل من العرب والبربر.

بدأ هذا الجيل من أجل الوصول إلى السلطة إلا أن العرب رفضوا هذا واتهموا من يطالب بذلك بالانحراف على الدين كما وقع تحالف بين هؤلاء والمعارضين للسلطة المركزية من خوارج وشيعة وبذلك بدأ ما يعرف بثورة الخوارج أو ثورة البربر مثل ثورة ميسرة الفقير 122/740 بأقاليم طنجةوامتدت الثورة إلى الأندلس ثورة الخوارج 124/742 بقيادة عكاشة بن أيوب الهواري وعبد الواحد بن يزيد الهواري وفي نهاية العصر الأموي ضعفت الدولة وانقسم المغرب بين العرب والبربر.

عناصر الجند :

كانت العناصر تتشكل مما يلي :

العرب البلديون كانوا يعيشون في المدن والأرياف وتؤيدهم جماعات من بربر زناتة.

الغرب الشاميون عناصر جيش الإدارة المركزية ومن انضم إليهم من أهل المغرب يسكنون القيروان وإقليم الزاب وطرابلس.

البربر أقوى عناصرهم في تونس وتتكون قوتهم من مجموعات قبائل بترية يرأسها عادة عرب انظموا للبربر ولم يصبحوا منهم أو بربر استعربوا وأصبحوا يحملون أسماء عربية مثل أبو قرة اليفريني. صالح بن منصور الحميري الذي انشأ أمارة نكور 96/714 وسكانها بربر زناتيون ولم تنتهي إلى عهد الدولة المرابطية القرن 511/39

ووات لسيطرة في هذه الفترة كانت للعرب البلديين الدين هاجروا إلى المغرب واستوطنوه وأصبحوا من أهلها. ولعل من اشهر هده البيوتات بيت عقبة بن نافع وبيت موسى بن نصير وبيت أبو المهاجر دينار.

أما فيما يتعلق بالبلديون فقد استقلوا بالإدارة ولم يحافظوا على الحكم بسبب سوء معاملاتهم للبربر واصطدامهم بالخوارج بقيادة أبو الخطاب عبد الله إلى بن

السمح المعافري ثم بالصفرية بقيادة عاصم بن جميل واقتحم القيروان وقضوا على ابن حبيب وانشلوا دولة صفرية لكن الإباضية قضت عليهم.

لكن أبو جعفر المنصور رأى في وجود الاباضية خطرا أيضا على الخلافة فأرسل ابن الأشعث الذي تمكن من القضاء على الإباضية وبذلك أعاد للمغرب من جديد للخلافة العباسية.

ولم يتوقف عن محاربة الإباضية وهزمهم بل عين والي جديد هو علي بن أبى حفص الهلبي الذي استقدم نفر من أهل بيته وقوة عسكرية كبيرة وكان عليه مواجهة الاباضية الدين انتصر عليهم في المرحلة الأولى لكن سرعان ما عاودوا الكرة وقاتلوه 154.771 وحل محله يزيد بن حاتم المهلبي الذي استطاع أن يعيد المذهب المالكي للمغرب ولكن المشكل المطروح في عهد المهالبة ثورة عرب إفريقيا الذين تجمعوا في معسكرات مثل سوسة وطبنة وتقاسموا الإدارات فيما بينهم. فعين هارون الر شيد هرثمة بن أعين الذي استطاع أن يعيد الأمن لأفريقيا وينشئ مؤسسات مدنية وعسكرية أهمها الرباطات التي كان يقطنها العباد والمرابطون للذود عن دار الإسلام ومن أهم تلك الرباطان رباط قصر الطوب بسوسة ورباط المنستير ورباط تونسوغيرها من الأربطة التي انتشرت بعد ذلك في بلدان المغرب الإسلامي من شرقه إلى غربه.

وبعد سنتين من حكم محمد بن مقاتل ترك مكانه لوالي الزاب إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة 184.

جيش الأغالبة

سموا بالأغالبة نسبة لإبراهيم بن الأغلب عينه هارون الرشيد وطلب منه أن يشكل دولة تكون جدار بينه وبين الخوارج في بلاد المغرب الأوسط والشيعة الزيدية في المغرب الأقصى.

لكن تلك الدولة كانت محكمة من قبل أرستقراطية عربية يساندها الجنود وهم أقل عدد من السكان ولعل من أهم صفات هذا الجيش كثرة الإضطرابات والفوضى

في صفوفه وذلك بسبب التنافس القبلي الذي جلبوه من المشرق. ولنقل النهب والسلب كان من مميزاتهم على الخصوص في الأوقات التي يقل فيها العطاء.

ويشير اليعقوبي إلى أن هذا الجيش كان يتشكل من حاميات تقطن الحدود مثل مجانة طبنة نقاوس باغاية بلزمة ميلة وسطيف وغيرها من المدن. زيادة على الجماعات العربية التي تعرف بالجيش القديم

مرتبات الجند :

لقد كان الأغالبة يقدمون الإعطائيات والمرتبات لجندهم نقدا سواء كانوا عربا أو بربرا في أوقات محددة. فعبد الله الأول وهو ما يزال وليا على طرابلس كان يدفع للفارس أربعة دراهم في اليوم وللرجال درهمين. أما في عهد إبراهيم بن احمد فقد كان يدفع للفارس 20دينار وللرجل عشرة دنانير وفي عهد زيادة الله بلغ العطاء 50دينار تعبئة للجيش المعد للزحف على الأربس 278 في حروبه مع عبد الله الشيعي.

تجنيد الجيش :

لجأ الأغالبة في تعبئة جيشهم إلى شراء العبيد سواء السود منهم أو البيض الصقالبة، كما لجأو إلى نظام التجنيد الإلزامي للسكان الواقعين تحت سلطتهم إضافة للمرتزقة ويشير المالكي إلى وجود جماعة متجولة للتجنيد الإلزامي على رأسها أحد الصقالبة.

كما يذكر صاحب افتتاح الدعوة أن إبراهيم بن الأغلب جند شبان القيروان حتى يقول الناس بأنهم خرجوا معه للحرب وقد بلغ عددهم عشرة آلاف.

عناصر الجيش الأغلبي :

يتشكل الجيش الأغلبي من عناصر وأخلاط بشرية مختلفة في الجنس واللغة وهم:

العرب: وينقسمون إلى فريقين: - الأولى هم الأكثرية من أعقاب العرب الفاتحين استوطنوا البلاد وأصبحوا عرب بلديين.

والجماعة الوافدة في العصر الأموي والعباسي وكانوا جند الدولة.

العجم : هم الذين وفدوا مع الجيوش العربية والعباسية وكذالك الروم والأفارقة الذين كانوا يعيشون في القلاع البيزنطية القديمة فبلاد المغرب «البربر» وهم السواد الأعظم من سكان البلاد.

الجيش الرستمي

البعض يرى أن الدولة لم تهتم بهذا الموضوع ممّا أثر على مستقبلها فيما بعد يبدو لي أن عبد الرحمن ابن رستم عند استقراره بتيهرت اعتمد على القبائل التي ناصرته ووقفت إلى جانبه مثل نفوسة ومزاتة وقبائل المغرب الأوسط التي أخذت بالمذهب الإباضي مثل هوارة ولواته، لأنه خصص جزءا من الأموال التي جاءته من الإباضيين في البصرة لشراء السلاح.

وهنالك نصوص أشارت إلى اهتمام عبد الرحمن بن رستم بالجانب العسكري منها قول ابن الصغير «أشاروا عليه أن يجعل منه ثلثا في الكراع وثلثا في السلاح وثلثا في فقراء الناس».

فالنص يوضح لنا اهتمامه بالجانب العسكري خوفا من تعرضه للمطاردة من قبل الأغالبة. وقد أكدت النصوص ذالك حيث وردت قوة من القيروان وقامت بمحاصرته بجبل سو فجج[1]، جزءا منه استعمل في مواجهة أعدائه وتذكر المصادر التي تمكن من الاطلاع عليها أن ظهور الجيش الرستمي تمثل باشتراك الإمام عبد الرحمن بن رستم في حصار طبنة 154 هـ/ 770 م[2]، ثم بعد ذلك انتقل إلى نهودة ولم يتمكن من تحقيق النصر على أعدائه مما جعله يعود إلى تيهرت[3].

وقد زاد الاهتمام بالجيش في عهد الإمام عبد الوهاب[4]، والسبب في ذلك هو اضطراب أحوال الدولة بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم حيث وقع اختلاف في تعيين عبد الوهاب فالبعض رأى في تعيينه خروجا عن مبادئ الإباضية حيث تحول النظام إلى وراثي. وهو ما أدى إلى ظهور النكاريين، الذين لم يعترفون بإمامته. ممّا أدى به

إلى استعمال القوة ضدهم. وهو ما يتأكد من هذا النص حيث ذكر أبي زكرياء فيما يتعلق بثورة ابن فاندين ضد الإمام أفلح عندما علم بمهاجمة أتباع ابن فندين على المدينة فحمل سلاحه وخرج من داره فوجدهم على باب المدينة وكادوا يدخلون فوقف لهم أفلح على بابها فنشب أحد رجليه في الصفا فسلخ رجله إلى العرقوب وصار ينتقي بدرقته ويضربونه حتى لم يجد في درقته ما يضرب به فرمى بها ثم عمد إلى باب المدينة فاقتلعه فصار يتقي به فتمالك أهل المدينة ويزيد بن فندين مقابل أفلح وعلى رأسه بيضتان يضرب الناس يمينا وشمالا فقصده افلح فضربه على أم رأسه فقتله وقتل من أصحابه اثنا عشر ألفا.

كما وقعت الحرب أيضا بين المعتزلة والرستميين بعد مناظرة بين الفريقين وهو ما يأكده أبو زكرياء أيضا حيث يقول «كان أفلح بن الإمام يضرب على ناحية وأيوب ابن العباس يضرب على ناحية أخرى وكان سيف أيوب ابن العباس ليس له إلا حد واحد وقيل شبران مما يلي المقبض وليس له حد من ناحية واحدة ولعله إذا عيا جعله على عاتقه.

فلما أمعن أهل العسكر في قتل الواصلية وأثخن وضعت الحرب أوزارها ولم يكد يفلت من المعتزلة إلا اليسير صار المسلمون يعدون من أصابه أفلح ومن أصابه أيوب وجدوا ان أحدهم أكثر من الآخر بقتيل».

يتجلى من النص أن الحرب في الدولة الرستمية في هذه المرحلة كانت داخل محيطها سواء في تيهرت أو المناطق الأخرى التابعة للدولة مثل جبل نفوسة حيث وقعت الحرب بين خلف أبو عبيدة وسببها عدم اعتراف الأول بخلافة أفلح وكان تاريخها سنة 211 وكان في جيش أبو عبيدة رجل حاذق بالطعن، وهو أبو أيوب بن العباس كان يضرب في أعراض الخيل ويكشفها يمينا وشمالا وقد وحمى الميمنة والقلب والميسرة.

وكذلك محاولة الأغالبة استعادة بعض المناطق فيما يعرف اليوم بليبيا تندرج ضمن نفوذ الدولة الرستمية، وبعض القبائل التي حاولت الاستقلال عنها كل ذلك أدى إلى الاهتمام بالجيش في عهد هذا الإمام ممّا جعل ابن الصغير يعلق على ذلك

بقوله: "دان له ما لم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة ما ليس يجتمع لأحد من قبله وبلغت سمعته إلى أن حاصر طرابلس وملك المغرب بأسره إلى أن وصل إلى مدينة يقال لها تلمسان"[5].

فهذا النص الذي جاء به ابن الصغير يعتبر عاما لأنه لم يحدد تاريخ هذه الحملات على المناطق المذكورة في النص، إلا أن محمود إسماعيل يشير إلى بعض الغارات التي قامت بها قبيلة بني دفرن ومغراوة على الأطراف الشمالية للدولة الرستمية، كما حرص الأدارسة على إثارة العراقيل في تيهرت نفسها ".

ومن المعارك التي خاضتها الدولة معركة "ومانوا"، ومانوا قصر على ساحل البحر بالقرب من طرابلس وكانت الحرب فيه بينه الأغالبة بقيادة إبراهيم الأغلبي وأهل جبل نفوسة.

تذكر المصادر الإباضية أنه عندما اقترب من جبل نفوسة اتفق أهله على مواجهته حتى لا يفكر في الوصول إلى تيهرت لكن إبراهيم بن الأغلب لم يكن متوجها إلى تيهرت بل للمشرق. ولذا رفض في البداية الدخول معهم في حرب بل قال لأصحابه خذوا عدنكم وشمروا أنفسكم وجوزوا على الساحل ولا تتعرضوا لهؤلاء القوم فإنهم تركونا وطريقنا والآن صبناهم. لكن أهل نفوسة هجموا عليه بالموضع الذي يعرف بومانوا فاقتتلوا قتالا شديدا وكان النصر للأغالبة.

وفيما يتعلق بالعناصر التي كان يتشكل منها الجيش الرستمي فأغلبها قبائل الإباضية الموالية لبني رستم وهو ما يؤكده ابن الصغير بقوله "أثناء إقامة عبد الوهاب بجبل تقوسة وقعت الحرب بين هوارة وعبد الرحمن بن إبراهيم الأغلبي في طرابلس تحرك عبد الوهاب على رأس جيش كبير من نفوسة لنجدة هوارة وحاصر المدينة وانتهى الحصار بصلح بين الطرفين"[6].

لم يكن الجيش الرستمي موجها ضد الدول المجاورة والقبائل المعارضة بل استعمل لديها في الحفاظ على أمن القوافل التجارية التي كانت تأتي من السودان الغربي والمشرق وفي هذا الصدّد يقول ابن الصغير "خرج أبو حاتم في جيش مع وجوه زناتة ليجيروا قوافل قد أقبلت من المشرق"[7].

وهذه الإجارة تفيد في دافع الرستميين للإبقاء على الجيش والاهتمام به فيما بعد والحروب في عهد الرستميين حروب عشائرية وتتجلى هذه الصورة في الحروب التي غلبتها الدولة ضد ابن عرفة فعندما ضرب بالطبل بادر الناس إليه فأمرهم بأخذ السلاح والمعلوم بالنسبة للدارسين لهذه الدولة فإن المجتمع الرستمي كان يتشكل من عناصر متعددة منها الجند الذين جاءوا من القيروان وأغلبهم من المعارضين لبني الأغلب فاستقروا بتيهرت وكذلك العرب وبقية القبائل البربرية المتواجدة بداخل المدنية ممّا أدى إلى تحويل تيهرت إلى مدينة عسكرية بداخلها مجموعة من الحصون موزعة على عناصر السكان[8].

ولمواجهة هذه القبائل المعارضة في خارج المدينة وداخلها لجأ بنو رستم إلى سياسة فرق تسد وفي هذا الصدد بقول ابن الصغير: "الإمام أفلح أرش ما بين كل قبيلة وما جاورها فأرش ما بين لوائة وزناتة وما بين لوائة ومطماطة وما بين الجند والعجم حتى تناضرت النفوس ووقعت الحروب وحارث كل قبيلة ملاحظة لأفلح"[9].

يستفاد من هذا النص أن الدولة لم تكن لديها قوة عسكرية ضاربة مثل ما هو عليه الحال بالنسبة للخلافة الفاطمية ولم تسخر أموالها لتكوين جيش لوجود شخصيات كانت لها نقود تسيطر من خلاله على اقتصاد الدولة ممّا أفدى إلى نقص مداخيلها ولكي نضمن هذه الأخيرة موالاة السكان إليها تلجأ إلى سياسة فرق تسد.

حجم الجيش الرستمي:

إن القوة الرستمية عندما تخرج لمواجهة المعارضين للدولة كانت تلجأ إلى حشد القبائل المؤيدة لها وعلى الخصوص نفوسة مما جعلها تفقد قوتها بعد ما تعرضت نفوسة للهزيمة في معركة ومافوا[10].

النظام العسكري

لم يكن للرستميين جيشا في الواقع منظما مثل المرابطين والموحدين، بل كانوا يلجؤون إلى أسلوب الحشد حيث يكلفون القبائل النحالفة معهم بتجهيز قوتها العسكرية والانظمام لقوة الدولة.

وتحدد أماكن تجمع هذه القوات العسكرية وقبل انطلاقها يقوم الجيش باستعراض عسكري أمام الإمام وبعدها يأمر هذا الأخير بسير القوة العسكرية، وكان السير يتم بترتيب محكما مقسما إلى أربعة أقسام الميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة وينطلق في سيره مع الفجر ويستمر إلى منتصف النهار حيث يخيم إلى صباح الغد ومن علامات الرحيل دق الطبول.

وأما الرايات فتختلف باختلاف القبائل المحتشدة فكل قبيلة لها رايتها بينما التمويل يكون في مؤخرة الجيش. وفي بعض الأحيان يأخذ مؤونته من البلدان التي يمر بها، إما عن طريق الشراء أو النهب والسلب إذا كان المرور بالبلدان المعادية.

وإن الجيش الرستمي لم يكن يتبع هاربا ولم يجهز على جريح ولا يغنمون الأموال التي يخلفها العدو ويظهر ذالك جليا اثر انهزام ابن طولون أمام إباضية جبل نفوسة بقيادة أبي منصور الياس النفوسي بتحالف مع الأغالبة فلم يمس الإباضية الغنائم مما جعل الجيش الاغلبي يستولي عليها.

القيادة العسكرية:

لا نجد معلومات كثيرة في المصادر الرستمية المتوفرة لدينا فابن الصغير لم يتناول هذا الموضوع بالتفصيل وقل ما ورد فيه عبارة عن معلومات قليلة الأهمية فقد أشار إلى قيادة عبد الرحمن بن رستم في محاصرته طبنة[11]، وكذلك محاصرة عبد الوهاب لطرابلس[12] وخروج أفلح على رأس جيش لحماية القافلة القادمة من المشرق[13] وقيادة أبو بكر للقوة الرستمية[14]. يتضح لنا ممّا سبق أن القيادة في الجيش الرستمي كانت خاصة بأئمة الدولة وأبنائهم أو أقاربهم.

وربما أيضا أن شيوخ القبائل كانوا يقودون المتطوعون من أفراد قبائلهم وممّا يؤكد وجود هذه القيادة قول ابن الصغير: «الامام عبد الوهاب عبأ عسكره ورتب قواده وعندما استقبل وفود مزاتة وسدراته دخل عليه وجوه رجاحة وفواد.

فالنص يؤكد ما توصلنا إليه من قبل والمتعلق بوجود تنظيم عسكري بالنسبة لبني رستم. ولعل الجيش الرستمي كان ينقسم إلى قسمين قسم دائم وهم القادة وبعض الجنود وآخر احتياطي يمارس أعماله الخاصة في وقت السلم لكنهم جنود في وقت الحرب وطبيعي أن شرقا في القسم الأول عطاءه من بيت المال.

ويتوزع الجيش في عهد الرستميين إلى مجموعتين الرّجالة: وهم الذين يسيرون على الأقدام ويحملون السيوف وأغلبهم متطوعين تحت قيادة أحد أعيان القبيلة أو شيوخها ويتم حشدهم عند الضرورة.

الفرسان:

فالمتتبع لحدود الدولة في عصر قوتها يلاحظ أن أغلب المناطق التابعة للدولة زناتية ويرى ابن عذاري بأن الزناتيين أكثرهم فرسان يركبون الخيل وهي الصفة التي وصفهم بها الإدريسي وعلى الخصوص القبائل الزناتية المنتشرة بين تيهرت وتلمسان حيث أن أكثريتهم فرسان يركبون الخيل.

ومن أبرز القبائل الإباضية بنو برزال وهم من مشاهير فرسان بلاد المغرب، ويرجون أولادهم على الفروسية منذ الصغر.

الهوامش :

01 - ابن صغير، تاريخ الأئمة الرستميين موتانسكي 1905.

02 - طبنة كانت من أهم المدن توجد الآن بضواحي بريكة.

03 - تهودة حصن روماني وتحول إلى مدينة استشهد بقربها عقبة واصحابه.

04 - الهدف استمرار ارتباط دولة الأغالبة بالخلافة العباسية ووجود الجيش الرستمي بذلك الموقع على تلك العلاقة.

05 - ابن الصغير، المصدر السابق ص.42

06 - نفسه، ص.45

07 - نفسه، ص.46

08 - أغلب كتب الرحالة تناولت تلك الحصون مثل اليعقوبي وابن حوقل والبكري.

09 - ابن الصغير المصدر السابق ص.46

10 - نفسه ص.46

11 - نفسه ص.46

12 - ابن الصغير المصدر السابق ص 45.

13 - نفسه ص 47.

14 - نفسه ص 47.

2

الجيش الفاطمي والحمادي

الجيش الجزائري في عهد الفاطميين :

النظام العسكري :

يبدو للباحث أن تقسيم الجيش الفاطمي يختلف عن ما سبقه لأن الخلافة الفاطمية تقسم جيشها إلى خمسة أقسام وهو ما يتأكد من هذه القصيدة حيث يقول أبو عبد الله الشيعي من البحر السريع:

* سل عن خميس إذا طالعت به يوم الخميس ظحى على النج

يفهم من هذا النص أنهم كانوا يقسمون جيشهم إلى خمسة أقسام لكن المعركة التي خاضتها الدولة في بعض المناطق قسم الجيش إلى أربعة أقسام ولعل السبب في ذالك يرجع إلى مجموعة من العوامل منها قوة الخصم ومكان المعركة وأهميتها وهو ما يتأكد لنا أن القوة الفاطمية في معركة الأربس قسم الجيش خلالها إلى ميمنة وميسرة وقلب بينما أحاط الداعي نفسه بمجموعة من فرسان الزناتة المتمرسين في الحروب ثم صعد كدية مرتفعة لكي يتمكن من توجيه المعركة ويصف لنا الشيعي في نص له يتعلق بصفة القتال قوله «أنه إذا تم الزحف تعبئ الكتائب ويفرق بين القبائل ويجعل على كل منها رجلا يحمل الراية ويقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب ويجعل على هذه الأقسام مقدمين بينما يمكث القائد في وسط الجيش ويتقدم الرجالة والرماة فيرشقون بالنيل وتوضع الخيل الروابط والمنتجبة رداء للواء والمقدمة.

وفيما إذا عزم الجيش على الحملة على عدوهم تقدم صاحب المقدمة فإن تضعضع هؤلاء حمالت المنتجبة ورشقت الرماة في حين تقف المضالع والمسالع في الأطراف والغياض والآكام لحماية الجيش من المكامن والكمائن.

يتجلى للباحث بالنسبة للنص أن الداعي يضع الخطط العسكرية حسب وضعية الناحية التي تجرى فيها المعركة والأسلوب المتبع من قبل أعدائه فهو لا يترك لهم الفرصة لضربه من الخلف فيترك قوة تحمي الجيش من هذه الناحية وتحمي كذالك القوات.

الآن الأمر يختلف في حالة الدفاع إذ عليهم أن يثبتوا في أماكنهم ويشرعوا الرماة ثم يبرزوا في وجوه المهاجمين أصحاب الجواشن والدروع ويبدوا أن هؤلاء كانوا لا يحاربون دفعة واحدة بل على دفعات فمتى ضعفت الدفعة الأولى تقدمت دفعة ثانية لدعمها وإذا حمل عليهم الأعداء جثوا على الركب وتستروا بالتروس صفا محكما لا خلل فيه فإذا شهدوا العدو ولى الأدبار حملوا عليه بالسيوف وإذا انهزم ركبوا الخيل يطلبونه.

يتلخص الباحث من النص أن الخطط العسكرية للجيش الفاطمي لا تختلف عن بقية الجيوش الإسلامية الأخرى ويمكن التصرف فيها حسب سير المعركة.

وإن تواجد أساليب متعددة خلال سير المعركة هو الذي دفع بالقوة الفاطمية أن لا تعتمد على عنصر واحد بل عناصر متعددة كل واحد منهم يقوم بالدور المنوط به فيها.

وبما أن اغلب معارك الفاطميين كانت موجهة ضد القبائل البربرية فإنه رغم أساليب هؤلاء في القتال. وقد نبه ابن خلدون إلى اعتماد البربر على أسلوب الكر والفر في القتال لذا لابد لأهل الصف أن يكونوا معتادين على الثبات في الزحف ولعل هذا هو السبب الرئيسي في اعتماد الفاطميين على العنصر الأوروبي لمعرفته بهذا الأسلوب.

بعد نهاية المعركة تتم عملية جمع الغنائم التي يوزع بعضها على المقاتلين ويمكن للمقاتل أن ينال النصيب الأكبر إذا أظهر قوته في سير المعركة.

والحرب تعتبر فرصة لإبراز شجاعة الرجال فيها والقبائل التي تنضم إلى المعركة تأخذ نصيبها ويوزعها شيخ القبيلة على المشاركين من أفراد القبيلة [1].

كان لقبيلة كتامة في البداية الدور الرئيسي في تعبئة الجيش، لكن عندما أشركت الدولة عصبيات أخرى مثل العرب والصقالبة وصنهاجة ضعف دورها.

فيما يتعلق بتجنيد الكتاميين فالمصادر العديدة تشير إلى ذلك.

وقد بدأ في البداية بقيادة السرايا لأن هؤلاء لهم معرفة بالمنطقة المعروفة الآن بالجزائر لذا أرسل الداعي مجموعة كتامية تتشكل من أربعة عشر كتاميا بعثهم في مهمة سرية تتعلق بالاتصال بالمهدي والقائم بأمر الله الموجود في سجن بني مدوار بسجلماسة ولم يتمكن هؤلاء من الوصول لاكتشاف أمرهم من قبل المغراويين فقتلوا ولم ينجوا منهم إلا واحد حيث خزن الكتاب المرسل للمهدي حتى لا يقع في يد المغراويين ويكتشف أمره[2].

وبعد القضاء على دولة الأغالبة 296 هـ / 909م. والاستيلاء على عاصمتهم رقادة خرج الداعي منها على رأس قوات عسكرية من الكتاميين ملأ بها الأرض تتألف من الفرسان والرجال حسب ما أورده مؤلف كتاب أخبار في عنيد[3]، ولم يجد أي صعوبة تذكر في دخوله تيهرت واستيلائه على الدولة الرستمية وخروج آخر أمرائها إلى ورجلان [4].

عين على تيهرت قائد من كتامة كلفه بحراسة الناحية حتى لا تتعرض للخطر عند عودته، وبذلك تحولت تيهرت إلى قاعدة عسكرية منذ توليها دواس بن صولات الكتامي الذي أصبح أول حاكم لها بعد نهاية دولة بني رستم [5].

وعندما تغلب الداعي على اليسع بن مدرار وإطلاق سراح المهدي والقائم بأمر الله أبو القاسم عين كتامي آخر على سجلماسة وهو إبراهيم بن غالب المزاتي وجعل تحت أمرته حامية كتامية مكونة من خمسمائة فارس ووقع اختلاف بين المؤرخين في الطريق الذي سلكه الداعي حين عودته من سجلماسة.

فالبعض يرى بأن الجيش مرّ بتيهرت الذي توقف بها من أجل تثنية سلطة الوالي الجديد دواس بن صولات الذي كان عينه على تيهرت [6]. عكس ابن عذاري الذي ذكر

« بأن الجيش وهو في طريق العودة من سجلماسة إلى رقادة بلغه أخبار ابن خزر في مدينة أربة القريبة من طبنة فسار نحوه لكنه هرب ودخل الرمال»[7].

ولعل النص الثاني هو الأصح لأن الداعي زار ايكجان خلال عودته وهي قريبة عن مدينة أرنبة عكس تيهرت 8.

وعندما وصل الداعي والمهدي إلى رقادة أعلنت بداية الدولة وتولاها عبيد الله المهدي الذي عين كتاميين كقادة عسكريين.

ومن بين هؤلاء حباسة بن يوسف الذي تولى برقة[9] وما والها وأخاه عروبة الذي أنزله باغاية فسار منها إلى تيهرت ففتحها وولي عليها دواس بن صولات اللهيمي من جديد لأن المغروبين تمكنوا من إعادة المدينة بعد عودة القوة الفاطمية إلى رقادة [10].

ويبدو لي أن عروبة بن يوسف كان من أهم الشخصيات الكتامية في هذه المرحلة بالذات حيث كان يتولى قيادة الجيش وهو ما يؤكده ابن خلدون بقوله "سرح عبيد الله المهدي إلى المغرب عروبة بن يوسف الكتامي للقضاء على الخطر الزناتي وخاصة في الناحية الغربية حيث تمكن هؤلاء من تحقيق انتصارات عديدة على قوة دواس بن صولات الذي كان واليا على تيهرت[11].

وبعد نجاح عروبة بن يوسف في قمع تلك الاضطرابات في صفر 299 هـ / 912م أصدر المهدي قراره بإنهاء مهمة دواس بن حولات عامل تيهرت فاستدعي إلى رقادة وأعدم عقابا له على فشله. لكنه إذا فشل في المواجهة فإن ذلك ناتج بالدرجة الأولى إلى قلة الإمكانيات المتوفرة لديه ووجوده في محيط أغلبة معاد للدولة.

وفيما يتعلق بالجانب المذهبي فإنه نجح في ذلك وينتسب ابن خلدون إلى دواس الفضل في تحويل تيهرت من المذهب الإباضي إلى النحلة الإسماعيلية حيث يقول "ها نحن في بر برابرتها الاباضية من لماية وأزداجة ولواتة ومكناسة ومطماطة وحملهم على دين الرافضة وفسخ بها دين الخارجية حتى استحكم في عقائدهم" [12]. ولأهمية عروبة بن يوسف، فإنه كان من بين المقربين من المهدي وهو الذي أمره بقتل أبي عبد الله الصنعاني عندما التقى به وأراد، قتله قال له كيف تقتلني وقال له

الذي أمرتنا بطاعته هو الذي أمرني بقتلك ثم قتل هو الآخر بعد أن قتل قادة كتامة.

وهنا نلاحظ أن الجيل الأول من الكتاميين الذي أشرف على تكوينه الداعي انتهى بانتهائه وبذلك ضعف الوجود الكتامي.

عناصر الجيش :

العنصر المكناسي:

كان الاعتماد على قبيلة مكناسة راجعا لموقعها الاستراتيجي حيث توجد مضاربها بين مصب وادي ملوية في الشمال وسجلماسة بالجنوب.[13] وبذلك فإن اختيار مصالة بن حبوس يندرج في هذه الاستراتيجية المتعلقة بالتعاون مع القبائل البربرية، لأن الخطر المحدق بالدولة يتمثل في مغراوة وبني يفرن بزعامة محمد بن خزر وإن مكناسة كانت تتنافس وتزاحم مغراوة على قيادة الحلف الزناتي فاستغل المهدي هذه الوضعية بتقريب مصالة بن حبوس من أجل كسب قبيلة مكناسة وتحويلها إلى الولاء الفاطمي [14].

وقد تمكن من ذلك بفضل مصالة بن حبوس الذي أصبح واليا على تيهرت فمد نفوذ الدولة الفاطمية إلى ما يعرف اليوم بالمغرب الأقصى فقد استولى على إمارة نكور التي كانت فيما يعرف اليوم بالحسيمية وأرغم أمراءها على التوجه نحو الأندلس والتحالف مع الخلافة الأموية [15].

واستطاع أيضا أن يستولي على دولة الأدارسة فدخل فاس سنة 305 هـ / 918 م وعين عليها ويحان الكتامي وهذا يجعلنا نؤكد على أن الكتاميين لم يتخلوا عن الدولة الفاطمية بالرغم من التصفية الجسدية لزعمائهم بعد مقتل الداعي [16].

لم يكتف الداعي بمصالة بن حبوس بل تحالف مع مكناسي آخر وهو موسى بن أبي العافية وبذلك أصبحت القوة العسكرية بقيادة المكناسيين مع التعاون مع من تبقى من القيادة الكتامية، وبالرغم من توسع الدولة على حساب إمارة نكور والأدارسة فإن الخطر المغراوي بقي محدق بالدولة حيث لجأ محمد بن حزر إلى

أسلوب الكر والفرّ بعد فشله في المواجهة المكشوفة وقد اغتنم سنة، 312 هـ/925م فرصة انفراد مصالة مع فئة من جيشه فباغته وقتله يوم الجمعة 20 شعبان 312هـ/ 925م[17] ويعد مقتله خسارة كبيرة للدولة لأنه يعتبر من أهم قادتها خلال هذه المرحلة وما فشل فيه من سبقه تمكن من تحقيق النصر بمد رقعة الدولة والدخول في صراع مع الأمويين.

ولضمان استمرارية الولاء المكناسي للدولة عين المهدي يصل بن حبوس لكي يحفظ ولاء قبيلة مكناسة ويدفعها لطلب ثأرها من مغراوة قاتلة مصالة بن حبوس.فتمكن من تحقيق انتصار على المغراويين واستعادة تيهرت حيث دخلها سنة 313 هـ / 925 م[18].

ولم يتوقف عند هذا الحد بل قام بحمالات عسكرية على مضارب المغراويين وهو ما دفع بالمهدي إلى إرسال نجدة عسكرية له بقيادة موسى بن محمد الكتامي في جماعة من القادة سنة 314 هـ / 927 إلا أن هذه النجدة لم تصل تيهرت حيث تعرض لها عبد الله بن حزر بطبنة فقضى عليها وهو ما دفع بالخليفة إلى إرسال نجدة أخرى بقيادة إسحاق بن خليفة.

ويبدو لي أن تلك الحملة لم تحقق ما كان مطلوب منها بل استمر الخطر المغراوي على الدولة وهو ما أدى بعبيد الله المهدي إلى تكليف القائم بأمر الله بقيادة حملة عسكرية وصل إلى تيهرت وشلف ثم عاد إلى عاصمة الدولة وخلال عودته تبين له فراغ الزاب من قاعدة عسكرية فاطمية تتصدى للتحرشات التي كان يتزعمها محمد بن خزر فقرر بناء مدينة المسيلة حيث تستطيع من خلالها منع تقدم الزناتين وتكون همزة وصل بين افريقية وتيهرت وقد استغلت أحسن استغلال في عهد المنصور[19].

وبعد يصل بن حبوس، تولى قيادة الجيش حميد بن يصل وكلف هو الآخر بمواجهة الخطر الزناتي إلا أنه فشل في تحقيق ذلك خاصة أن موسى بن أبى العافية الذي كان من قبل حليفا للفاطميين خلال عهد مصالة بن حبوس قرر التحول إلى الأمويين بعد اتصالات مع القوة الأموية بسبتة وبذلك انقسمت مكناسة على

نفسها فأصبح البعض منها مواليا لبني أمية ممّا جعل يصل يعمل من أجل استعادة القبيلة لنفوذ الدولة وحينها يدخل في مواجهة مع موسى بن أبي العافية ومن جهة أخرى استمرار مواجهة المغراويين فلم يحقق أهداف الدولة المتمثلة في إزالة الخطر الأموي وابن أبي العافية فاستدعي حميد بن يصل من تيهرت ووضع في السجن، ثم فرّ منه وعاد إلى تيهرت ومن هناك أعلن الولاء للأمويين.

انتقال العبيد من السودان الغربي سبق قيام الخلافة الفاطمية فقد كانوا متواجدين في تيهرت وفاس ورقادة وغيرها.

العبيد السودان

إن العبيد استعملوا في الجيش. فقد اتخذ عبيد الله من السودان والروم جيشا بل إن منهم من احتل منصبا هاما في الجيش الفاطمي فذكر البكري أن أبا القاسم صاحب افريقيا قد اخرج صندلا الفتى الأسود إلى أرض المغرب مددا لمنصور الفتى 336 وإن اعتماد الفاطميين على الجيش من أصول زنجية لا يقل في رأينا على بقية العناصر الأخرى لإيجاد توازن داخل الجيش.

وقد استعمل هؤلاء لقمع تمرد كتامة على المهدي عبيد الله بعد مقتل قادتها من قبله وظل الخلفاء من بعده يحتفظون بفرقة عسكرية من العبيد السود كما هو الحال في عهد المنصور والمعز لدين الله.

العرب:

خدم العرب الدولة الفاطمية ومنهم من كان أغلبيا كعبد الله بن القديم وأبي اليسر الرياضي وأبي جعفر البغدادي هذه الشخصيات تولت الوظائف الدنيوية كالخراج والبريد والكتابة والكشف زيادة على عمل البعض منهم في الجيش كأسرة الكلبيين في صقلية وأسرة القاضي النعمان من بني تميم وأسرة أبي عبد الله الأنداسي التي تولت ولاية مسيلة والزاب.

عنصر الصقالبة:

ظهر الصقالبة في العهد الأغلبي وإن زيادة اله الثالث انتخب مرة من عبيد الصقالبة خادم إلا أنهم بلغوا شأنا في العهد الفاطمي.

وقد أورد النعمان إشارات تحدث فيها عن الصقالبة سواء الذين أسلموا أو بقوا على ديانتهم فدعاهم إلى التآخي بينهم من جهة والمسلمون من جهة أخرى ليشكلوا الحملة ويكونوا عضدا الدولة [20].

ويبدو أن دعوة النعمان هذه جاءت في ظروف كانت الدولة تعاني ضغوطا داخلية وخارجية كبيرة بعد تخلي المكناسيين عليها وإضعاف الكتاميين أصبحت الدولة في حاجة إلى قوة جديدة وقيادة عسكرية تختلف عن ما كان مألوفا سابقا.

وقد بلغ هؤلاء شأنا عند الفاطميين حيث كان منهم كبار القادة مثل ميسور الفتى [21] عمال الأقاليم الذين كانوا بنفس الوقت قادة عسكريين لأن الدولة قفلتهم لأنهم لا يحملون مطامع سياسية ولا يشكلون خطرا عليها.

وفي سياق تعاليم الدعوة ومتطلباتها تبع بعض هؤلاء وقدموا خدمات جليلة كميسور الفتى وقيصر ومظفر وجوهر الصقلي وأن المجالات التي ظهر فيها هؤلاء كان الجيش بالدرجة الأولى.

ميسور الفتى الصقالبة

من أبرز هؤلاء خلال هذه المرحلة ميسور الفتى الذي كلف بقيادة الجيش فانطلق صوب الجهات الغربية.

ويبدو أنه سلك سياسة تختلف عن ما سبقه من القادة فقبل الشروع في الحرب ضد خصومه حاول إقناعهم، دعوتهم سلميا إلى الدخول في الطاعة فكانت في هذا الشأن موسى بن أبي العافية والقبائل المجاورة له طالبا منهم التخلي عن الأمويين [22].

وعندما لم يجد الرد من هؤلاء دخل معهم في معارك طاحنة وعندما رأى كثرتهم توقف حتى وصلته إمدادات بقيادة صندل الفتى الذي خرج من المهدية سنة 323 هـ

/ 936 فتوجه مباشرة إلى نكور فحاصر حاكمها وقتل صاحب نكور واستحل القلعة (23)وعين مزماروا الكتامي عاملا عليها شوال سنة 323/ 938 إلا أنه قتل بعد خروج صندل وتوجهه إلى فاس لمساعدة ميسور الذي تمكن من تحقيق النصر واستعادة نفوذ الدولة الفاطمية والانحصار الخطير الأموي بعد التغلب على موسى بن أبي العافية والاستيلاء على حصونه[24].

وفي مستهل جمادى الأول سنة 324 هـ / 937 قفل الجيش الفاطمي بقيادة ميسور راجعا إلى المهدية وفي طريق العودة مر بمدينة ورضيقة القريبة من فاس فقتل أهلها وسبي نسائها.

ثم حارب أهل تيهرت حتى ظفر بالبلد وقتل عاملها الأحدب بن مصالة بن حبوس المعين من قبل سكانها وعين مكانه داود بن ابراهيم العجيسي وبذلك تدخل عجيسية كطرف في الصراع ببلد المغرب ومضاربها حول القلعة وقلعة بني حماد [25].

وخلال هذه الحملة بنيت مدينة أشير في منطقة تيطري بين المسيلة وتيهرت لتكون قاعدة أمامية لمواجهة زناتة بمساعدة الفاطميين وبذلك سيكون لصنهاجة فيما بعد دور في الحرب بقيادة زيري بن مناد.

واستمر ميسور الفتى قائدا الجيش حتى قتل في إحدى المعارك خلال مواجهته لا أبي يزيد مخلد بن كيداد في ضواحي قسنطينة سنة 333هـ / 946 م.

وفي نفس السنة زحف الخير بن محمد وأخوه حمزة وعمه عبد الله بن حزر ويعلى اليفريني فاستولوا على تيهرت وقتلوا عبد الله بن بكار.

وأما يزيد مخلد بن كيداد فقد ركز في استراتيجيته العسكرية على الجهات الشرقية من الدولة الفاطمية ولجأ إلى سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والزهد في الحياة مما جعل الناس يلتفون حوله ومن هؤلاء علماء المالكية الذين تحالفوا معه ضد بني عبيد لأنهم كانوا يرون فيهم أنهم لا يختلفون على النصارى والمجوس لذا أيدوا الثورة وحملوا شعارات دينية انطلاقا من القيروان، إلا أن صاحبه الحمار تخلى عليهم في أول مواجهة مع الفاطميين فقتل أغلبهم كما لجأ إلى

نفس الأسلوب الذي كان قد سلكه قادة الدولة الفاطمية من نهب وسلب حيث جعل القبائل تتوافد عليه للاستفادة من الغنائم.[26]

وقد أقر بالدولة حيث مات أغلب قادتها في المعارك ولم يبق للدولة المهدية إلا عاصمتها وخلالها توفي القائم بأمر الله وتولى ابنه المنصور الذي سلك أسلوب مختلف عن أبيه فتقرب من كتامة وجند شبابها لمواجهة الخطر كما تحالف مع زيري بن مناد وبذلك ضمن ولاء صنهاجة له ومغراوة بقيادة محمد بن خزر وبعدها قاد قوة عسكرية انطلاقا من المهدية تمكن خلالها من استعادة نفوذ الدولة بالأراضي التونسية ثم دخل للجزائر واستقر بطبنة وفيها وصلته القوة الصنهاجية والكتامية وأمر منها محمد بن خزر محاصرة أبو يزيد لكي لا ينسحب نحو الصحراء مما جعل هذا الأخير يلجأ إلى قلعة أبي طويل فانتقل المنصور إلى المسيلة القريبة منها وشدد الحصار عليه ثم تمكن من القضاء عليه، بعد تشتيت أنصاره المتمثلين في زناتة للجهات القرشية الضاربة في الجريد والأوراس والحضنة وهي هوارة ولواتة وبني كملان [27].

أما زناتة الجهة الغربية فانسحبت في الوقت وبعد القضاء على الثورة سنة 336هـ/ 949 [28] فدخلها بعد هروب حميد بن يصل منها وعين عليها مسرور المستقدم وحمله على فرس مسرج محلى.

إلا أن أهل تيهرت اضطربوا على الوالي الجديد لأنه سار فيهم سيرة غير مرضية فاستدعوا محمد بن خزر الزناتي وابنه الخير ومن معهما من زناتة فقدموا إليها في جمع عظيم ودخل بنو خزر المدينة وبذلك يكون محمد بن خزر قد نقض الدعوة الفاطمية سنة 336 هـ / 349.

وخلال المرحلة الأخيرة من عهد المنصور تمكنت القبائل الزناتية من استعادة نفوذها بعد موالاتها لبني أمية في الأندلس وهو ما أدى بالمعز لدين الله الذي تولى السلطة بعد المنصور إلى إرسال حملة جوهر الصقلي.

إن هذه الحملة تعتبر من أهم الحمالات العسكرية وهو ما يعلق عليه ابن أبي زرع بقوله أرسل المعز لدين الله جوهر الرومي في جيش عظيم[29].

بلغ عدد الجند في هذه الحملة أكثر من عشرين ألف جندي جلهم من كتامة وصنهاجة ومن أبرز القادة المشاركين في الحملة جعفر بن علي الأندلسي وزيري بن مناد ومحمد بن خزر المغراوي [30].

وأوّل ضحايا هذه الحملة يعلي بن محمد اليفريني الذي أسس له إمارة واتخذ ايفكان بولاية معسكر عاصمة له عندما علم باقتراب جوهر منه حشد بني يفرن وجميع قبائل زناتة وبقي جوهر قرب تيهرت وبعد اقتحام الفريقين نجحت عصابة من رجالات كتامة بإغراء من جوهر لها بالأموال في قتل يعلي ثم توجهت تلك القوة إلى ايفكان فدمرت المدينة ولم تنهض إلى الآن[31].

بعدها انتقلت الحملة إلى فاس وقد تمكن جوهر من الاستيلاء عليها بفضل زيري بن مناد الذي استعمل السلاليم وهاجمها ليلا وبعدما توجهت القوة إلى سجلماسة للقضاء على بني مدرار لأن صاحبها تلقب بألقاب الخلافة ولذا لم يتوان الخليفة المعز عن قطع دابر هذه الحركة فرأى أن جهادها ضروري فأنهض إليها عسكره وحث جوهر على بذل كل جهده في سبيل القضاء عليها.

ويبدو أن الحملة العسكرية اتبعت نفس خطة الداعي أبي الاعتماد على الدعاية وتأليب السكان على نظام الحكم في سجلماسة فتم القضاء على أميرها مثل ما حدث مع السبع بن مدرار [32].

علق القاضي النعمان على حملة جوهر فقال «ولما قفل الجيش المنصور من أرض المغرب بعد أن ظفر الله والله باقي والرسول المدعي الإمامة وابن بكر الناكث» [33].

أخذ ذلك الجيش البناء، جميع وجوه المغرب ورؤسائهم رهائن عنده وقدم بهم وبكل وجه كان بذلك الصقع محن يطاع به ويخاف فيه».

التهيأ لفتح مصر:

قبل القيام بهذه الحملة رأى المعز لدين الله أنه لابد له من الاعتماد على الكتاميين. فتقرب من شيوخ كتامة واستعمل رجالها في إخماد الثورات السابقة وكان توجهه بالدرجة الأولى إلى عناصرها الفعالة لاسيما العنصر الشاب منها حيث فتح

له باب قصره وبارك سيرته من كرم ما أصاب أسلافهم وبادر إلى تعيين بعض الأفراد منهم في المناصب التي كان يليها آباؤهم من قبل [34].

وقبل الحملة أخرج المعز جوهر إلى المغرب لحشد كتامة وأوعز إلى عمال برقة لحفر الآبار ثم انطلقت الحملة مودعة من طرف المعز الدين أقام أياما في معسكرا جوهرا حاثا القادة على الصبر والصمود.

مراكز الجند :

زيادة على المدن المغربية التي نشأت منذ بداية الفتح وتحصنت خلال فترات عصر الولاة في العهد الأغلبي عرف عصر الفواطم إنشاء أربع مدن هي المهدية والمحمدية وصبرة والمنصورة وأشير.

فالمهدية مثلا أسكنها عبيد الله لقبائل متمردة كقبيلة مزاتة وهوارة وصدينة وغيرها بينما عمر القائم المحمدية بالعبيد وقبيلة عجيسة ونقل زيري سكان المسيلة وطبنة وحمزة وتلمسان لمدينة أشير.

وعمر المنصور صبرة بترحيل أربعة عشر ألف عائلة كتامية من سطيف.

فقد اتبع الفاطميون النظام الإلزامي في التجنيد كما فعل الأغالبة وهو ما يؤكده المالكي عند تعرضه للجيش الأغلبي.

أما القاضي النعمان فقد تكلم عن خطة عسكرية تسمى بخطة الحاشد الذي يخرج للمدن والبوادي لتجنيد الناس إجباريا ويساعده في عمله هذا كاتب يقوم بتدوين اسماء المجندين وقد بدأ الحشد في هذه الدواوين منذ 296.904

والنص الثالث نجده عند ابن عذاري عند تعرضه لتعبئة الجيش الفاطمي فيقول «وأخذ في حشد كتامة وكان حشده بغير ديوان وإنما يكتب إلى رؤساء القبائل فيحشدون من يليهم طاعة له ورغبة فيه وكان لا يزيدهم في كتابه إليهم على أن يقول أن الوعد يوم كذا وفي موضع كذا حرام على من تخلف فلا يتخلف أحد من كتامة فاجتمع له منهم مالا ما لا يحصى عدده كثرة وتأهب لملاقاة إبراهيم الحبشي».

العطاء :

تصف المصادر أن عبيد الله كثير العطاء لجنده حتى أن صاحب ماله استنكر عليه ذلك وكذلك كان الخليفة المعز وقد حدد النويري مقدار العطاء الذي أعطى للجند فيّ حملتهم على مصر بقيادة جوهر الصقلي من مائة دينار إلى عشرين دينار للفرد الواحد. بينما حدد المقريزي بألف دينار إلى عشرين دينار والراجح ما ذكره النويري هو الصحيح.

ولم يكن الفواطم يمنحون جيشهم العطاء فقط بل كانوا يمنحون الكسى والدواب كالإبل والبغال مع علوفتها كما يمنح له جزء من المواد الغذائية إضافة إلى العطاء السنوي تظل جارية مدة غيابهم وإذا توفي مقاتلا لا تقطع أرزاقه بل يظل لأهله كما يعطي لزوجات المقاتلين وأبنائهم جراية يقضونها لأنفسهم كما كانت الهبات تعطى حسب المراتب زيادة على أن أفراد الجيش يأخذون نصيبهم من الغنيمة وكان لديوان العطاء فروعا في الولايات ذات الأهمية العسكرية كأشير والمهدية والمنصورية.

الأسلحة :

يبدو أن إنتاج السيوف خلال عهد الخلافة الفاطمية والرستمية. كان غير كافيا ممّا أدى بهم إلى استيراد جزءا هاما من أوروبا واليمن[35].

أما السيف البربري فكان طويلا ومستقيما وذو حدين بقبضة صغيرة مع طول الحد الفاصل بين المقبض والسيف كما صنعوا السيف ذي الحد الواحد.

ومن بين النصوص التي تعرضت للسلاح خلال العهد الفاطمي ما أورده القاضي النعمان عند تعرضه للداعي أبي عبيد الله عندما فتح بلزمة "حالت الخيول حوله وعاودت كرة بعد كرة عليهم طعنا بالرماح وضربا بالسيوف ورشقا بالسهام.

ويتعرض المقري لنفس الموضوع فيذكر من التناحر بالتراس والرماح والسروج واللجم والدروع والمغافير ويمكن أن نضيف إليها الخراب والطبرزين، ويبدو أن مدينة الغدير اشتهرت بصناعة الدروع حتى غدا اسمها غدير الدروع.

ويظهر من خلال دراسة المصادر المعاصرة أن الدولة كانت تشرف على صناعة الأسلحة ومراقبة بيعها في الأسواق حين مال الخير بن محمد بن حزر الزناتي إلى المنصور الفاطمي طلب هذا الأخير من أحد خدامه أن يحفظ زناتة ولا يمنعهم من شراء السلاح[36].

ومهنة صناعة الأسلحة لها رجالها. وقد عرفت التخصص كغيرها من المهن والدليل على ذلك عند محاضرة أبو عبيد الله الشيعي مدينة بلزمة كان فيهم رجال من أهل مجانة يصنعون لهم السجانيق والجرارات وآلات الحرب وهذا الصانع يلقب بالحداد [37].

كما استعملت الدروق اللمطية كسلاح خلال هذه المدة وهو ما جعل الإدريسي يقول «إنه بمدينة فول تصنع الدروق اللمطية التي لا شيماء أبدع ولا أصب منها ظهرا ولا أحسن منها صنعا وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة حملها وهي المستمدة من حيوان اللمطي المتوفر في بلاد لمطة»[38].

ويذكر ابن حوقل «أنه من سجلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرون يوما، ويوجد الرضا في بلاد لمتونة وأودغست» [39].

ولأهميتها وقيمتها المادية قدمت هدية للملوك. فقد أهدى زيري من عطية للمنصور بن أبي عامر ألف درقة.

أما فيما يتعلق بالسيوف الإفرنجية فإن الجودري يشير إلى وجود السيوف الإفرنجية في حوزة الخليفة المنصور الفاطمي، وقد ذكر موريس «أن المغرب كان يتلقى هذه السيوف عن طريق وادي الرون والبندقية »[40].

وفيما يتعلق بصناعة الأسلحة والحث عليها من ابن عذاري، ذكر «أن أول ما بدأ به أبو القاسم الشيعي أنه أمر عماله في سائر البلاد بأن يعملوا على صناعة السلاح وجميع آلات الحرب وهي عديدة ومتنوعة لذا لم يحلوا في بيت منها وكانوا يتقنون صناعتها ويحلونها بالذهب فكان يستعمل في تحلية آلات الحرب وما تبع الحصان فحلوا السروج واللجم بالذهب ومما يؤكد ذلك أن أبا القاسم ابن أبي زيد بن كيداد كان راكبا على دابة مسرجة بسرج محلي بالذهب» [41].

وعندما تحالف زيري بن مناد مع المنصور الفاطمي أعطاه أجودة بسروج ولجوع محلات بالذهب والفضة وحين نزل القائد بن حماد على المعز بن باديس كان راكبا على دابة مسرجة بالذهب وقد أجرى عليه ثلاثين فرسا بسروج الذهب [42].

وذكر القاضي النعمان أن أهل كتامة ركبوا بسروج من الفضة عند انتصار أبو عبد الله الشيعي 292 هـ/904 م [43].

الخيـول:

استعمل فرسان المغرب الخيول منذ العصور القديمة وتمكنوا من خلالها تحقيق انتصارات وأحسن مثال على ذلك ما حدث في معركة زاما بين القرطاجيين والرومان وكذلك عندما انطلقت حركة الفتوحات الإسلامية استعمل البربر سلاح الفروسية لكثرة المربيين للخيول.

وممّا يؤكد ذلك أن المسلمين في عهد عقبة بن نافع غنموا من أهل باغاية خيلا لم يروا في مغاربهم أخف ولا أسرع منها من نتاج خيول الأوراس. [44]

ومن تلك الخيول أنواع منها البربري والزناتي، وفي تلمسان كانت الخيل الراشدية تربى بمضارب بني راشد ما يعرف اليوم بولاية معسكر وغليزان لها الفضل على سائر الخيول.

ويبدو أن المغاربة كانوا يطلقون على خيولهم أسماء يختارونها فكان للمعز لدين الله فرس يدعى السرور وقد تم تهجينها بخيول عربية فبرز نوع ثالث يحمل مزايا الجنسين[45].

تجييش العسكر وجمعها وإخراجها:

بالنسبة لهذا الموضوع المعلومات كثيرة أوردتها المصادر الإسماعيلية والسنية أيضا.

ففي البداية عهد أبو عبد الله الشيعي بتجييش العسكر من بطون كتامة وبواسطة شيوخ القبيلة وأعيانها فيتم الاتصال بهؤلاء ويطلب منهم النهب للمعرفة. فيجتمع

الشبان وهم يحملون أسلحتهم التقليدية [46]، كالسيوف وغيرها وكانت متوفرة لدى الأغلبية وهذا لا يقتصر على كتامة بل يشمل بقية القبائل الأخرى. وبعد ذلك ينتقل الجمع إلى مكان محدد يجتمع فيه الجند من أغلب بطون القبيلة ويتم استعراضهم ثم يوزعون ويكون على رأس كل مجموعة قائد في أغلب الحالات يكون من نفس القبيلة ومن أشهر رجالها، بعدها ينتقل الجيش بأجمعه إلى المكان المحدد له لمواجهة أعدائه.

كان الجيش مرتبا ومقسما إلى أربعة أجزاء بين الجزء والذي يليه مسيرة يوم وينطلق في سيره مع الفجر ويتوقف عند منتصف النهار حيث يخيم إلى صباح الغد.

وإن لكل قبيلة رايتها، وتسير في المؤخرة الخيام واللوازم مجموعة على البغال والجمال وترافقها الأغنام الحية يسوقها الرعاة لتتخذ مؤونة.

وفي بعض الأحيان الجيش لا يأخذ مؤونته بل يعتمد على معيشته بالنسبة للبلد الذي يمر به سواءا كان صديقا أو عدوا.

ولا يجوز للقائد أن يرحل بالعسكر إن لم يكن متكاملا وتاما رجالا وأموالا وتجهيزا وسلاحا.

تقسيم الجيش:

قسم الفاطميون الجيش إلى خمسة أقسام المقدمة والميمنة والميسرة والركنان يتلوها الرجال والخيل والطلائع التي تسبق القوة لتقوم بعملية الكشف واختيار مكان النزول حيث يقام المعسكر.

وإن الاختيار لابد أن تتوفر فيه شروط منها وفرة الماء بتحكم الجند فيه ومحاولة حرمان العدو منه، وكذلك وفرة الكلاء للمواشي التي ترافق الجيش ووجود تلال وهضاب أو سفح جبل يمكن اتخاذها مقرا القيادة لمراقبة سير المعركة وتوجيهها.

بعد اختيار المكان يتم نصب الخيم وتكون البداية بالبيوت الكبيرة المعروفة بالفساطيط أو الوداخ أو الأوتاق والدهل وسراتي الخيام مثل الشهير والفاز والفرح في الدولة الفاطمية.

ثم بعد ذلك الخيم والبيوت الصغيرة من الشعر والوبر تنصب الخيم وتوضع حراسة تستمر ليلا ونهارا بداخل المعسكر وخارجه وهنا يأتي دور القائد العارف بحال الطرق ومخارجها التي تأتي من كل جانب ويقيم الطليعة وتسريح السرايا التي تتشكل من المترصدين والمتطلعين والمراقبين القائمين على مكان مشرف لاجتناب الكمائن.

وبما أن الخلافة الفاطمية كانت تحارب قبائل بربرية فكانت هذه الأخيرة تلجأ إلى الكمائن والأمثلة على ذلك كثيرة منها.

أن عبيد الله المهدي أرسل نجدة عسكرية لمساعدة يصل بن حبوس بقيادة موسى بن محمد الكتامي في جماعة من القادة وضع لها عبد الله بن خزر كمين بالقرب من طبنة فقضى عليها [47].

ويبدو أن السبب في هذه الهزيمة أن قائد الجيش لم يختار الطريق التي تقدر على حمل الجيوش والموضع الضيق هو الذي تنصب فيه الكمائن في أغلب الأحيان.

وخلال معركة الأربس 296 / 909 م قسم عبيد الله الجيش إلى خمسة أقسام جعل ميمنة وميسرة وقلب ثم أحاط نفسه بعدد من الفرسان وصعد كدية يراقب سير المعركة وكان هذا النظام نفسه متبعا في تيهرت خلال حرب الإمام عبد الوهاب لهوارة عبا الإمام جيشه ورتب قادته وقسمهم إلى ميمنة وميسرة وقلب بينما كان هو يراقب المعركة على راحلة [48].

والقاضي النعمان بدوره يصف لنا النظام الحربي للفاطميين. فيذكر تحت عنوان ذكر صفة القتال في كتابة دعائم الإسلام «أنه إنما تم الزحف تعبأ الكتائب ويطرق بين القبائل ويجعل منها كل رجل يحمل الراية ويقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب ويجعل على هذه الأقسام مقدمين بينما يمكث القائد في وسط الجيش» [49].

يتضح مما سبق من النصوص أن الجيش يقسم إلى الأقسام المعروفة في العالم الإسلامي فهذه الأربعة أقسام أحدهما أصحاب المقدمة وهم المقدمون القائمون بالتهيئة لنصب الحال والارتحال.

والثاني أصحاب المسافة وهم الذين يسيرون آخرا يراعون المنقطعين والمنخلصين من الجند ويحتطون الشاة من ذلك والخارج من العسكر والداخل إليه والقسمان الآخران أصحاب اليمين والشمال ويراعون هؤلاء الجوانب وكل ما يراعي القسمان المتقدمان ويتلوا أصحاب المقدمة الأول الجلابة والسوقة والرجالة وخزائن السلاح والحمولات الثقيلة كالمجانيق [50].

ترتيب الواقعة يرتب العسكر في صفوف بتخميس الجيش إلى خمسة أجزاء وهي القلب والجانبان والمقدمة والساقة.

أما القادة فيقفون على كل واحد من هذه الجزاء المذكورة وعلى الرجال والطلائع.

القلب يكون في صدره رحبة مثل نصف قوس صغيرة يكون فيها قائد الجيش يحرضوه على القتال وبين يديه جماعة يحملون الخلع والأموال ومعهم الخيول.

وعندما يكون الخليفة أو الإمام يتقدم ليقف على أحوال الجيش فيقصد صدر القوس لترتفع معنويات أصحاب الصفوف الأولى وما يتلوهم من الصفوف المتقاطرة وربما يكلمهم بنفسه ثم يقصد الجناحات الميمنة والميسرة [51].

المعركة:

يتقدم الرجالة والرماة فيرشقون بالنبل وتوضع الخيل الروابط والمنتخبة رداء للواء والمقدمة.

وفيما إذا عزم الجيش على الحملة على عدوهم تقدم صاحب المقدمة ليضعضع صفوف العدو ثم تهجم النخبة من الجيش فيرشق الرماة العدو ويهجم ما تبقى من الجيش على الأطراف لإضعاف العدو وحماية نفسه من المكامن والكمائن.

إلا أن الأمر يختلف في حالة الدفاع فإن عليهم أن يثبتوا في أماكنهم ويشرعوا الرماح في وجه المهاجمين أصحاب الدروع.

ويبدوا أن هؤلاء كانوا يحاربون دفعة واحدة أو على دفعات فمتى ضعفت الدفعة الأولى تقدمت الثانية لدعمها.

وإذا حمل عليهم الأعداء جثوا على الركب واشتروا بالتروس صفا محكما لا خلال فيه فإذا شهدوا العدو ولي الأدبار حملوا عليه بالسيوف وإذا انهزم ركبوا الخيل يطلبونه [52].

وإما فيما يتعلق بالبربر فإنهم يعتمدون في حربهم على أسلوب الكر والفر في القتال[53].

وبالنسبة لهذا الأسلوب لابد على أهل الصف أن يكونوا معتادين على الثبات في الزحف، لهذا اختارت للخلافة الفاطمية الموالي من أوروبا المعروفين بالثبات في الزحف.

كانت المعركة تدوم يوما واحدا لذلك كانت تسمى عند العرب والبربر بالأيام وفي بعض الأحيان تنتهي المعرفة بإعطاء الأمان لمن تبقى من الجند وهنا يكون التصريح بما يلي أمنت وادعت ولا تخافوا منا ولا تذهل ولا بأس عليكم ولكم عهد الله وذمته وفي أغلب الحالات كانوا ينكلون بالمنهزمين ويقتلونهم ويمتثلون بجثتهم ويحرقون منازلهم لا سيما في عهد المهدي الذي اتخذ من أسلوب التصفية الجسدية للمعارضين والثائرين سبلا لحماية دولته.

المغارم:

يبدو أن قبائل المغرب الأوسط قد تحملت الكثير من الضرائب وذلك راجع إلى حروبهم العديدة.

ومن المرجح أن الفاطميين كانوا يغرمون القبائل التي حاربوها جميع التكاليف التي أنفقوها في أعداد وتسيير حملاتهم ونظرا لأن مؤونة الجيش تقع على عاتق المناطق التي يمر بها سواء في حالة السلم أو الحرب فإن الفاطميين قد فرضوا مغارم على مثل هذه المناطق.

فقد جبي الفاطميون أموالا عظيمة على أهل طرابلس وغرم أهل البلد جميع ما أخرجوه على عسكرهم وهذا ينطبق على الجزائر التي كانت من هذه الحروب خلال القرن 4 هـ / 10 م.

كما نلاحظ بأن الحروب هي حروب عصبيات فيحدث أن يلتف أبناء القبيلة حول أمير منهم كما فعلت مغلبة مع أبي قرة والمغراويين مع بني خزر وبنو يفرن مع يعلى فقد حارب هؤلاء بعضهم بعض وأخذوا أموال بعضهم بعض.

فكانت الأسلاب والغنائم توزع بين المحاربين فينال القادة ربع أو خمس الغنيمة فيما يحصلون عليه من الأموال وهم في طريقهم إلى أهاليهم وكان من حق القادة أيضا أن يأخذوا ما تبقى من القسمة والمسمى بالفضول.

لم تقتصر الغنائم على الحرب بين الفاطميين وأعدائهم بل كان هنالك حروب بين القبائل تندرج فيما يعرف بالثار، فالثأر من أهم العوامل التي كانت تؤدي إلى الحروب في المنطقة والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن بلقين ابن زيري قدم من أفريقية إلى المغرب ليأخذ ثأر أبيه فقاتل زناتة واستأصلهم وملك المغرب الأوسط بأمره.

وقد مارس زيري بن مناد نفسه الغزو في بداية أمره لذا اجتمعت عليه طائفة من عشرته فأغار بهم على من حوله من زناتة والبربر فعظم جمعه وتطلعت نفسه للرئاسة.

بل وكان يحدث الغزو بين أفراد القبيلة الواحدة إذا اختلفت عصبيتهم فحين انقسم بنو سكتان على أنفسهم بين مؤيد ومعارض لأبي عبد الله ثارت فيهم الصيحة فركبوا خيلهم وأخرجوا رحلتهم وعدتهم.

وأحيانا يكون الغزو نوعا من اللصوصية فإذا أشعرت قبيلة بنقص مواردها حشدت قواها وأغارت على قبيلة مجاورة على غفلة منها.

وكانت القبيلة التي تتعرض للغزو وتقوم بغزو معاكس إن كانت قادرة لافتكاك أموالها ومواشيها وسباياها.

قادة زناتة :

يجدر بنا تناول قادة زناتة لأن هؤلاء يندرجون ضمن الجيش الجزائري خلال العهد الفاطمي. ومن بين هؤلاء

عبد الله بن خزر المغراوي [54]:

يعرف بابن تبادلت وقد أشار إلى حركته عبد الله هذا ضد الفاطميين الداعي إدريس في عيون الأخبار خلال حديثه عن حملة القائم سنة 915 هـ فسجل هروبه أمامه من قلعة جمة قرب تيهرت.

إن الجيش الجزائري خلال العصور الوسطى لعب دورا بارزا خارج ما يعرف اليوم بحدود الدولة.

والبداية كانت مع حركة الفتوحات الإسلامية، فالمصادر التاريخية المتوفرة لدينا تشير إلى وجود قيادة بربرية للفاتحين بدأت مع مقتل الكاهنة ولعل تلك القيادة كانت تشرف على البربر الذين اعتنقوا الإسلام وساهموا في مد رقعة الدولة الإسلامية.

وزاد هذا الدور خلال فترة فتح الأندلس وهو ما تؤكده المصادر المغربية فابن غداري يقول " اتفق الجميع فيما يظهر أن من يتولى فتح الأندلس هو طارق بن زياد " [55].

وبقول حسين مونس ومن غريب الأمر أن الجيش الذي أرسله موسى بن نصير كان بربريا صرفا .[56]

دوافع تجنيد البربر:

لعل أهم فترة برز فيها الاهتمام بالجنود المغاربة وأغلبهم من الأراضي الجزائرية، فترة الصراع الأموي الفاطمي حيث انقسمت الجزائر إلى مجموعتين قبليتين: زناتة مؤيدة لبني أمية وصنهاجة وكتامة للخلافة الفاطمية ممّا دفع بطرفي الصراع إلى الاعتماد على المغاربة في قوتهم العسكرية وخاصة في عهد الحكم المستنصر الأموي والمنصور بن أبي عامر[57].

وفي عهد الحكم انتقل عددا كبيرا من البربر إلى الأندلس وبخاصة الفرسان الذين ألحقهم بجنده ونعشهم بعطائه ونراهم بداره وضمهم إلى من أتاه من البربر قبل ذلك وانتقل بهم لديه آخر دولته الصغيرة من هذه الفرق الثلاثة البربرية الرجال رجال بني حسن ورجال بني الأندلس ورجال البرازلية عسكر ضخم يناهز السبعمائة فارس[58].

أما بلقين بن زيري فيقول عن دوافع اعتماد المنصور على البربر «ستجلب المنصور من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدته وتسافح الناس بالجهاد فبادر إليه من شرف العدوة من كان لهم من الأبشار والمكارم والبأس على النصارى[59].

وكانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترب الوغاء وكان من ألهاهم وأبعدهم همة زاوي بن زيري عمنا وبعده حبوس بن ماكسن ابن أخيه فإليهما كان الرأي والمشاورة »[60].

وفي نص آخر يقول: "جزف سعيه إلى الجهاد وشهيد البلاد فاستظهر بفرسان الهيجاء وأبطال الكريهة وأعلام السهرة من فرسان العرب وزناتة الواردين على بابه في سبيل الخسائف والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم فارتاش منهم بأجنحة وافرة لم تستظهر قبله ملك بمثلها كمغراوة وزداجة وزناتة وصنهاجة "[61].

فانتقى الرجال فكان لا يدخل في ديوانه إلا من تقرر غناؤه وتحقق نفعه وكرم موقفه ويرى ابن خلدون " أن المنصور استدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبربر فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم.

ولم يكتف بذلك بل قدم رجال البربر وأخر العرب فأسقطهم عن مراتبهم "[62].

وفي نص آخر يقول "أن عدد الفرسان من البرابرة الغرباء في ديوانه بلغ ثلاثة آلاف فارس فيما لم يتجاوز سبعمائة فارس في عهد الحكم المستنصر".

إن تزايد عدد البربر المتطوعين في الجيش الأندلس يدل بوضوح على المكانة الهامة التي أصبحوا يحتلونها في صفوف الجيش الأندلسي والتي لم يكن أن دخلوا إليها لو لا الشجاعة والفروسية وإقدام القادة المغاربة.

فاستعمال هؤلاء البربر أدى إلى بروز قيادات منهم ومن أشهرهم نذكر على الخصوص:

أحمد بن محمد إلياس التغلبي :

يعتبر من أبرز القادة الذين خدموا تحت لواء الناصر لدين الله.

يقول عنه صاحب مفاخر البربر "أنه الوزير القائد الذي ولي الولاية الجليلة لعبد الرحمن الناضر أمير المؤمنين وكان جده إلياس أحد أعلام البربر الداخلين إلى الأندلس مع طارق بن زياد خلال الفتح الأول" [63].

تولى مهمة تسيير كثير من الكور بالأندلس حيث عين عاملا على كورة تدمير سنة 317 هـ / 929 م والجزائر الشرقية مبورقة منورقة يابسة 318 هـ/ 936 م.

أعماله الحربية:

من أهم الأعمال التي قام بها فتح مدينتي ماردة وشنترين اللتان كانتا في قبضة المعارضين للناصر لدين الله[64]. وفي سنة 319 هـ / 931 م اشترك إلى جانب يونس بن سعيد في قيادة الجملة البحرية التي جردها الناصر ضد الأدارسة وهو الحسن صاحب جراوة ثم وصل الأسطول الأموي إلى جزيرة أرشخيول وتمكن من فرض الحصار على الجزيرة وقتل أكثر رجال ابن أبي العيش.

وفي سنة 321 هـ / 933 استولى على مدينة وشقة القريبة من سرقسطة وهي من أهم مدن الثغر الأعلى وزحف على حصن موريل وهو من حصون محمد بن هشام التجيبي يقع بالقرب من طرسوفة ففتحه وقبض على أحمد بن محمد التجيبي عاملة [65].

وفي سنة 324 هـ / 935م كلف بالتصدي لصاحب برشلونة فوقعت بينه وبين الفرنجة حرب شديدة صبر فيها وانتصر وبعث مما خير من رؤوس أعلامهم إلى باب سدة قرطبة فبلغوا ألف وثلاثة مائة رأس الغرق والقتل على عشرة الألف [66].

لم تتوقف أعماله عند هذا الحد فقط بل كلف من طرف الناصر سنة 326هـ/ 937 م بالخروج إلى بلاد جلالقة الغرب فالتقى بجيش العدو بداخل جليفة فهزمهم وأذرع القتل فيهم[67].

كما قاد حملة أخرى إلى بلاد جليقية 328 هـ / 939 م فشيد خلالها قلعة بثغر ظلبطلة وأنزل به الرجال كما بنى مدينة سكتان بثغر الجوف وحصنها وأقلم بها خلال سنة 329 هـ/ 940 م واستنزل يحي بن دي النون من الحصون التي كانت بيده وعين مكانه ابن عمه موسى بن محمد.[68]

وأخر غزوة له حسب المصادر التي رجعنا إليها كانت سنة 331 هـ/ 942 م التي دخل فيها ثورة تدمير[69].

كبير الدمري الأبرص:

بنو دمر توجد بعض مضاربهم بضواحي المسيلة ويبدو لي أن هؤلاء هم الذين ارتحلوا إلى الأندلس ولعبوا دور مشرف في الجيش الأموي ومن أبرزهم كبير الدمري الأبرص الذي يصفه ابن الخطيب بأنه "من كبار القادة وكان له قدام عظيم في المعركة حيث قتل أحد قواميس بني غوس وجاء برأسه سنة 390 هـ/ 1000م"[70].

زاوي بن زيري :

ينسب إلى قبيلة تلكاتة الصنهاجية التي كانت توجد مضاربها بجبال تيطري وأسست لها عاصمة هي مدينة أشير323 هـ.

رحيل راوي إلى الأندلس يعد خروجه عن الدولة الزيرية وخدم في صف المتصور ابن أبي عامر وأبنائه من بعده يقول في شأنه ابن حيان «أنه كبش الحروب».

الهوامش :

01 - ايفكان عاصمة إمارقبني يقرن على ضفاف وادي إيفكان دمرها جوهر الصقلي.

02 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة ص 61.

03 - ابن حماد ملوك بني عبيد وسيرتهم 169.

04 - ورجلان من أهم المحطات التجارية لجأ إليها آخر أمراء بني رستم.

05 - ابن عذاري البيان ج1 ص 125.

06 - نفسه ص 126.

07 - ابن عذاري المراكشي البيان المغرب تحقيق ج، س، كولان ليفي بروفنسال ج1 ص 125 - 166.

08 - ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر مط بيروت 1967 ج7 ص 31.

09 - نفسه ج4 ص154.

10 - ابن عذاري البيان ج1 ص 166.

11 - ابن خلدون العبر ج6، ص 144.

12 - ابن خلدون العبر ج6، ص 144.

13 - تعتبر سجلماسة من أهم المحطات التجارية خلال هذه الفترة ق 4 هـ/ 10م

14 - ابن خلدون المصدر السابق ج6، ص 145.

15 - ابن عذاري البيان ج1 ص124

16 - أبرز القادة الكتاميين ساهموا في تأسيس الدولة فتلوا.

١٧ - ابن عذاري المصدر السابق ج1 ص.146

18 - نفسه ج1 ص156

19 - ابن حماد الصنهاجي أبو عبد الله اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تحقيق جلول البداوي الجزائر 1984 ص 12.

20 - القاضي النعمان دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام الدشراوي 1986 ج1 ص 272.

21 - أبو عبيد البكري المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 66.

22 - ابن عذاري البيان ج1 ص 198.

23 - في العصور الوسطى والحديثة كانت كل مدينة تحتوي على قلعة تتوسطها.

24 - ابن عذاري البيان ج1 ص 198 وما بعدها.

25 - لم تكن القلعة موجودة بل كانت قلعة أبي طويل التي يبدو أن القلعة التي شيدها حماد بن بلكينكانت على أنقاضها.

26 - أغلب الحروب التي عرفتها الجزائر خلال العصور الوسطى كان للغنائم الشأن الأكبر فيها وفي بعض الأحيان كانت دوافعها.

27 - بتو كملان نقل بعض بطونهم لفحص القيروان بعد بناء المسيلة.

28 - ابن خلدون العبر ج6، ص 305.

29 – ابن أبي زرع روض القرطاس ص 59.

30 – ابن خلدون العبر ج4 ص56 وج7 ص 32.

31 – ابن أبي زرع المصدر السابق ص 39 – 40.

32 – القاضي النعمان المجالس والمسايرات ص 47.

33 – القاضي النعمان المجالس والمسايرات ص 145.

34 – ابن خلدون للعبر ج4 ص 57 وما بعدها.

35 – إن تجارة الأسلحة كانت من أهم أنواع التجارات بين بلدان العالم القديم وقد صدرت بعض الفتوى بعد تربيعها للنصارى واليهود.

36 – ابن خلدون العبر ج4 ص122.

37 – هذه الصناعة كثر انتشارها في أغلب المدن خلال العصور الوسطى.

38 – لمعلة من بين المدن التي كانت تصنع فيها الدرق.

39 – ابن جوقل صورة الأرض ص 70.

40 – أودغست من أهم مدن السودان الغربي وتوجد ضمن مضارب لمتونة الصنهاجية التي تنحدر منها الدولة المرابطية.

41 – إن أبا يزيد مخلد بن كداد خلال انتصاراته استولى على خيول الدولة الفاطمية.

42 – ابن خلدون العبر ج4 ص 57.

43 – القاضي النعمان افتتاح الدعوة ص122.

44 – القاضي النعمان افتتاح الدعوة ص156.

45 – ابن عذاري البيان جص124.

46 – القاضي النعمان، افتتاح الدعوة ص 97.

47 – ابن خلدون المقدمة ص 271.

48 – للقاضي النعمان افتتاح الدعوة ص 206.

49 – القاضي النعمان دعائم الإسلام ج1 ص 272.

50 – نفسه ص 273.

51 – نفس الأسلوب المستعمل من قبل الجيوش الإسلامية.

52 – كان العمل بهذه الاستراتيجية خلال عصور الدول المغربية.

53 – أسلوب الكر والفل استعمل ضد الرومان من قبل يوغورطة واستمر حتى التاريخ المعاصر مثل ما حدث خلال الثورة التحريرية.

54 –ادريس عماد الدين عيون الأخبار تحقيق مصطفى غالب 1975 ص 464.

55 – أغلب المصادر تذكر الدور الهام الذي قام به هذا القائد في مد الإسلام لأوروبا.

56 – حسن مؤنس فتح الأندلس 212.

57 – تولى المنصور بن أبي عامر شؤون الأندلس بعد وفاة الحكم التسنصر.

58 - ابن حيان القرطبي المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ج3 ص 166.
59 - بلقين ابن زيري كتاب البيان ص 57.
60 - نفسه ص 58.
61 - نفسه ص 59.
62 - ابن خلدون العبر ج4 ص 245.
63 - ابن حيان المقتبس ج5 ص 379.
64 - نفسه ج5 ص 913.
65 - ابن حيان المصدر السابق ج5 ص 280.
66 - نفسه ج5 ص 279.
67 - نفسه ج5 ص 425.
68 - نفسه ج5 ص 360.
69 - نفسه ج5 ص 313.
70 - ابن عذاري البيان ج3 ص 125.

الجيش في العصر الحمادي تعداده وتنظيمه وعدته

الظروف التاريخية لقيام الدولة الحمادية :

- بناء القلعة :

تعتبر الدولة الحمادية ثاني دولة جزائرية مسلمة محلية ذات نظام سياسي تأسست بالمغرب الأوسط بعد الدولة الرستمية التي كانت عاصمتها تاهرت ويرجع الفضل في تأسيسها إلى القائد العظيم حماد بن بلكين.

ففي عام 386.996 توفي المنصور بن زيري وخلفه ابنه بادس الذي عقد سنة 387.998 ولاية أشير لعمه حماد الذي اشتهر في عهده وكان مخلصا لابن أخيه في بداية الأمر فدخل بعدها بسنتين في حرب ضد زناته عام 389.998 التي انهزم فيها شر هزيمة إلى جانب يطوفت حاكم تيهرت الذي سعى لنجدته أمام المعز بن عطية المغراوي في موقع يقال له وادي مياس على مرحلتين من تيهرت وتجدر الإشارة أن حماد لم يكن في هذه المعركة سوى مساعد ليطوفت والي تيهرت وقد تميزت الفترة بين 390/395 بهدنة بين زناته والزيرين وكان أثناءها حماد يتردد بين أشير وصبرة بين الفينة والأخرى لمساعدة ابن أخيه باديس.

إضافة إلى ذلك فقد حدث في بداية عهدة حكم بأديس أن ثار ضده بعض المنافسين من أفراد أسرته مثل ماكسن وزاوي فسير لهم باديس عمه حماد الذي تولى محاربة أعمامه ماكسن وزاوي سنة 390/1000[1] واستطاع بفضل ذكائه وحنكته السياسية والعسكرية وشجاعته[2] أن يضع حدا لهذه الثورة ويخرج حماد منها منتصرا خاصة بعد أن تمكن من حصار زاوي في جبل شنوه شرق شرشال وطلب هذا الأخير السلم فقبل له حماد على أن يرحل مع تابعيه إلى الأندلس عام 391/1002.

ولعل أبرز مظاهر شخصية حماد العسكرية كانت قد ظهرت سنة 1004-395/1005 حين انتصر حماد على زيري بن عطية وعلى اثر تلك الانتصارات تجلت

المعالم الكبرى لشخصية حماد العسكرية وطموحه السياسي في إقامة دولة مستقلة عن الدولة الزيرية فطلب من ابن أخيه تملك ولاية أشير وبلاد المغرب الأوسط وكل ما يفتحه من بلاد زناته وان يختار مكان أقامته بل إضافة إلى شروط أخرى أشار إليها ابن الخطيب ويعتقد الأستاذ عويس أنها تتمثل في تزويد حماد بالعتاد والمال والرجال[4]. فاستجاب باديس لمطلب حماد وأذن له في تأسيس عاصمته التي صارت تعرف بقلعة بني حماد أو قلعة أبي طويل.

لم يكن اختيار موقع القلعة محض الصدفة بل كان نتيجة لنظرة إستراتجية عسكرية دفاعية محطة هدفها تدعيم استقلال الدولة من جهة واستجاب لأحد أهم شروط العقد السياسي بينه وبين ابن أخيه باديس والذي كان بمثابة الوثيقة الشرعية لقيام الدولة الحمادية المستقلة في الجزائر.

وقد استطاع حماد بشجاعته وخبرته أن يكسر شوكة أعدائه زناتة الذي توالت انتصاراته عليهم وتوسعت رقعة دولته شرقا ناحية أحواز قسنطينة فنزل بتيجس ثم تحرك إلى ناحية أبى الطويل القريبة منها [5] ومن هنا أعلن انفصاله عن الدولة الزيرية مما جعل الصداقة بينه وبين باديس تتحول إلى عداوة.

بناء القلعة :

في خضم تلك الانتصارات الباهرة شرع حماد في بناء المدينة الجديدة قلعة بني حماد 1007-398/1008 وشيد بها القصور وخلد الآثار واستكثر من العمران واستكثر فيها من المساجد والفنادق فاستبحرت في العمران واتسعت في المدن فهاجر إليها طلاب العلم والمعرفة وأرباب الصنائع والحرف [6].

وكان تمام بنائها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة ثم نقل أليها أهل المسيلة أهل حمزة كما نقل إليها جراوة من المغرب أنزلهم بها واد كان العقد السياسي هو الميلاد النظري للدولة الحمادية فان تأسيس القلعة كعاصمة مستقلة للدولة دلاه ارتباط تاريخي بمؤسسها حماد بعد الميلاد العلني والتاريخي للدولة الحمادية على حد تعبير عويس وظل حماد يتردد بين أشير عاصمته الأولى والقلعة العاصمة

الثانية للدولة المستقلة في إطار الحكم الزيري محاولا تدعيم شخصية هذه الدولة الفتية له ولبنيه وأحفاده من بعده واستطاع حماد أن يوسع حدود دولته شرقا أقصى أحواز قسنطينة شمالا حتى مدينة بونه الساحلية والساحل الغربي عند منطقة سبق وجنوبا مدينة ورجلان لكن حدودها الغربية لم تتجاوز تيهرت لكن القادة الحماديين كانت لهم عدة محاولات لتوسيع دولتهم الى الشرق والغرب على حساب الزيريين والمرابطين وباءت في معظمها بالفشل باستثناء بعض المحاولات التي استطاع الجيش تعتبر الدولة الحمادية من بين الدول الكثيرة التي قامت على سواعد الجيش وحد السيوف وضربات الرماح تحت قائدها العظيم حماد بن بلكين ابن زيري الذي ابتنى القلعة على راس المائة الرابعة ولم تمر على ذلك التاريخ ستة سنوات حتى أعلن انفصاله عن الدولة الزيرية عام 405 1014 معلنا بذالك ميلاد ثاني دولة مستقلة بالمغرب الأوسط بعد دولة الرستميين والتي عرفت باسم دولة بني حماد وعاصمتها القلعة التي تقع على بعد حوالي 30 كم جنوب المسيلة.

الجيش البري

إن الحديث عن الجيش البري الحمادي والخوض فيه سواء تعلق الأمر بتشكيلاته المختلفة وفصائله المتنوعة وتعداده وعدته وتنظيمه الإداري والمالي، يعد في اعتقادنا ضربا من الخيال وطموح صعب المنال لسببين رئسيين :

أولهما : قلة المعلومات التي تناولت الموضوع إن لم نقل شحيحة أوشيه معدومة وسكوت المصادر التاريخية والأدبية وعدم توفر الأخبار بالقدر الكافي الذي يسمح لنا بتكوين صورة عن هذا الموضوع.

ثانيهما : أن المعلومات التي نقلها إلينا الاخباريون والمؤرخون لا تعدو مجرد إشارات خفيفة وأرقام يميزها الاختلاف على مستوى العدد الذي كثيرا ما تضاربت أرقامه فيما بينها وخاصة فيما يتعلق بعدد الجيش والظرف المكاني والزماني لوقوع بعض الأحداث التاريخية التي حدثت في السابق التاريخي لهذه الدولة إذ يجب التعامل مع هذه الأرقام بكل حذر ويجب فحصها وتمحيصها بكل دقة لتجنب الوقوع

في المغالطات التي قد تتركب على الأحكام المتسارعة التي تسببها مثل هذه التناقضات.

ومهما بلغت درجة هذا التضارب فان ما وصل إلينا من أخبار ومعلومات عن هذا يقتصر فقط بالاستعدادات لخوض المعارك الحربية سواء ضد العدو أو لإخماد بعض الفتن التي كثيرا ما كانت تحدث هنا وهناك، وإذا سلمنا بهذه الأرقام رغم ما يشوبها من اختلاف فيمكن القول أن أمراء دولة بني حماد كان بمقدورهم أن يعينوا ما لا يقل عن ثلاثين ألف فارس ومثلهم من الرجالة أي المشاة على غرار بني عمومتهم الزيريين ليصل العدد المجند بذلك إلى ستين ألف محارب وهو أقصى ما كان يمكن بلوغه من تعبئة شاملة في حالة الحرب ضد العدو وأقل من ذالك دون تحديد العدد قد يصل إلى النصف أو يزيد وينقص حسب تقدير الضرر ووفق ما كانت تقتضيه الظروف في حال الخروج لإخماد الفتن الداخلية التي تثار هنا وهناك.

ويذكر المؤرخون أن المعز بن باديس نزل بصقلية في عام 427 1035 على رأس جيش يقدر بثلاثين ألف راجل كما تذكر المصادر التاريخية أن ناصر الدولة باديس عبر نهر شلف عام 1016/406 لملاقاة عمه حماد بثلاثين ألف فارس وهزم حماد وانتهب عسكره في هذه المعركة وكان من بين ما انتهب منه عشرة آلاف درقة.

وقد علق صاحب البيان على ذلك بقوله «واخذ الناس من الأموال والغنائم مالا يحصى عددا وكثرةالأمر الذي أكده حماد نفسه لما رأى من تفاني الجند والتفافهم حول قائدهم باديس عند التقاء الجمعان فهمس في أذن أخيه إبراهيم قائلا مثل هؤلاء يخدم الملوك وصلت أنا إلى أفريقية على راس ثلاثين ألف فارس ما منهم إلا أحسنت إليه أنعمت عليه فعدت إلى القلعة وما معي منهم إلا اقل من ستمائة فارس وأنا بين أظهرهم».

ويستنتج من هذه الشهادة أن تعبئة جيش بهذا الرقم من الحيلة ليس مبالغ فيه وليس من الأمور التي تستعصي على أمراء بني حماد وإنما هو أمر ممكن التحقيق لاسيما حينما يتعلق بالحروب والمعارك الكبرى التي كانت تخوضها جيوش

الحماديين ضد الزيريين والمرابطين على السواء والشيء نفسه بالنسبة لجنود المشاة الذين كان عددهم لا يقل عن عدد الفرسان في نفس الظروف.

عندما خرج الناصر بن على الناس إلى تلمسان سنة 4961103 كان تعداد جيشه يتألف حسب ابن الخطيب من اثني عشر ألف محلة وقدرة ابن خلدون بعشرين ألف جندي.

وأما في حالة السلم فان الانتقال إلى بجاية كان للدولة خلالها جيشا يمثل الرصيد الدائم والقوة الضاربة للجيش الحمادي ويتكون أساسا من الصنهاجيين ومن العبيد وقد قدر عدد الجنود الذين كانوا يقيمون بشكل دائم في القلعة اثنا عشر ألف فارس صنهاجي وما يعادله من المشاة زيادة على الجنود الذين كانوا يرابطون بالمدن الأخرى بالإضافة إلى الجنود المؤقتين من غير الصنهاجيين وكانت مهمة المقيمين في القلعة الدفاع عن العاصمة في حالة الهجوم عليها وكانت هذه الفرقة تقوم أيضا بإخماد الحروب الداخلية التي تحدث في محيط الدولة وكثيرا ما ردت الأعداء من جهة أخرى بحكم استعدادها الدائم فهي رمز من رمز السلطة لما لها من دلالات وهي لاتعكس فقط وجود كيان نظامي وإنما هي أيضا قوتها الرادعة ودرعها الواقي الذي يمكن تشبيهه بالوحدات الملكية والجمهورية في وقتنا الحالي من حيث أنها وحدة نظامية محترفة.

تركيبة الجيش الحمادي :

كان الحماديون يعتمدون في الأساس على قبيلة صنهاجة الزيرية لتشكيل جيوشهم وكانت القبيلة تمثل المصدر الأساسي الذي تمد هذا الجيش بالعدد الكافي من الجند الدائم أو ما أصبح يعرف في وقتنا الحاضر بالجيش النظامي الذي كان يمثل العمود الفقري والقوة الضاربة للدولة وتتميز عناصر هذا الجيش بولائها المطلق لرمز الدولة وتمثل القوة الضاربة والدرع الواقي لحماية حدودها وأما العبيد فليس هناك ما يؤكده تأكيدا ثابتا.

اعتمد أمراء بني حماد على هذا الصنف من الجيوش على خلاف بني عمومتهم الزيريين الذين أكدت المصادر التاريخية أن لهم جيش مكون من العبيد بلغ عدده

ثلاثون ألف مملوك حسب ابن الأثير كانوا يمثلون الحرس الخاص للأمير ولكن سعيد زغلول يشير إلى وجود قوات نظامية من العبيد السود في جيش الناصر بن عالناس كانوا يحاربون إلى جانبه في معركة سبيبة قرب القيروان وقد ساق لنا ابن عذارى وابن الأثير خبر معركة حيدران بين بين المعز والعرب وكيف انهزمت عساكر المعز شر هزيمة من طرف بضعة آلاف من القبائل الهلالية إلى أن وصلت الرماح إلى المعز رغم المقاومة الشرسة للعبيد الذين فدوه بأنفسهم وقد مات منهم خلقا كثيرا وعلى الرغم من هذا التناقض لا نستبعد وجود عناصر من العبيد في الجيش الحمادي الذي لم يكن يختلف عن جيش عصره خاصة الجيش الزيري الذي تفرع عنه الجيش الحمادي إلى جانب الجيش النظامي هناك جيش المتطوعين وهم عبارة عن خزان تحتاج إليه الدولة في حالة الحرب وقد أشارت إليه المصادر التاريخية وبينت لنا أنه يتشكل من القبائل الأمازيغية والهلالية ويتم التجنيد مقابل أموال تقدمها الدولة لهم وتتشكل هذه القبائل من مختلف بطون زناتة زيادة على بطون صنهاجيون وقبائل عربية مكونة من آلاثبج وزغبة وعدي وربيعة وغيرها كما كان للزيريين كذلك حلفاء من مختلف القبائل البربرية والعربية خاصة قبيلة بنو سليم وبنو عامر.

وكان هذا الرصيد من الجيش يستغنى عنه مباشرة بعد أن تستقر الأوضاع وبعد أن تضع الحرب أوزارها ويستتب الأمن في ربوع البلاد وقد كانت الدول تعتمد في استراتجيتها العسكرية على التجنيد المؤقت عن طريق الإغراء والفوز بنصيب من المغرم التي يغنمه الجيش في حالة تحقيق النصر لذلك كان الجندي يثبت في المعركة ويبلي البلاء الحسن حتى يغنم ويفوز على أن هذا الصنف من الجيوش لم يكن دائما مصدر نعمة على الجيش النظامي لكونه لا يحارب من أجل مبادئ ولا من أجل هدف أسمى وإنما كان بدافع مادي محض لذلك كلن ولاؤه لمن يدفع أكثر وكثيرا ما كان يغير موقفه ويميل الكفة لصالح طرف دون تأخير أثناء المعارك مقابل دنانير إضافية يدفعها أحد المتخاصمين فيكون سببا في الهزيمة. فهو يعمل عمل الجنود المرتزقة اليوم ومما يؤكد ذالك أن ابن الأثير نقل لنا خبر خروج الناصر بن

علناس عام 457 1063 على راس جيش من صنهاجة وسار معه المعز بن عطية على راس زناته وشيوخ العرب على راس آلاثبج لملاحقة تميم في موقع يقال له سبيبة عام 457 10064 فانهزم الناصر بسبب خدعة دبرها له المتحالفون معه من برير زناته فانسحبوا من المعركة بعد أن كان متفوقا على تميم ولم يسلم إلا في عشرة فرسان.

وقدر بعض المؤرخين الناجيين من أتباعه بماتين فلحق بقسنطينة ثم القلعة بينما قدر عدد القتلى من صنهاجة وزناته في تلك المعركة بأربعة وعشرين ألف قتيل ولم يشير ابن الأثير إلى عدد القتلى من العرب يقال بأنهم انسحبوا ولم يدخلوا المعركة من أساسها بناء على اتفاق مسبق مع بني سليم والقبائل الأخرى المتحالفة مع تميم مقابل الأموال والأسلحة للأمراء.

وكان هذا النوع من التجنيد يشكل دعامة للجيش الحمادي النظامي لأن العبرة في تلك المدة كانت بالكم والعدد زيادة على التدريب والشجاعة ولم تكن الغلبة بنوع الأسلحة التي كانت هي نفسها عند معظم الجيوش.

ويهدف خلق نوع من التنظيم وأحداث ما يعرف تكتيكيا بالتنسيق بين مختلف فصائل الجيش لإعطاء القوة وخلق التماس في الجيش.

قسم الحماديون جيشهم إلى عدة فرق وكل فرقة تنسب إلى أصولها على خلفية نظام الكر أديس وهي عبارة عن كتائب كل كتيبة تسمى الفصيل واحد يقوم على العصبية العرقية والقبلية لكي يضمن الانسجام والثبات في المعركة وحتى لإيقاع الانشقاق بين مختلف عناصر الجيش من جهة وبين هؤلاء وقيادة الجيش من جهة أخرى وفي أهمية القتال على وحدة العصبية القبلية يقول ابن خلدون في مقدمته «وإنما الصحيح المعتبر في الغالب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفي الجانب الآخر عصائب متعددة لان العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرقان الفقدين للعصبية» فأصبح الجيش يتشكل من عدة سرايا أو فرق ترتب حسب أهميتها وفق التنظيم الآتي.

الفرقة الصنهاجية :

تتشكل هذه الفرقة من عناصر ذات أصول صنهاجية تمثل رأس الحربة في الجيش الحمادي وقوته الضاربة في المعلاة ولها القيادة العامة لكل الفرق الأخرى وجزء هام من هذه الفرقة خيالية كانت أم رجالة هي جيش نظامي وعلى دراية كبيرة بمختلف فنون القتال والحرب بفضل التدريبات المستمرة التي كان يقوم بها أثناء السلم وكانت فرقة الجيش الصنهاجي هي التي تتصدر مقدمة الجيش في السير إلى المعركة وفي خوض الحروب وكان يقودها في الغالب الأمير أو من ينوبه من العائلة الحاكمة وقائد عسكري غير منتسب للعائلة الحاكمة.

فرقة السودان :

تتكون هذه الفرقة من عناصر سودانية معظمها من العبيد السود الذين امتلكهم الملك إما بشرائهم عن طريق التبادل التجاري بين المغرب والسودان الغربي أم عن طريق الأسر في الحروب زيادة على الخصائص التي يتميز بها العبيد السود من صبر وقوة فقد كان عناصرها يختارون من أشدهم قوة وصلابة وجسارة وكانوا يخضعون لعمليات تدريب شاقة ومتميزة من حيث خطورتها وتتناسب مع نوعية المهام المستندة إليهم ولا تخضع لها بقية الفرق الأخرى وقد كانت هذه الفرق تعد حرسا خاصا بحماية الأمير وعناصرها ملتزمون بفدية الملك بأنفسهم كما فعلوا مع المعز بن باديس.

وبهذه الفرقة يضمن حماية نفسه من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر في المعارك الحربية التي توفر المناخ المناسب لمثل هذه المؤامرات.

الفرقة الأندلسية

تتكون في غالبتها من العنصر البربرية وقليل من العناصر الأندلسية ولم يثبت بعد أن كانت هناك فرقة مشكلة أساسا من الأندلسيين فقط.

وإنما الظاهر أن عناصر من الجند من ذوي الأصول الأندلسية دخلوا كقادة محاربين مختصين في بعض أنواع الأسلحة أو في بعض ألوان الحرب كالقتال في البحر أو في صناعة بعض الأسلحة واستعمالها كالمنجانيق والنفط وغيرها من الاختصاصات التي كان يتفوق بها الجندي الأندلسي.

وقد حدث هذا بعد انتقال العاصمة إلى بجاية أصبحت الدولة الحمادية دولة بحرية فأراد الأمراء الحماديون أن يستفيدوا من خبرات الأندلسيين الذين استقروا على السواحل الحمادية كبجاية وبونة ودلس وكانوا مهرة في البحر بفضل مراسيهم الذي اكتسبوه عبر التاريخ الطويل للبحرية الأندلسية ومن الأسطول المرابطي الذى كان من أقوى أساطيل عصره فقربهم الناصر وخلفاؤه إليه من أجل أن يبعث في بلاده الصناعة الحربية التي أقام لها دور كبير في بونة وبجاية.

فرقة الروم :

تتشكل الفرقة من أصول مسيحية من سكان جنوب أوروبا ويتم في الغالب أمتلاكهم عن طريق الأسر أو ممن يتم شراؤهم من تجار النخاسة أو من الروم المقيمين في الدولة وكانوا قد اعتنقوا الدين الإسلامي ولدينا في تاريخ المغرب يقول اعتمد المعز لدين الله الفاطمي على قائد رومي هو جوهر الصقلي وكيف فضله على حلفائه التقليديين من كتامة وصنهاجة لقيادة الحملة على مصر عام 358.968 على رأس جيش قوامه مائة ألف جندي من البربر.

إلى جانب هذه الفرق النظامية هناك فرق أخرى غير نظامية من حلفاء الحماديين كانت تمد الجيش الحمادي بالدعم العسكري من وقت لآخر كلما دعت الضرورة إلى ذالك وهي فرقة البربر من زناتة تتشكل من عناصر زناتية حليفة للدولة تشد عضدها أثناء الأخطار الكبرى التي تحدق بأمن وسلامة الدولة بناء على اتفاق مسبق يحصل بين شيوخ القبيلة وأمير الدولة لتحديد دورها في الحرب ومقدار الغنائم التي تحصل عليها وتتشكل عادة من بطون مغراوة وبني وماتوا.

فرقة العرب :

تتكون الفرقة من القبائل العربية الموالية للحماديين وتتشكل أساسا من بني هلال وعرب الأثبج وعرب عدي وينحصر دورها في تقديم الدعم والسند للدولة أثناء الحرب مثلها مثل القبائل البربرية.

إضافة إلى ذلك هناك فرق أخرى عبارة عن كتائب صغيرة تلقن تدريبات ودورها في الحماية والأمن الشخصي للعائلة الحاكمة وتقوم بحراسة القصر وتسمى باسم الحرس الخاص وكانت تخصص لهذه الفرقة ثكنات خاصة بها حتى لا تختلط مع غيرها من الجند لأنها تمثل النخبة وكانوا يختارون من العناصر الصنهاجية أو من العبيد السود أو الروم وقد خصص لهم مكان بداخل قصر البحر.

أقسام الجند :

معلوم أن الجيش الحمادي قبل انتقاله لبجاية وقبل أن تصبح الدولة الحمادية ذات قوة عسكرية بحرية كان جيشها يتكون من قوة برية تتشكل من وحدتين رئيسيتين هما الخيالة الفرسان وهي القوة العسكرية الضاربة وترجع لها الكلمة الأخيرة في أي معركة وكانت تتكون من حوالي ثلاثين ألف فارس ويعتبر جيش الفرسان في أي دولة من أهم الفرق وأكثرها نبلا وكانت الخيالة الإسلامية تمتاز دائما بخفة الحركة لاستعمالها خيولا يقضة وسريعة تتأقلم مع كل أنواع المناورات السريعة المرنة مع كل الحركات المفاجئة.

الرجالة المشاة وهي القوة الثانية من حيث الفاعلية في الحرب وتتكون أيضا من نفس عدد الفرسان ورغم الصمت الذي ضرب على الجيش الحمادي الذي لم يحظى بنفس الأهمية التي حظي بها الجيش الزيري والمرابطي فالمعلومات القليلة التي بحوزتنا توحي بما يجعلنا نعتقد أن الجيش الحمادي كان منظما وفق قواعد محكمة التنظيم حسب تشكيلاته من قبائل ووحدات متنوعة التخصصات.

ولاشك أن الأخبار التي نقلتها بعد المصادر عن التدريبات اليومية التي كانت تقوم بها وحدة الفرسان المرابطة في القلعة عاصمة الدولة دليل على وجود نظام ما لتسيير الجيش إداريا وعسكريا من ذالك التمارين التي كان الفرسان يقومون بها على مسافات معينة خارج القلعة ما هو في الواقع إلا أجراء تنظيمي وتدريبي الهدف منه السماح لهولاء بتجديد قوتهم. ومن المؤكد أيضا أن الصنهاجيين سواء كانوا في أفريقية أوفى القلعة أوفى بجاية كانوا يمارسون الفروسية حيث يخرجون كل صباح سواء في زمن الحرب أو السلم ليحافظون على لياقتهم البدنية وكانت هذه الخرجة تسمى تسابت أو استعيست ورثها الحماديون والزيريون عن الخلافة الفاطمية الذين كانوا يخرجون كل يوم لانتظار عودة المهدي المنتظر مصحوبين بحصان مسروج يدعى فارس النوبة.

وكانت تلك القوة مهيكلة وفق التقسيمات السابقة فرسان رجالة إلى عدة وحدات وفرق عسكرية قتالية آخذة في الاعتبار عنصر الإختصاص من جهة وعنصر الوحدة العسكرية التي ينتمي إليها من جهة ثانية بحسب مختلف الفصائل وتخصصها والأصناف المعروفة في ذلك الوقت مع أننا ليس لدينا صورة واضحة بالقدر الذي يسمح لنا بأكالة اللثام عن تقسيمات هذا الجيش ولا نحوز إلا على القليل من هذه المعلومات التي نقلها إلينا ابن الخطيب عن الجيش الذي حركه المنصور صوب تلمسان سنة 496 .لتحريرها من قبضة المرابطين حيث قال انه كان يتكون من اثني عشر ألفا وقدره ابن خلدون بعشرين ألفا من الجند ونفهم من كلام ابن الخطيب أن المحلة هنا ما هي إلا وحدة عسكرية تتكون من عدد غير معروف وغير محدد من الجنود وبمقارنة مع عدد المحلات والرقم الذي أشار إليه ابن خلدون يتبين أن المحلة يمكن أن تتشكل من 16666جندي.

وإلى جانب المحلة فقد أشارت الكثير من المصادر التاريخية إلى وحدات عسكرية أخرى مثل الفرقة التي نجهل كذلك العدد الذي تتكون منه كما جاء أيضا ذكر السرية إذ حدث في عهد الناصر أن سير جيشا بقيادة ابنه المنصور لإخماد ثورة بسكرة ولما انتهى من ذلك بعث سر إياه إلى ورجلان.

ورغم اقتصار إشارات المؤرخين على ذكر هذه الوحدات فانه لا يستبعد أن تكون هناك وحدات عسكرية أخرى كالكتيبة والفيلق وربما حتى المجموعة وما إلى ذالك من الوحدات التي لم تصلنا أخبارها من ذلك على سبيل المثال أن التنويري أشار إلى فرقة عسكرية اسمها العرافة والتي لا نعرف أهميتها العسكرية ولعلها المتخصصة في ميدان الجوسسة أو العيون لان اغلب الجيوش تملك فرقة مختصة في التجسس.

وبعد أن تعرفنا على الوحدات العسكرية التي يفرض أن تكون للجيش الحمادي فأننا لا نملك الأرقام لكل وحدة عسكرية من تلك الفرق.

القيادة العسكرية :

لقد قاد أمراء بني حماد بأنفسهم الكثير من المعارك الحربية أشارت إليها المصادر التاريخية من بينها معركة شلف عام 406 1016 بين الجيش الحمادي ونظيره الزيري وكانت قيادة الجيش تحت إمرأة حماد وكان يقود الجيش الزيري باديس.

كما خرج بلكين بن حماد على رأس جيشه لغزو بلاد المغرب سنة 454 ولم يتوقف إلا بعد أن نزل فاس كما قاد الناصر الجيش الحمادي في سببية ضد الزيريين بقيادة تميم بن المعز وفعل ذلك المنصور بعده لاسترجاع مدينة تلمسان من المرابطين 496 والتي كانت تحت حكم تاشفين ومع ذلك لم يحتكر الملوك الحماديين قيادة الجيش وفسحوا المجال لغيرهم وفي ذلك أشار المؤرخون إلى عدة أسماء من الأمراء والعائلة الحاكمة التي تقلدت هذا المنصب القيادي الهام أسندت إليها قيادة الجيش الحمادي من ذلك ذكر ابن خلدون أسماء لقائدين عسكريين في عهد حماد أسند لهما القيادة هما عباد صادق وعبد الله بن سكر دير لك الصنهاجيان وسليمان ابن بطعتان أيام باديس وقدولي الناصر وزيره بلكين من قبله خلف بن أبي صدرة قائدا لجيشه وأيام حكم المنصور بن الناصر أسندت قيادة الجيش الى أبو يكنى بن محصن بن العابد الذي سير جيشا عام 487 على رأسه أبو يكنى لمحاصرة أخاه ببار الذي احتمى بمدينة قسنطينة.

وفي عهد العزيز أسندت قيادة الجيش إلى الوزير علي بن حمدون إلى جانب ذلك قائد الأسطول باديس وهو الذي قام بحصار جربه وتونس وإخضعهما لطاعة العزيز.

هذا القائد الذي رثاه الشاعر بن حميدس في قصيدة يقول في إحدى أبياتها معددا مناقبه.

وكنت آمين لك حقا وسيفه ومن حسنات البر كان

لك الغمد وأنت ابن حمدون الذي كان يعبر عن ناديه في عرفه الند.

وعلى عهد ابنه يحيى أوكلت قيادة الجيش إلى مطرف بن علي بن حمدون الذي حاصر المهدية برا وبحرا في غضون سنة 522.530 دون أن ينال منها لاستعانة صاحبها الحسن بن علي بالنورمان كما سندت القيادة في عهد هذا الأمير إلى رجل فقيه هو الطاهر بن كباب الذي جمع بين العلم كفقيه وبين القيادة العسكرية لذلك سمحت له هذه الخصال من قيادة الجيش والجمع بين القيادة البرية والبحرية معا.

وأما الذين تولوا القيادة من العائلة فهم كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال ان الناصر بن علنايس كان عهد قيادة الجيش إلى ابنه القاسم وابنه المنصور وفي آخر عهد الدولة يذكر ابن الأثير تولى قيادة الجيش كل من جو شن بن العزيز الصنهاجي وابن الدحاس الهيلالي من قبيلة آلا ثبج وربما كانت هناك أسماء أخرى لم يتطرق إليها المؤرخون لاسيما قادة السرايا.

ومن هذه الألقاب يذكر روجي إدريس اسم المقدم كان من الأسماء العسكرية المتداولة في العهد الحمادي وربما كان ذلك مثل بنو عمومتهم الزيريين الذين كانوا يطلقون هذا الاسم على رؤساء الجيوش فتميم كان فقد أطلق اسم المقدم على أحد قادته العسكريين ويعني هذا اللقب ما يعنيه أنه رئيس الجيش والمسئول الأول عنه وهو الذي يتقدمه والمشرف عليه.

ومن الألقاب الأكثر استعمالا وتداولا في العهد الحمادي اسم القائد وقد أشارت إليه كثير من المصادر التاريخية وقد وردت القيادة تحت مفاهيم كثيرة.

وقد ورد في بعض المصادر اسم العريف ويذكر أن هذا الاسم كان يطلق على قائد الجيش والذي كان يلقب تارة بالقائد وتارة بالعريف الذي كان على رأس العرافة حسب براتشفيك والجدير بالذكر نشير إلى اسم عنبر الذي أطلقه المعزز على أحد القادة العسكريين من السود كما لا نستبعد أيضا أن يكون للقائد العام رمز يميزه عن غيره من قادة رؤساء الوحدات العسكرية كأن تكون له بدلة أو خلعة وعمامة خاصة به لتمييزه عن بقية الجند كما هو الحال بالنسبة للجيش الفاطمي فقد ذكر الشماخي أن المعز لدين الله كان كلما وجه جيشا في حملة تأديبية إلا وسلم له عمامة حمراء ولواء احمر علامة على غضبه والعكس صحيح واللواء الأبيض يرمز إلى حسن استعداده.

في معركة شلف تعمم حماد بهذه العمامة الحمراء وإن التعمم هو عادة فاطميه أخذها عنهم الزيريون والحماديون خاصة اذا أعلمنا أن القلعة كانت تشتهر بصناعة العمائم وان ارتداء أفضلها كان من طرف الأمراء الحماديين والأشراف والعلماء والقادة وغيرهم كل بحسب مكانته الاجتماعية في المجتمع الحمادي هذا من جهة ومن جهة أخرى قد يكون أيضا لرؤساء الوحدات من الفرسان والمشاة.

الأسلحة :

قبل التعرض بالتفصيل للعتاد الحربي الحمادي يستحسن أن نشير ولو باقتضاب إلى وسائل النقل التي كانت مستعملة في ذلك العصر والتي كان الحماديون يستعملونها لنقل الاسلحة والمواد الغذائية والخيام والأموال لصرف رواتب الجند وما إلى ذلك من العتاد الذي يحتاج إليه الجيش ذلك إن الخروج للحرب كان يستغرق أحيانا أشهر طويلة قد تقترب أحيانا من السنة يقضي الجند معظمها في السير والتنقل خاصة في الذهاب والإياب ولذلك كان لابد من إيجاد وسائل النقل.

ومن بين الحيوانات المستعملة هي المتوفرة ببلاد المغرب خلال تلك المدة وتتمثل خاصة في الحمير والبغال والإبل.

ورغم جهلنا لوجود مخازن الأسلحة والعتاد الحربي بشكل عام في القلعة وفي بجاية إننا نستطيع التكهن بوجودها تأسيا بأسلافهم الفاطميون كما كانت هناك إسطبلات للخيل ومخازن لخزن المؤون والمواد الغذائية.

أما الأسلحة الحمادية فلم تكن تختلف تماما عن أسلحة الجيوش المعاصرة لهم فكانوا يمتلكون الأسلحة المتداولة لدى الزيريين والمرابطين وقبلهم الفاطميين.

وقد أشارت إلى معظمها المصادر التاريخية والأدبية التي اعتادت تقسيمها إلى نوعين حسب وظيفتها وهي الأسلحة الهجومية على وفرتها وتنوعها في متناول الجيش الحمادي ولعل أهميتها ذات الانتشار الواسع.

السيف :

وهو أمير الأسلحة البيضاء وأنبلها عرف منذ الأزمنة البعيدة في القدم كما عرفه العرب في الجاهلية وبعد الإسلام وكذلك المغاربة وكان من أهم الأسلحة، وكانت تصنع في كل من اليمن ودمشق والقاهرة وطليطلة.

شاع في بداية الأمر السيف المستقيم المقوس ذو النصل الواحد وكان السيف العربي يصنع من الحديد والصلب كما صنعت للسيوف أغمد من الخشب المرصع والمغطى بالجلد والتي كانت في الغالب تعلق بينما أثناء السير خارج أوقات الحرب تحمل على الأكتاف بالنسبة للمشاة وتربط في الأرجل بالنسبة للفرسان.

الرمح :

يعتبر الرمح من الأسلحة الأساسية التي تستخدم من قبل الجيش الحمادي خاصة والجيش العربي عامة وقد استعملت من طرف المشاة والفرسان على السواء ولرأس الرمح أشكال متعددة منه العريض ومنه الرفيع والمموج كما اختلفت أطواله أيضا فمنه الرمح الطويل ومنه الرمح القصير ويسمى حامل الرمح الرماح وقد أنشد الشاعر يوسف بن مبارك مادحا بني حماد :

هناكم النصر ونيل النجاح في يومكم هذا بسحر الرماح

الحربة أو المزرق :

من الأسلحة القديمة وهي الرمح الرقيق وهي ضمن الأسلحة التي كانت بحوزة الجيش الحمادي والعربي ومنها أنواع شتى ولعل القطعة الخزفية التي بحوزة متحف سطيف والتي ترجع إلى القرن الخامس الهجري والتي رسم عليها محارب يحمل في إحدى يديه رمحا لدليل مادي على وجود هذا النوع من الأسلحة وتداوله بصفة عادية.

الخنجر :

من الأسلحة القديمة الاستعمال والتي لا يمكن التشكيك في استعمالها من طرف الجيش الحمادي نجد الخنجر الذي يشد إلى الذراع الأيسر ويربط بالأصبع الأصغر بواسطة خيط حتى لا يسقط هذا النوع من السلاح كان معروفا قبل الفترة الإسلامية في بلاد البربر ناحية الأوراس ثم عند الإباضيين بالجريد.

القوس والسهم :

وهو من أقدم الأسلحة القتالية الهجومية أيضا عرفه المشرق منذ القدم وقد جاء ذكره في الأشعار العربية قبل الإسلام ومن بين الشعراء الذين اشتهروا به في الجاهلية الشنفرة اتخذه المسلمون كسلاح أساسي في جيوشهم الأمر الذي أدخل عليه بعض التحسينات على مر العصور ويتكون القوس عادة من البدن والوتر وكان يصنع من خيوط مفتولة أو من شراك جلد أو من خشب الزان كما صنعه المسلمون في العصور الوسطى من القسي واصطنعوا أيضا لرمي السهام ضروبا من المنجنيق توضع في الواحدة منها عدة سهام وترمى منها وربما استعمل الحماديون كثير من السهام التي عرفها العرب في ذلك الوقت.

الدروق :

مصنوعة من جلود الضباع وكانت توضع على الصدور والأكتاف وكذلك على الأيدي تستعمل لحماية المقاتل من ضربات السيوف والسهام وغيرها ويسمى صانع الذرف.

ومما يؤكد وجود هذا النوع من السلاح لدى الجيش الحمادي والزيري أن تميم بن المعز قد سلم لبني سليم والاثبج قبل معركة سبيبة ألف درقة.

وعن الدروع الجلدية يخبرنا ابن الأثير «أن العرب لما رأت عساكر صنهاجة وعبيد المعز بن باديس هالهم ذلك وعظم عليهم فقال لهم مؤنس بن يحي ما هذا يوم فرار أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكرغندات ويقصد بها طبعا الدروق وهي تبطن بالحرير أو القطن لوقاية المحارب من الرماح والألسنة الطويلة والقطريات وهي الرماح الخشبية كما كان أيضا للخيول دروع وتسمى تجافيف تستخدم لحماية الخيول من الأسلحة الهجومية».

المنجانيق :

يخبرنا برانشفيك أن منطقة شرق البربر في العصر الوسيط لم تكن تجهل الآلات الموروثة عن الفترة القديمة البيزنطية التي كانت تستعمل لقذف الحجارة الكبيرة على المهاجمين وتقذف أيضا على المدن المحاصرة لأحداث ثغرات في الأسوار.

وهي تستعمل للهجوم كما تستعمل أيضا للدفاع وهي أنواع حسب الدكتور زكي منها ما استخدم في حصار الطائف في عصر النبي ﷺ لذلك لا نستبعد قدوم هذا النوع من السلاح مع الفاتحين الأوائل إلى بلاد المغرب قبل أن يعرف التحسن في القرون الموالية.

وللمنجانيق أنواعا منها ما يقذف به السهام وما يلقي به الحجارة وما يقذف به قدور.

وأبو يزيد مخلد بن كيد استعمل هذا السلاح إلى جانب الدبابات في حصاره لمدينة سوسة سنة 334 /945 وكذلك ما جاء في أشعار ابن حميدس في مدح علي بن يحي أشار إلى استعمال المنجنيق في الجم والمهدية.

وكان المعز لدين الله الفاطمي قد استعملها إلى جانب الكبش.

العوادة :

وهي آلة دفاعية وهجومية اصغر من المنجانيق تلقى بها الحجارة على مسافة أطول من المجانيق وقد ثبت استعمالها في حصار المهدية.

الخوذة :

وهو سلاح دفاعي توقع فوق الرأس لحمايته من ضربات العدو بالدبابيس الخشبية والحديدية المهيأة لهذا الغرض.

أما سلاح النفط فقد استعمل لأول مرة من طرف ياديس سنة 387/ 997 على أن العصر الذي ازدهر فيه هو العصر المريني حيث استعمل لأول مرة في محاصرة سجلماسة من قبل بني مرين سنة 1274 وهو ما يؤكده ابن خلدون.

الهوامش :

1 – ابن حزم جمهرة أنساب العرب سلسلة ذخائر العرب دار المعارف دار الكتاب اللبناني بيروت 1968 ص 109

2 – ابن خلدون العبر دار الكتاب اللبناني بيروت 1968 ج 6 أجزاء.

3 – ابن خلدون العبر ج 6. 109.

4 – ابن الأثير الكامل ج 8. 623.

5 – ابن حزم المصر السابق ص 495.

6 – عويس دولة بني حماد دار الشروق 1980 ص 49.

7 – بورويبة الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ديوان المطبوعات الجامعية 1977 ص 6.

8 – كاشلان جورج تاريخ الجيوش ت كمال الدسوقي مكتبة النهضة العربية مصر 1956 ص 65.

9 – ابن الأثير الكامل ج. ص 14.

10 – ابن عذارى البيان ج. ص 300.

11 – النويري نهاية الأرب ج.2. ص 221.

12 – ابن خلدون العبر.ج 6.355.

13 – لمؤلف مجهول الاستبصار ص 28.

14 – ابن الأثير الكامل ج 10 ص 10 نهاية الأرب ص 228.

15 – الميلي مبارك تاريخ الجزائر مكتبة النهضة ج 2 ص194 /1963.

16 – عبد الرحمان الجيلالي تاريخ الجزائر العام دار الحياة بيروت 1965 ج 1 ص 365.

17 – روجي إدريس نفس المرجع ج 2 ص 140.

18 – عويس المرجع السابق ص 210.

19 – سعيد زغلول تاريخ المغرب العربي من بداية الفتح المصور استقلال دويلات المغرب الاسكندرية 1978.

20 – ابن عذارى البيان ج.1.. 239.

21 – ابن الأثير الكامل ج 10 ص 41 46.

22 – الغنيمي عبد الفتاح موسوعة تاريخ المغرب القاهرة 1991. ص 353.

23 – طويل مريم مملكة المرية في عهد المعتصم مكتبة الوحدة العربية بيروت 1994. ص. 94 .

24 – بورويبة المرجع السابق ص 165.

25 – ابن خلدون العبر ج 6 ص 359.

26 – ابن عذاري البيان ج 2 ص 359.

27 – برانشفيك البربرية الشرقية في ظل الدولة الحفصية باريس 1997 ص 83.

28 – روحي إدريس المرجع السابق ج 2 ص164.

29 – ابن حماد تاريخ ملوك بني عبيد دار الكتاب اللبناني ص 50.

30 – ابن خلدون العبر ج 6 ص 360.361.

31 - عويس دولة بني حماد ص 210.
32 - ابن خلدون العبر المصدر السابق ج 6 ص 310.
33 - نفسه ج 6 ص 127.
34 - نفسه ج. 6 ص 258.
35 - نفس المصدر ج 6. 331.
36 - الجيلالي المرجع السابق ج 1 ص 395.
37 - ابن الأثير الكامل ج.9. ص 331.
38 - بورويبة المرجع السابق ص 127.
39 - ابن الخطيب أعمال الأعلام ج 3 ص 97.
40 - نفسه. ج. 3. ص 71.
41 - عويس المرجع السابق. ص 61.
42 - أعمال الأعلام ج 2. ص 71.
43 - نفسه ج 3. ص 71.
45 - ابن خلدون العبر ج 6. ص 322.
46 - ابن الأثير الكامل ج 11 ص31.
47 - ابن عذاري البيان ج 1. ص 447.
48 - دائرة المعارف الإسلامية ج 2. 680.
49 - ابن الأثير الكامل ج. 10 ص 46 النويري المصدر السابق ص 22.
50 - نفسه ج 10. 168.
51 - رابح بونار المغرب العربي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981 ص. 211.
56 - الجيلالي تاريخ الجزائر ج. ص 316.
57 - الإدريسي صفة المغرب وأرض السودان ومصر 1868 ص. 90.
58 - لمؤلف مجهول الاستبصار ص 130.
59 - روجي إدريس المرجع السابق ج 2. ص 140.
60 - النويري نهاية الأرب ص 1.94.
61 - ابن عذارى البيان. ج 2. ص 263. 267.
62 - ابن الخطيب أعمال الأعلام ج. 3. ص 73.
63 - نفسه ج 3 ص 73.
64 - ابن خلدون العبر ج. 6 560.
65 - نفسه ج. 6 363.
67 - روجي إدريس. ج 2 ص 138.

68 – النويري، ج 2 ص 133.
69 – روجي إدريس المرجع السابق ص144.
70 – روجي إدريس المرجع السابق ص 143.
71 – عبد الرحمن زكي الجيش المصري في العصر الإسلامي القاهرة 1970. ص 92.
72 – زكي المرجع السابق. ص 88.
73 – العماد الأصفهاني خريدة القصر وجريدة العصر 1960 ص 183.
74 – برانشفيك المرجع السابق ص 84.
75 – زكى المرجع السابق. ص 92.
76 – روجي إدريس المرجع السابق. ص. ص 144.
78 – النويري نهاية الأرب ص. 221.
79 – برانشفيك المر جع السابق ج 2 ص 85.
80 – زكي نفس المرجع. ص 95.

المصادر والمراجع :

1 - ابن حزم جمهرة أنساب العرب سلسلة ذخائر العرب دار المعارف تحقيق عبد السلام هارون 1962. 494.

2 - ابن حماد تاريخ ملوك العبيديين دار الكتاب اللبناني ص 50. 51.

3 - ابن الخطيب لسان الدين أعمال الأعلام ج 3 تحقيق محمد عبد الله عنان دار المعارف مصر 1955.

4 - ابن خلدون ع كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر دار الكتاب اللبناني 1981.

5 - ابن دينار عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني كتاب المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس تحقيق محمد شيال المكتبة العتيقة 1387.

6 - ابن أبي زرع روض القرطاس.

7 - ابن الأثير الكامل في التاريخ ج 9.10.11.

8 - ابن عذاري البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب 4ج. دار الثقافة بيروت 1980 8تحقيق ليفي بروفسال وكولان.

9 - البكري المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ترجمة دوسلان باريس 1965.

10 - أحمد بن أبى الضياف بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار تونس 1968.

11 - ابن خلكان وافيات الأعيان ج 1. ص 241.

12 - لمؤلف مجهول الاستبصار تحقيق العبادي الاسكندرية.

13 - بورويبة الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ديوان المطبوعات الجامعية 1977.

14 - الجيلالي عبد الرحمان تاريخ الجزائر العام بيروت 1965.

15 - روجي إدريس تاريخ الدولة الزيرية.

16 - زكى عبد الرحمان الجيش المصري في العصر الإسلامي القاهرة 1970.

17 - طويل مريم مملكة المرية في عهد المعتصم بن صداح مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء بيروت 1994.

18 - عويس دولة بني حماد دار الشروق 1980.

19 - الغنيمي عبد الفتاح موسوعة تاريخ المغرب بين بني زيري وبني هلال وبني حماد القاهرة 1992.

20 - الميلي مبارك تاريخ الجزائر مكتبة النهضة 1963.

3

الجيش في عهد المرابطين والموحدين

جيش المرابطين

قيام دولة المرابطين وتوسعاتها :

ينتمي المرابطون إلى قبيلة صنهاجة البربرية الكبيرة، وكان موطنهم الأصلي الجنوب الغربي للمغرب، وأهم بطون قبيلتهم هي لمتونة ومسوفة وجدالة، وسموا بالمرابطين نسبة للرباط الذي اعتكف فيه رجال الطائفة في بادئ أمرهم، وهو واقع في جزيرة بنهر السينغال، كما عرفوا بالملثمين، لأنهم يضعون اللثام على أسفل وجوههم.

كانت رئاسة الملثمين ليحي بن إبراهيم الجدالي، الذي سافر سنة 427 هـ / 1036 م لتأدية فريضة الحج، وعند رجوعه مر على القيروان، فلقي بها الشيخ عمران الفاسي وحضر مجلس درسه، فأعجب به وطلب منه أن يبعث معه أحد تلاميذه ليقوم بالتعليم في بلاده، ولكن التلاميذ استصعبوا الحياة الشاقة في الصحراء، فأحاله أبو عمران على الشيخ أبي محمد الذي كان يدرس في بلاد السوس، وهناك انتدب عبد الله ابن ياسين.

ولما وصل إلى الصحراء عبد الله بن ياسين صحبة الأمير يحي بن إبراهيم، شرع في مهمة الدعوة والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه اصطدم بمعارضة من الناس لما ألفوه من التقاليد، فغير ابن ياسين طريقته من الدعوة العامة

إلى الدعوة الخاصة، واعتزل في رباط مع أصحابه، وتوافد عليه كل من رغب في العبادة والتقوى حتى أصبح عدد رجاله حوالي ألف رجل.

وعندما أحس المرابطون بقوتهم المادية والروحية، خرجوا إلى قبائل صنهاجة الصحراوية، ووحدوها بالقوة بعد معارك طاحنة مات فيها الأمير يحي بن إبراهيم، وخلفه يحي بن عمر اللمتوني، وأصبح ابن ياسين القائد الروحي ويحي بن عمر القائد العسكري.

ثم أخضع المرابطون سجلماسة سنة 447 هـ / 1055 م، والسوس الأقصى سنة 448 هـ / 1056 م بقيادة أبي بكر بن عمر الذي خلف أخاه يحي، وكان يوسف بن تاشفين على مقدمة الجيش، كما أخضع المرابطون مغراوة وبرغواطة، حيث قتل عبد الله بن ياسين، وجمع أبو بكر القيادة الروحية والعسكرية معا.

مصدر جيش المرابطين :

1) القبائل المحلية :

اشتركت قبائل مختلفة من بطون صنهاجة في تكوين جيش المرابطين، خاصة قبيلة جدالة التي تعتبر النواة الأولى في الجيش، ثم أضيفت لمتونة ومسوفة ولمطة وهزرجة[1].

وهي القبائل الأولى التي قامت الدولة على أكتافها.

ثم أدخلت القبائل الزناتية لتدعيم الجيش [2]، وقد عمل عبد الله بن ياسين على توظيف الروح القبلية في البداية لاعتبارات سياسية واجتماعية.

كما نقل عبد الله بن ياسين القيادة من جدالة إلى لمتونة، مما أدّى إلى سخط قبيلة جدالة وخروجها عن طاعته [3]. وعانت قبيلة لمتونة شدائد كثيرة، وخاصة في حروب برغواطة. كما تزعمت قبيلة لمتونة الجهاد في بلاد المغرب والأندلس، وصار اسمها مرادفا لكلمة المرابطين، حيث يقول صاحب الحلل الموشية : «المرابطون هم لمتونة »[4].

2) العرب :

اشتركت القبائل العربية من المغرب ضمن قوات المرابطين التي عبرت الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين[5]. وألف العرب الأندلسيون قسما خاصا من الجيش المرابطي في الأندلس [6].

وشارك العرب في موقعة كنسوجر (Consuegra) سنة 490 هـ / 1097 م. فجرّد يوسف بن تاشفين عسكرا جرارا من المرابطين، وعرب أندلس الشرق والغرب. [7]

و ذكر "السلاوي"، أنه في سنة 513 هـ / 1119 م، وبعد أن استولى المسيحيون على قلعة أيوب في شرقي الأندلس، جاز علي بن يوسف إليها جوازه الثاني، ومعه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة وسائر قبائل البربر. [8]

3) الحشم :

ورد ذكر الحشم عند المرابطين، ويورد صاحب "الحلل الموشية" تعريف الحشم، إذ يقول :« وضم يوسف بن تاشفين من جزولة ولمطة وقبائل زناتة ومصمودة جموعا كثيرة، وسماهم بالحشم، وضم طائفة أخرى من أعلاجه وأهل دخلته وحاشيته، فصاروا جموعا كثيرة وسماهم الدخليين ».[9]

وذكر "ليفي بروفنسال "[10]، أن الحشم في الأندلس كانوا جنودا يتقاضون مرتباتهم نقدا، وكانوا يجندون من خارج الأندلس، سواء أكانوا أوربيين، أو مغاربة، وسواء أكانوا بيضا أو سودا، بخلاف الأجناد الذين كانوا جنودا من الأندلس. ومن الواضح أن الحشم عند المرابطين كانوا يجندون بنفس الفكرة تقريبا.

ويلاحظ أن الجماعات التي ذكرها صاحب " الحلل الموشية " على أنها تشكل الحشم هي من غير المرابطين. فجزولة ولمطة كانتا من صنهاجة الصحراوية، وهما من أبناء عمومة قبائل لمتونة وجيرانها. أما الباقون فكانوا من أهل البلاد، وكانوا كذلك خارج الجماعة ذات الحظوة. [11]

و يبدو بعد توسع الدولة، صار المرابطون بحاجة إلى أعداد كبيرة من الجنود، لذلك وسعوا دائرة التجنيد بإشراك القبائل المغربية المهزومة وغيرها.

4) النصارى :

لقد كانت هناك فرق من النصارى في جيوش المرابطين، ويقول "ابن خلدون "[12] أن الروم كانوا يقدّرون لأسلوبهم في القتال، في حين أن قتال المسلمين كان قائما على الكر والفر، فإن الروم يثبتون في مواقعهم، أو يزحفون في صفوف متراصة ؛ فكانوا يقيمون قاعدة ثابتة يكون السلطان في وسطها، لذلك استفاد منهم المرابطون.

وقد ذكر "ابن عذاري" : « في سنة 464 هـ / 1072م، قوي أمر الأمير يوسف، وعظمت شوكته، فاشترى جملة من العبيد السودان، وبعث إلى الأندلس فابتيع له بها جملة من الأعلاج، فأركب الجميع وانتهى عنده شراء ماله مائتان وأربعون فارسا، ومن العبيد شراء ماله نحو الألفين، وأركب الجميع فغلظ حجابه وعظم ملكه » [13].

ويضيف "ابن عذاري" في موضع آخر : « إن علي بن يوسف كان أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب، وجعلهم يحقدون على المسلمين في مغامرتهم، ويأخذون منهم في نفقاتهم وأكثر ما يجبى عليهم». [14]

وهكذا يشير "ابن عذاري" مرة إلى العبيد الذين يجلبون ليكونوا حرسا خاصا ليوسف بن تاشفين، متفرغين لذلك ؛ بينما يشير مرة أخرى إلى استعمالهم للأغراض العسكرية العامة فيما بعد.

ومن المؤكد أن علي بن يوسف بن تاشفين أدخل النصارى في بلاطه كفرسان، وأنشأ منهم فرقة خاصة من الحرس [15]، وأتاح لهم مباشرة طقوسهم الدينية في المغرب بكل حرية[16].

وكان أسرى الحروب من المسيحيين يضمون إلى الجيش والحرس الخاص. كما اشترى علي بن يوسف الكثير من النصارى من شواطئ جليقية، وكطالونيا، وإيطاليا

والإمبراطورية البيزنطية، وشاركوا في حراسة معاقل المغرب، وحتى في حروب المرابطين ضد الموحدين[17].

وهكذا فإن فرق النصارى كانت تتكون ممن يشترى من العبيد، وأسرى الحرب، والنصارى الأحرار.

ويورد " هوبكنز" اقتباسا من حولية الفونس السابع باللاتينية، يقول : « إن ألوفا كثيرة من الجند النصارى مع أسقفهم، وعدد كبير من رجال دينهم، كانوا في عاصمة علي وابنه تاشفين، قد عبرت البحر ووفدت على طليطلة » [18]. ويفهم من ذلك أن هؤلاء كانوا أحرارا، إلا أنه لا يعرف على وجه التأكيد التاريخ الذي جيء بهم فيه إلى المغرب.

وكانت قيادة النصارى توكل إليهم، ومن أبرزهم القائد الشهير "الربرتير Reverter" الكاطالوني، الذي كان في الأصل أسيرا، وخدم المرابطين حتى آخر أيام دولتهم، حيث شارك في الدفاع مع تاشفين عن منطقة السوس، ونجح في صد عدة هجمات للموحدين في المغرب الأقصى[19].

وقد نعم القادة النصارى بالزعامة والحظوة لدى الأمراء المرابطين، مما لم يتح لبعض القادة المرابطين أنفسهم[20].

كما استفاد الجنود النصارى من مرتبات وتعويضات، وكان يسمح لهم أحيانا من التسريح بعد المشاركة في الحروب. وهذا ما حدث للصقالبة الذين تم اقتناؤهم عن طريق الأسر أو الشراء [21].

5) الزنوج أو السودان :

ذكر "ابن عذاري"، أنه في سنة 464 هـ / 1072 م، قوي أمر الأمير يوسف وعظمت شوكته، فاشترى جملة من العبيد السودان [22].

وأضاف أيضا "ابن عذاري"، أنه في سنة 524 هـ / 1129 م، قتل جيش موحدي في يوم واحد في أغمات نحو ثلاثة آلاف، أكثرهم سودان [23]

وكتب " هوبكنز " : « أن جماعتين من السودان التابعين للمرابطين تشكلت منهما نواة عبيد المخزن عند الموحدين »24. وقد شارك عبيد المخزن في الاستيلاء على مدينة مراكش. 25

ويستدل من هذا أن هؤلاء السودان كانوا قوة عسكرية. وقد جعل منهم الأمير المرابطي حرسه الخاص. وكانوا لا يدخلون المعركة إلاّ لحسمها في النهاية 26.

تنظيم الجيش عند المرابطين :

1) بدايات التنظيم :

يعتبر أول تنظيم عسكري عند المرابطين هو الرباط الذي بناه عبد الله بن ياسين، عندما قال له يحي بن إبراهيم الجدالي : « ها هنا جزيرة في البحر، ومنها الحلال المحض من شجر البرية، وصيد البر والبحر، ندخل فيها، ونقتات من حلالها، ونعبد الله حتى نموت »27، فدخلها عبد الله بن ياسين رفقة سبعة أعيان من جدالة، واثنين من لمتونة، وابتنى بها رباطاً، ألزم فيه أتباعه أن يتمسكوا بمبادئ المذهب المالكي الصارم، و كان ذلك أول معسكر للمرابطين تحت إشرافه.

ويظهر ما اشتهر به المرابطون من صلاح، وما تقيدوا به من قواعد أخلاقية، وما أضفوه على نظام حياتهم من فضيلة، سرعان ما جلب إليهم ألف رجل، تدربوا على الحياة العسكرية 28. وبذلك عزم عبد الله بن ياسين مباشرة الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قائلا لأتباعه : « إن ألفا لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه، وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك »29.

انقاد المرابطون لأوامر زعيمهم عبد الله بن ياسين، وخرجوا مقاتلين من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وجدالة ومنسوفة حتى أطاعوا، وقد بلغ عدد أتباعه ثلاثة آلاف لمّا غزا جدالة30، سنة 434 هـ / 1042 م.

ولمّا كان المرابطون حريصين على التفاني في نشر مذهبهم، ما لبثوا أن أخضعوا قبائل صنهاجة لنفوذهم، وأتاح لهم نجاحهم جمع ثلاثين ألفا من الأنصار تقريبا31.

كان ولاء المرابطين لزعيمهم عبد الله بن ياسين، وكان متحكما في أمور جيشه، لذلك عندما دنت وفاته عام 451 هـ / 1059 م، جمع أعيان صنهاجة من المرابطين، وقال لهم : « يا معشر المرابطين أنا ميت يومي هذا، وأنتم في بلاد أعدائكم، فإياكم أن تخبتوا وتفشلوا، فتذهب ريحكم. فكونوا ألفة على الحق وإخوانا في الله، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا، وأني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم، يقود جيوشكم، ويغزو أعداءكم، ويقسم فيكم زكاتكم وأعشاركم ». فكان الاتفاق على أبي بكر بن عمر، الذي اختاره عبد الله بن ياسين لقيادة الجيش من قبل [32].

وكان للمرابطين في عهد أبي بكر بن عمر، جماعة تسمى " الأشياخ "، يستشيرها في الأمور العسكرية، وكان يشكلها من أعيان لمتونة والمصامدة، الذين لهم دراية بأمور الحرب والقتال، وكانوا يرافقون الأمير وقائد الجيش في الغزوات والحروب [33].

ولما قرر أبو بكر بن عمر العودة إلى الصحراء، ليخمد الفتن التي نشبت بين قبائل قومه، ترك شؤون المغرب لابن عمه " يوسف بن تاشفين " ومعه ثلث الجيش، وتنازل له عن زوجته الحسناء زينب بنت إسحاق النفزاوية، بعد أن طلقها، وتزوجها يوسف بن تاشفين، فأعطته الأموال، وجمعت له القبائل أموالا عظيمة، وجند الأجناد[34].

ورغم أن يوسف بن تاشفين قام بترتيب الأجناد، وتدوين الدواوين، إلاّ أن المصادر لم تشر إلى وجود ديوان عسكري للمرابطين، أو ديوان خاص بالجيش، يشرف على التجنيد والإحصاء، بل كانت الجيوش تحشد بواسطة العمال والقادة عندما تدعو الضرورة إلى ذلك[35].

كما قام يوسف بن تاشفين بتنظيم واسع النطاق، شمل الجيش والتعمير وتقسيم البلاد إلى ولايات. فقام بتقسيم الجيش إلى أربعة أقسام، اختار لها أربعة من قادته، مراعيا في ذلك العصبية القبلية، وهم :

1 - سير بن أبي بكر من لمتونة.
2 - محمد بن تميم من جدالة.
3 - عمر بن سليمان المسوفي.
4 - مدرك التلكاني.

وجعل كل واحد من هؤلاء على رأس خمسة آلاف جندي. وبعث بهم إلى أنحاء المغرب، وتولى هو قيادة بقية الجيش المكون من عشرين ألف جندي[36].

وعمل يوسف بن تاشفين على أن يختط لنفسه محلة تكون قاعدة عسكرية لجيوشه، ومستودعا لذخائره، ووقع اختياره على أرض تقع شمال غربي مدينة أغمات، وكانت لبعض المصامدة، فاشتراها، واختط بها قصبة ومسجدا، وكان ذلك ميلاد مدينة مراكش سنة 454 هـ / 1062 م[37].

واهتم يوسف بن تاشفين بتقوية الجيش وتنويع عناصره، حيث يقول صاحب "الحلل الموشية" : « فلما قام يوسف مديرا للأمور، بدأ يبني الحصون، وينظم الجيش حتى قوي سنة أربعمائة وستون هجري، وعظمت شوكته، فاشترى جملة من الأعلاج، حيث اشترى من العبيد ألفين شخص وجعلهم حشمه وحرسه، ومن الأعلاج مائتي وخمسين »[38].

وهذا يبين أن جيش المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، كان قسمان :

جيش نظامي: يمثل الحرس الخاص للأمير، ويتكون من العبيد السودان والنصارى.

جيش غير نظامي: يحشد من القبائل المغربية والمتطوعة.

2) قيادة الجيش :

كان الطابع العسكري هو سمة المرابطين منذ نشأتهم، لذلك كان اهتمامهم كبيرا بالجيش وبأفراده، فكانوا لا يقلدون في مناصب الوزارة والولاية إلاّ القادة العسكريين[39].

فبعد وفاة الزعيم يحي بن إبراهيم الجدالي، نقل عبد الله بن ياسين القيادة العسكرية من جدالة إلى لمتونة ،و قلدها " أبا بكر بن عمر

وقد اعتمد عبد الله بن ياسين على لمتونة بحكم موقعها الجغرافي المتحكم في الطرق الشمالية، وبحكم شجاعتها في القتال، وهي أكثر قبائل صنهاجة انقيادا له[40].

و لما تولى يوسف بن تاشفين الإمارة سنة 465 هـ/ 1072 م، جمع بين السلطتين السياسية والعسكرية، فكان أميرا للمؤمنين، وقائدا أعلى للجيش. وهو صاحب تجربة عسكرية، وقدرة إدارية، حيث عندما تحرك ابن عمه الأمير أبو بكر بن عمر نحو الصحراء وولاه المغرب عام 463 هـ / 1070 م، قام يوسف بن تاشفين بإدارة الأمور وتنظيم الجيش، حتى قوي وعظمت شوكته عام 464 هـ/1071 م.

و قد بلغ جيش المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين مكانة كبيرة، حتى اشتد خوف النصارى منه لما كان يمدّ مسلمي الأندلس بقوات عسكرية، وهي تسحق جيوش النصارى، وذلك بعد أن بسط سلطانه على بلاد المغرب عام 475 هـ / 1082 م[41].

وقبل ذلك، قام يوسف بن تاشفين بتقسيم الجيش إلى أربعة أقسام، اختار لها أربعة من قادته، مراعيا في ذلك العصبية القبلية، وهم : سير بن أبي بكر من قبيلة لمتونة، ومحمد بن تميم من جدالة، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاني. وجعل كل واحد من هؤلاء على رأس خمسة آلاف جندي، وبعث بهم إلى أنحاء المغرب، وتولى هو قيادة بقية الجيش المكون من عشرين ألف جندي [42].

وبعد يوسف بن تاشفين، انتقلت قيادة الجيش إلى ابنه "علي بن يوسف ابن تاشفين".

ثم كان " تاشفين بن علي بن يوسف" من أكبر قادة جيش المرابطين، بعد وفاة والده. ونظرا لكفاءته العسكرية، كان قد ولاه والده أمر الأندلس، وهي يومئذ أوضاعها سيئة، بسبب اتفاق كلمة النصارى ضد المسلمين[43].

ولكن تاشفين لم يكن موفقا في حروبه ضد الموحدين في المغرب، بقدر ما كان موفقا في حروبه ضد النصارى في الأندلس، إذ لم يستطع الصمود أمام ضربات الموحدين، وسقط قتيلا عام 539 هـ / 1145 م.

وقبل ذلك، لما دخل المرابطون الأندلس، أصبح لهم قائد عام لقوات المرابطين في الأندلس.

و من أبرز قادة المرابطين، نذكر ما يلي:

سير بن أبي بكر: كان واليا على اشبيليا، وقائدا لجيوش الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين، وفي عهد علي بن يوسف أصبح واليا على غرناطة وهو قائد لجيوش الأندلس.

علي بن الحاج: كان عاملا على غرناطة سنة 496 هـ / 1102 م، وشارك في الحروب بشرقي الأندلس، حتى قتل أثناء هجوم الفونسو السادس ملك قشتالة.

محمد بن الحاج: عين مكان أخيه علي على غرناطة[44]، ثم نقل إلى فاس عام 501 هـ/ 1107 م، وهو الذي شارك في فتح قرطبة، وهزم ألفونسو السادس، عام 490هـ / 1079 م.

أبو بكر بن إبراهيم المسوفي : ولاه صهره "علي بن يوسف بن تاشفين " أميرا على غرناطة، ثم سرقسطة، وهما من أخطر العملات شانا[45]، وهو الذي خلف محمد بن الحاج على سرقسطة عام 509هـ/1115م، وهلك سنة 510 هـ / 1116 م.

أبو الطاهر تميم : عينه أخوه "علي بن يوسف بن تاشفين" واليا على غرناطة، وبسبب فشله في مجابهة ألفونسو، استدعاه لولاية تلمسان، وقيادة جيش أعده لقتال الموحدين، ولكنه انهزم أيضا أمامهم [46].

الأمير مزدلي : ولاه "علي بن يوسف بن تاشفين" على قرطبة، وغرناطة، بعدما عزل "أبا الطاهر تميم" عن القيادة في الأندلس. وصار مزدلي يقود جيوش الأندلس [47].

يحي بن محمد بن الحاج، ثم أخوه عمر : توليا على التوالي على إشبيليا، بعد مقتل والدهما محمد بن الحاج، والقائد مزدلي، عام 509 هـ / 1115 م [48].

أبو محمد بن وانودين : وهو من أشهر قادة المرابطين في المغرب، وهو الذي هزم الموحدين في حصارهم الأول لمراكش، وقتل قائدهم "أبا محمد البشير" [49].

بطي بن إسماعيل : وهو الذي هبّ بجيشه لنجدة "أبي الطاهر تميم" في مواجهة الموحدين بجبل وريكة، ولكن كان مصيره أسوء من مصير القائد تميم، إذ قتل في المعركة.

3) التسميات والمراتب في الجيش :

منح المرابطون لجنودهم ألقابا، ورتبا، تحوي معاني الاعتراف بالبطولات الحربية، وتهدف إلى تشجيع أصحابها، ويمكن اعتبارها بمثابةأوسمة عسكرية، نوجزها فيما يلي :

أ- مرابط : لقب منحه كل سلطان مرابطي لأتباعه المجاهدين، لإيثار الجهاد والرباط. [50]

ولمّا بدأ عبد الله بن ياسين حركته الجهادية بقتال من استعصى من قبائل لمتونة، وجدالة، ومسوفة، حتى أطاعوا، سمّاهم مرابطين.[51]

وقال "ابن الأثير" بعد مبايعة أبي بكر بن عمر: « سماه ابن ياسين أمير المسلمين، وعادوا إلى جدالة، وجمعوا إليهم من حسن إسلامه، وحرضهم عبد الله بن ياسين على الجهاد في سبيل الله، وسماهم مرابطين ». [52]

وعندما دخل يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس، تسمى هو وأصحابه بالمرابطين.[53]

وحسب "ابن عذارى"، أن يوسف بن تاشفين سمى أصحابه بالمرابطين. [54]

و لما تولى الأمر علي بن يوسف بن تاشفين، لقب بلقب أبيه أمير المسلمين، وسمّى أصحابه بالمرابطين.[55]

ب - أمير المسلمين : لقب أطلقه في البداية "عبد الله بن ياسين" على "أبي بكر بن عمر"، بعد مبايعته ،فسماه "أمير المسلمين" [56]. ثم صار هذا الاسم لقبا لسلاطين المرابطين.

قال " المراكشي " في كتابه المعجب : « وقام بأمره ابنه علي بن يوسف ابن تاشفين، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين، وسمى أصحابه بالمرابطين، فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد ». [57]

ج- أمير الحق : لقب منحه عبد الله بن ياسين لقائد جيوشه.[58]

د - الولاية : منها قيام تاشفين بتعيين أبي بكر بن مزدلي واليا على تلمسان، لما قام به من مقاومة الموحدين.[59]

أما المراتب في الجيش، فنذكر منها التالي :

أ - قائد الجيش : بعد أبي بكر بن عمر الذي عينه عبد الله بن ياسين قائدا عاما لجيوش المرابطين، وسماه أمير المسلمين[60]، جمع يوسف ابن تاشفين السلطتين السياسية والعسكرية، فكان أميرا للمسلمين وقائدا عاما لجيوش المرابطين، وكذلك فعل ابنه علي بن يوسف، ثم تاشفين بن علي.

هذا بالإضافة إلى قيادة الجيوش في الأقاليم والولايات، كماذكره. [61]

ومن ذلك : "أبو الطاهر تميم"، الذي استدعاه "علي بن يوسف بن تاشفين" من ولايته بغرناطة، لولاية تلمسان، وقيادة جيش أعده لقتال الموحدين. [62]

وبعد دخول الأندلس، أصبح للمرابطين مرتبة القائد العام لقوات المرابطين في الأندلس، وهي بمثابة النيابة لأمير المسلمين في قيادة الجيش.

فقد كان "سير بن أبي بكر" واليا على إشبيليا وقائدا لجيوش الأندلس، في عهد يوسف بن تاشفين.

وفي عهد علي بن يوسف، أصبح والي غرناطة هو القائد لجيوش الأندلس.[63]

ب- الرقاص : وهو الذي يحمل الرسائل في الحروب. فقد بعث القائد "بطي بن إسماعيل" رقاصا إلى أمير مكناسة. وأرسل "الأمير مزدلي" رقاصا إلى العباس بن يحي حاكم تلمسان وأمير زناتة. [64]

ج -العريف : أصحاب هذه المرتبة هم الحرس الليل. (65)

د- خدمة الدواب : كان أصحاب هذه المرتبة ترافقون الجيش في المعارك، ويظهر أنهم كانوا من العبيد [66].

4) أصناف الجيش وفرقه :

ترد ألفاظ : "المرتزقة، والحشود، والمتطوعة"، فيما يتصل بالجيش.

أ - **المرتزقة** : يقصد بهم الجنود النظاميين الذين يقع تجنيدهم طوعا، ويتلقون راتبا "رزقا" منتظما.

ب - **الحشود** : هم مجندون إلزاميا لحملة معينة.

ج- **المتطوعة** : هم الذين التحقوا بالجيش لتأدية فريضة الجهاد، ويعتمدون على الغنائم والمنح الإكرامية.

وكما ذكر "هوبكنز "[67]، إن الأصناف المختلفة من الجند كان لها وجود حقيقي، وكان لهذه الأسماء مدلول محدد، عند استعمالها استعمالا دقيقا، أما عند استعمالها بالطريقة الواردة في مصادرنا، فينبغي أن لا تفهم بمعناها الحرفي.

فحينما كتب "ابن عذاري" عن : « قوات تتكون من جيوش المرابطين والمصامدة، والجنود، والحشود»[68]، فإن هذه الألفاظ استعملت لجعل العبارة شاملة، وللدلالة على أن القوة المشار إليها هي قوة كاملة من جميع الوجوه.

ومع ذلك يمكن تصنيف جيش المرابطين، وفقا لما جاء في المصادر.

فقد كان جيش المرابطين على عهد يوسف بن تاشفين صنفان هما:

أ - **جيش نظامي** : ويشمل الحرس الخاص للأمير، ويتكون من العبيد والنصارى. حيث يقول صاحب الحلل الموشية : « فلما قام يوسف مديرا للأمور بدأ يبني الحصون، وينظم الجيش، حتى قوي سنة أربعمائة وستون هجري، وعظمت شوكته، فاشترى جملة من الأعلاج، حيث اشترى من العبيد ألفين شخص وجعلهم حشمه وحرسه [69]»

ب- **جيش غير نظامي** : ويتكون من القبائل المغربية المختلفة والمتطوعة خاصة[70].

* أما في عهد تاشفين بن علي، فكان الجيش على ثلاثة أصناف هي :

أ - **الجيوش النظامية المدربة**، وتشمل العبيد والنصارى والمرتزقة.

ب - **الجنود** : وهم أقل تنظيما وتدريبا، وهم من المتطوعة.

ج - **الحشود** : وهي الوفود المقاتلة التي يستدعيها الأمير عند الحاجة من سائر الجهات والأقطار.

إذ قال "صاحب الحلل الموشية"، عند استعداد تاشفين سنة 538 هـ / 1143 م لمواجهة جيش الموحدين : « واجتمعت عليه العساكر المذكورة بتلمسان (النظامية) وأمر بعض الجيوش والتمييز عليهم من الجنود والحشود، وسائر الوفود فميزوا»[71].

أما فرق الجيش التي أنشأها المرابطون، فيرد ذكرها كما يلي :

قال " صاحب الحلل الموشية " أن يوسف بن تاشفين : « اشترى جملة من العلاج حيث اشترى من العبيد ألفين شخص وجعلهم حشمه وحرسه[72]».

وقد أنشأ يوسف بن تاشفين فرقة قوية من الفرسان، ترسم حرسه وحجابته واشتهرت ببلائها في مواقع كثيرة[73].

وقسم يوسف بن تاشفين جيشه إلى فرقتين كبيرتين من الفرسان والمشاة ،ثم أنشأ فرقا من الرماة والأغزاز والسهام والنشاب[74]. وكان يميز فرق الجيش عن بعضها. وكانت قوته الرئيسيةتتألف من الفرسان التي بلغت ألف فارس من مختلف القبائل[75].

وفي عهد علي بن يوسف بن تاشفين، صارت فرقة الحرس الخاص جناحا كبيرا من النصارى، وأغلبهم من المرتزقة، دون اشتراط إسلامهم. يقول "ابن عذاري إن علي بن يوسف كان «أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب. وجعلهم يحندون على المسلمين فيمغامرهم[76]». وكان يقود فرقة النصارى، القائد القشتالي: الويرتير Reverter.

أما في عهد تاشفين بن علي، فأصبح الرماة يركبون الخيل، بعدما كانو مشاة قبله، إذ يقول "ابن الخطيب"، في ذكر تاشفين بن علي: « وبذلك حمل على الخيل، وقلد الأسلحة، وأوسع الأرزاق، واستكثر من الرماة وأركبهم، وأقام همتهم للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب»[77].

مظاهر قوة الجيش عند المرابطين

1) تعداد الجيش :

رغم أن المصادر التاريخية لا تعطينا إحصاءً لجيش المرابطين، إلا أنها تشير إلى أعداد جزئية أو إجمالية في مراحل مختلفة، ومن ذلك نذكر ما يلي:

لما صار لعبد الله بن ياسين ألف رجل من الأتباع، خرج بهم للجهاد، حيث قال : « إن ألفا لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك[78] ».

ثم في سنة 434 هـ / 1042 م، بلغ عدد أتباع عبد الله بن ياسين ثلاثة آلاف لمّا غزا جدالة [79].

عندما عاد أبو بكر بن عمر إلى الصحراء لإخماد الفتن، قام يوسف ابن تاشفين بتقسيم ثلث الجيش، الذي ترك له، إلى أربعة أقسام. وجعل كل قسم يضم خمسة آلاف جندي[80]، على رأسهم واحد من أبرز قادته، وبعث بهم إلىأنحاء المغرب. وتولى هو قيادة بقية الجيش المكون من عشرين ألف جندي. وبذلك بلغ العدد الإجمالي : أربعين ألف جندي. [81]

هذا، وإذا أضفنا ثلثا الجيش الذي قاده أبو بكر بن عمر إلى الصحراء، فيصبح العدد الإجمالي لجيش المرابطين يتجاوز مائة ألف جندي.

ونضيف الفرقة النظامية التي ذكرها " ابن عذاري "، إذ قال : « في سنة 464 هـ / 1072 م، قوي أمر الأمير يوسف وعظمت شوكته، فاشترى جملة من العبيد السودان، وبعث إلى الأندلس فابتيع له بها جملة من الأعلاج. فأركب الجميع وانتهى عنده شراء ماله مائتان وأربعون فارسا، ومن العبيد شراء ماله نحو الألفين، وأركب الجميع فغلظ حجابه وعظم ملكه[82] ».

– وشير " عنان " إلى أن القوة الرئيسية ليوسف بن تاشفين، تتألف من الفرسان التي بلغت ألف فارس من مختلف القبائل[83]. وهذا ضمن الجيش النظامي.

- ويذكر "السلاوي" أن يوسف بن تاشفين أكثر من الجند حتى بلغ مائة ألف جندي.[84]

- ويذكر " صاحب الحلل الموشية " أن في عهد تاشفين بن علي، بلغ الجيش النظامي أربعة آلاف جندي.[85]

- أمّا في الأندلس، فيشير " أشباخ " أنه كان يدخلها باستمرار سبعة عشر ألف فارس، وكان جيش المرابطين يقسم في المدن والقلاع باستمرار، منها في إشبيلية حامية من سبعة آلاف، وفي غرناطة حامية من ثلاثة آلاف، وفي قرطبة حامية من ألف فارس.[86]

2) **إعطاءات الجيش :**

تعتبر الغنائم من أهم مصدر تمويل للجيش، لذا كانت لها أهمية كبيرة لدى المرابطين، فحرصوا على جمعها، واعتبروا كل ما يملكه خصمهم المنهزم غنيمة.[87]

ذكر " ابن خلدون " أن عبد الله بن ياسين، لما غزا سجلماسة ودرعة، استولى المرابطون على الأموال والأسلحة والدواب، وإبل الحمى التي كانت ببلد درعة.[88]

و كانت الغنائم توزع على الجيش بعد نهاية الحرب، بالطريقة الشرعية، فيأخذ الأمير الخمس من الغنائم، ويوزع الباقي بين الجند[89]. ومن ذلك غزو المرابطين للجبل الذي يلي لمتونة، وفيه قبائل من البربر على غير دين الإسلام، فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى الدين فامتنعوا، فأمر يحي بن عمر بغزوهم، وبعدها أمر عبد الله بن ياسين بإعطاء الخمس من الغنائم للأمير يحي بن عمر.[90]

وهناك مصدر آخر مهم في تمويل الجيش، وهو أخذ الصدقات من أموال المسلمين.

وفي ذلك قال " ابن خلدون " : « قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين : إن الغالب لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق، والدعاء إليه، وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك، فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة

ومسوفة، حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة، وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين، وسماهم بالمرابطين ». [91]

و هناك مكافأة تخص قادة الجيش، ذكرها " صاحب الحلل الموشية " فقال : « كان من عادة المرابطين في الأندلس أن يكرموا من ظهرت نجدته وأعانته شجاعته بولاية موضع ينتفع بفوائده »[92]. ولكن ليس ذلك تملكا قاطعا، لأنه ملك للغير، إلاّ أن علي بن يوسف، في آخر أمره، امتنع عن إعطاء المزيد من الإقطاعات لأجناده. [93]

3) استعراضات الجيش واحتفالاته :

كان جيش المرابطين يقوم بالاستعراض قبل المعركة. فقبل معركة الزلاقة استعرض يوسف بن تاشفين عشرين ألف مقاتل أمام حصن الرقة، قبل الشروع في المعركة، حتى رأى منهم ما يسره. [94]

و استعرض تاشفين بن علي عسكره، واصطفت فرق الجيش بمحضره[95]، قبل أن يخوض المعركة ضد الموحدين في ناحية تلمسان[96] سنة 538 هـ/1143 م.

وكانت هذه الاستعراضات العسكرية تهدف إلى إرهاب العدو، وإرباكه، وفي نفس الوقت تحضير الجندي لتحديد موقعه ودوره في المعركة.

- واهتم المرابطون بإقامة الاحتفالات بعد انتصار جيوشهم، ومن أهم مظاهرها : ضرب الطبول، لا سيما في المدن التي يفتحونها، إيذانا بالنصر.

و في هذا الصدد، يصف ابن عذاري احتفالات المرابطين بعد الزلاقة فيقول : « ركب أمير المسلمين، وأحدق به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل فعدوا إلى محلة الأذفونش فاقتحموها، وقتلوا حاميتها، وضربت الطبول فاهتزت الأرض وتجاوبت الآفاق ». [97]

- وهناك الاحتفال برأس قائد جيوش العدو ورؤوس جنوده بين العامة.

لما قتل المرابطون زعيم الروم "غشتون" سنة 524 هـ / 1129م، سيق رأسه إلى غرناطة، فنصب على ذروة رمح وطيف به الأسواق والسكك، وشهر بضرب الطبول. [98]

ويقول "ابن أبي زرع" : « أمر أمير المسلمين يوسف بقطع رؤوس القتلى الروم، فقطعت وجمعت بين يديه كأمثال الجبال، وبعث منها إلى اشبيلية عشرة آلاف رأس، وإلى قرطبة كذلك، وإلى بلنسية مثلها، وبعث إلى بلاد العدوة أربعين ألف رأس فقسمت على مدن العدوة، ليراها الناس، فيشكرون الله على ما منحهم من النصر والخير العظيم[99]».

إن المبالغة في عدد القتلى ورؤوسهم، كانت وسيلة للمرابطين يؤكدون بها انتصاراتهم.

3 - السلاح :

بعدما أخضع عبد الله بن ياسين قبائل صنهاجة، قام بفرض الزكاة عليها، وأخذ في شراء الأسلحة من مداخيل بيت المال [100].

وقد قام المرابطون بتخزين الأسلحة في قصبات المدن، حسب ما صوره "ابن خلدون" بقوله : « واختطف يوسف بن تاشفين مدينة مراكش سنة أربع وخمسين (554 هـ)، ونزل بالخيام وأدار سورها على مسجد، وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه»[101].

كان المرابطون في بداية عهدهم يشترون الأسلحة من بلاد الأندلس التي اشتهرت بصناعتها، كما كانت الأندلس تستورد أيضا بعض الأسلحة من البلاد الأوروبية المجاورة [102].

وذلك ما أكده صاحب الحلل الموشية بقوله : « أخذ يوسف بن تاشفين يعد العدة للعبور بجيوشه إلى العدوة الأندلسية، فأرسل عملاء إلى الأندلس لشراء الأسلحة وآلات الحرب، حتى عرف ذلك العام بعام اقتناء العدد والأسلحة»[103].

ولكن كثرة حروب المرابطين وحاجتهم المتزايدة للأسلحة، جعلتهم منذ عهد يوسف بن تاشفين يقومون بصنع السهام والعرادات وآلات حربية أخرى[104].

وفي عهد تاشفين بن علي، شملت صناعة الأسلحة عند المرابطين، مختلف الأنواع، وقد ذكرها " ابن الخطيب "، فقال : « في عام ثلاث وعشرين وخمسمائة

ولي الأمير أبو محمد تاشفين. ...، فقوى الحصون، وسد الثغور، وأذكى العيون، وعمد إلى رحبة القصر فأقام بها السقائف والبيوت، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال، وضرب السهام، وأنشأ السقي، وعمل التراسي، ونسج الدروع، وصقل البيضات والسيوف، وارتبط الخيل. .. »[105].

غير الأن الأسلحة التي اشتهر المرابطون بصناعتها فهي : الأتراس والدروق اللمطية، وكانت تصنع بفاس وغيرها من المدن.

أما الأسلحة ووسائل الحرب التي استعملها المرابطون في حروبهم فهي :

- **البيضة :** خوذة من حديد، توضع على الرأس لوقايته.
- **الترس :** صفيحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه.
- **درع الحديد :** لباس حربي، احتاجه المرابطون في حروبهم ضد النصارى[106].
- **الدروع اللمطية :** لباس حربي خفيف، يستعمل كدروع لدى السود خاصة، وينسب إلى لمطة وهي إحدى قبائل الملثمين، ويصنع من جلد الحيوان الذي يعيش في أقصى الجنوب[107].
- **الأطاس :** خنجر بربري مقوس[108].
- **السيف :** استعمل المرابطون السيوف الصنهاجية، والسيوف الهندية.
- **السهم :** عود من خشب في طرفه نصل يرمى به عن القوس.
- **المطرد :** نوع من الرماح القصيرة[109].
- **مزراق الزان :** نوع من الحراب الطويلة، يفوق طولها ستة أذرع، وهي مسنونة، تتسلح بها الصفوف الأولى من الجيش لطعن خيل العدو في المعركة[110].
- **المنجنيق :** آلة حربية ثقيلة للحصار، ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار لتهدمها.
- **العرادة :** قاذفة أصغر من المنجنيق، تلقى بها الحجارة على أبعاد كبيرة.

وقد اقتبس المرابطون من الأندلس معظم آلات القتال هذه وغيرها[111].

كما اتخذ المرابطون الطبول أيضا في حروبهم، فاستخدم يوسف ابن تاشفين الطنبور السوداني الكبير، وكان يضرب عليه بعصا، وله صوت مرعب كالصاعقة [112].

وكان الطبل تصاحبه الأبواق بهدف إرعاب العدو، وقد تأثر المرابطون بجيرانهم السودان، الذين كان من عادتهم استخدام الطبول والأبواق في الأفراح والحروب.

فاستخدم المرابطون الطبول والأبواق عند الهجوم، وبعد النصر أيضا للدلالة عليه [113]. ومن ذلك، قال "اشباخ" في وصف إحدى معارك المرابطين : «اجتمع النصارى في القتال على نفخ القرون والمزمار، واجتمع المسلمون على قرع الطبول »[114].

2 - البحرية عند المرابطين :

عندما فتح المرابطون سبتة، وسيطروا على السواحل الشمالية للمغرب الأقصى، قام يوسف ابن تاشفين بإصلاح أحوالها وسفنها [115]، فاستفاد المرابطون في بداية عهدهم من السفن التي استولوا عليها، ثم اهتموا بتكوين أسطول بحري قوي. غير أن سفن المرابطين في تلك الفترة كانت تتألف من سفن النقل أكثر من سفن القتال، ولعل ذالك يرجع إلى حاجتهم في نقل الجيوش بين المغرب والأندلس.

وبعد معركة الزلاقة وتوطيد نفوذ المرابطين في الأندلس، استفادوا من خبرة أهلها في البحرية وصناعة السفن من غابات الأندلس ؛ فتكون أسطول بحري في عهد يوسف ابن تاشفين، وتألف أغلبه من سفن النقل، ثم توسع في عهد علي بن يوسف [116].

وبسبب خطر النصارى في الأندلس، حافظ المرابطون على مقر البحرية للأمويين في مدينة المرية، كقاعدة كبرى لأسطولهم نظرا لموقعها وحصانتها ؛ هذا بالإضافة إلى المواقع الأخرى في الأندلس كدانية، وقادس، وطريف وإشبيلية والجزيرة الخضراء، وفي المغرب كطنجة، وسبتة [117].

وقد قام أسطول المرابطين بالجهاد حتى بعيدا عن سواحل الأندلس والمغرب الأقصى، حيث سير الأمير علي بن يوسف قائد أسطوله أبا عبد الله بن ميمون إلى جزيرة صقلية سنة 516 هـ / 1122 م، لمحاربة النورمنديين الذين استولوا على صقلية وسبوا نساء المسلمين وأطفالهم، وقتلوا رجالهم، وسلبوا أموالهم[118].

ثم في سنة 517 هـ / 1123 م، توجه أسطول المرابطين إلى المهدية لنجدة بني زيري من حصار النورمنديين، الذين انسحبوا منهزمين أمامه [119].

ووصف " ابن خلدون " أسطول المرابطين : قائلا : « كان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العدو موفور الأساطيل ثابت القوة، لم يتحيفه عدو، ولا كانت لهم به كرة، فكان قائد الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس، ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم. وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعا » [120].

الهوامش

1 – عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني بيروت 1968، ج 6، ص 374 – 375.

– أحمد السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج 2، ص 20.

– مؤلف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامي، تونس، ص 14.

2 – أحمد بن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت 1967، ج 4، ص 94/ 98.

3 – أبو عبيد الله البكري : المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، نشر دوسلان، الجزائر 1911، ص 167.

4 – الحلل الموشية، ص 11 / 153.

– توفيق مزاري عبد الصمد : "التنظيمات العسكرية المغربية في عهد المرابطين والموحدين"، رسالة ماجستير جامعة الجزائر، عام 2000، ص 63 - 64.

5 – إبراهيم حركات : النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، منشورات الوحدة العربية، الدار البيضاء، ص 155.

6 – يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، مؤسسة الخانجي، القاهرة 1958، ص 479.

– حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، دار النفائس، بيروت 1967، ج 4، ص 369.

7 – مزاري عبد الصمد، التنظيمات العسكرية، ص 65.

8 – السلاوي، الاستقصا، ج 2، ص 61.

9 – الحلل الموشية، ص 22.

10 – ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 3 / 72.

11 – هويكنز ج ف ب : النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، الدار العربية للكتاب، تونس 1980، ص 143.

12 –ابن خلدون، المقدمة، ص 162.

13 –ابن عذاري، البيان المغرب، ج 4، ص 23.

14 – نفسه، ص 102.

15 – ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 22.

16 – محمد بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، دار المعارف، مصر، ج 1، ص 113.

17)-Dozy (R) ,Histoire des musulmansd'Espagne ,Leyde ,1932 ,v .3, p .164

18 –هويكنز، النظم الإسلامية، ص 145.

19 –محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة 1964، ص 232

20 –أشباخ : تاريخ الأندلس، ص 146.

21 –لسان الدين محمد بن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، بيروت، 1956، ج 2، ص 119.

22 –ابن عذاري : البيان المغرب، ص 23.

23 - نفسه، ص 84.

24 - هويكنز، النظم الإسلامية، ص 148.

25 -أبو بكر البيذق الصنهاجي : أخبار المهدي بن تومرت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 117.

26 -ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص 243.

27 -السلاوي : الاستقصا، ج 2، ص 8.

28 -شارل اندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، الدار التونسية للنشر، ج 2، ص 106.

29 -ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 374 - 375.

30 - محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، دار الكتاب العربي، القاهرة 1969، ص 303.

31 - اندري جوليان، نفسه، ص 106.

32 - ابن الخطيب، تاريخ المغرب، ص 230.

33 - نفسه، ص 232.

34 - ابن عذاري : البيان المغرب، ج 4، ص 23.

35 - إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ، ج 1، دار السلمي، الدار البيضاء، 1965، ص 206.

36 - عبد الحق حموش : ابن تاشفين، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص 44.

37 - مزاري عبد الصمد : التنظيمات العسكرية، ص 47 / 48.

38 -الحلل الموشية، ص 13.

39 -عبد الحق المريني : الجيش المغربي عبر التاريخ، الرباط، 1967، ص 29.

40 -البكري : المغرب، ص 165 - 166.

- الحلل الموشية، ص 10.

- ابو الحسن علي بن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط 1936، ج 2، ص 16.

41 - عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1949، ص 168.

42 -حموش : ابن تاشفين، ص 44.

43 -الحلل الموشية، ص 100.

44 -حركات : النظام السياسي والحربي، ص 163.

45 -ابن الخطيب : الإحاطة، ج 1، ص 412.

46 -ابن أبي زرع : روض القرطاس، ج 2، ص 88.

47 -ابن عذاري :البيان المغرب، ج 4، ص 55 -56.

48 -حركات : النظام السياسي والحربي، ص 163.

49 -الحلل الموشية، ص 95.

50 – أحمد مختار العبادي : في تاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت 1972، ص 484.
51 – ابن خلدون : العبر، ج 6، ص 375.
52 – عز الدين بن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت 1980، ج 8، ص 75.
53 – المراكشي : المعجب، ص 171.
54 –ابن عذاري : البيان المغرب، ج 4، ص 128.
55 –المراكشي : نفسه، ص 171.
56 –ابن الأثير، نفسه، ج 8، ص 75.
57 –المراكشي، نفسه، ص 171.
58 – ابن عذاري، نفسه، ج 4، ص 12.
59 – ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 475.
60 – ابن الأثير، نفسه، ج 8، ص 75.
61 – حموش : ابن تاشفين، ص 44.
62 – ابن أبي زرع : روض القرطاس، ج 2، ص 88.
63 –ابن عذاري : البيان المغرب، ج 4، ص 55 / 56.
64 – نفسه، ص 29.
65 – مزاري عبد الصمد : التنظيمات العسكرية، ص 50.
66 – ابن عذاري، نفسه، ص 35.
67 – هوبكنز : النظم الإسلامية، ص 155 - 156.
68 – ابن عذاري، نفسه، ج 4، ص 48.
69 – الحلل الموشية، ص 13.
70 – ابن الخطيب : الإحاطة، ج 1، ص 459.
71 –الحلل الموشية، ص 97.
72 – نفسه، ص 13.
73 – عنان : دول الطوائف، ص 311.
74 – السلاوي : الاستقصا، ج 2، ص 27.
75 – عنان : عصر المرابطين، ص 418.
76 – ابن عذارى : البيان المغرب، ج 4، ص 102.
77 – ابن الخطيب : الإحاطة، ج 1، ص 456.
78 – ابن خلدون : العبر، ج 6، ص 374 - 375.
79 – عنان : دول الطوائف، ص 303.
80 –حموش : ابن تاشفين، ص 44.

81 - عنان : دول الطوائف، ص 309.

82 - ابن عذاري : البيان المغرب، ص 102.

83 - عنان : عصر المرابطين، ص 418.

84 - السلاوي :الاستقصا، ج 2، ص 27.

85 - الحلل الموشية، ص 98.

86 - أشباخ : تاريخ الأندلس، ص 479.

87 - عبد الملك بن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين، دار الأندلس، بيروت 1964، ص 278.

88 - ابن خلدون : العبر ،ج 6، ص 375.

89 - أشباخ : تاريخ الأندلس، ص 408.

90 - ابن عذاري : البيان المغرب، ج 4، ص 12 - 13.

91 - ابن خلدون، نفسه، ص 374 - 375.

92 - الحلل الموشية، ص 68.

93 - ابن عذاري، نفسه، ص 102.

94 - مزاري عبد الصمد : التنظيمات العسكرية، ص 105- 107.

95 - الحلل الموشية، ص 108.

96 - حركات : المغرب عبر العصور،ج 1، ص 207.

97 - ابن عذاري : البيان المغرب، ج 4، ص 117

98 - نفسه، ص 80 - 81.

99 - ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 96.

الجانب الإداري لجيش الموحدين،

100 - السلاوي : الاستقصا، ص 10.

101 - ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، ص ص 177 - 178.

102- توفيق مزاري : التنظيمات العسكرية، ص 101.

103- الحلل الموشية : ص 24.

104- نفسه، ص 55.

105- ابن الخطيب : الإحاطة، ص ص 457 - 458.

106- السلاوي : الاستقصا، ص 47.

107- البكري : المغرب، ص 374.

108- الحلل الموشية، ص 43.

109- ابن الخطيب : الإحاطة، ص 458.

110- ابن عذاري : البيان المغرب، ص 35.

111- ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص 118.
112 - ابن عذاري : البيان المغرب، ص 131.
113- ابن الخطيب : تاريخ المغرب، ص 243.
114- أشباخ : تاريخ الأندلس، ص 103.
115- بن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 52.
116- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ص 375.
117- مزاري : التنظيمات العسكرية، ص 236.
118- ابن عذاري : البيان المغرب، ص 68.
119- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ص 331.
120- نفسه، ص 452.

جيش الموحدين

قيام الدولة :

ظهر الموحدون في المغرب على يد المهدي بن تومرت الذي ينتمي إلى هرغة، وهي إحدى بطون قبيلة مصمودة، نشأ في جبال الأطلس المغربية، وتجول في مختلف البلاد الإسلامية لأخذ العلم، إلى أن وطن نفسه على الفقه الأشعري ببغداد.

ولما عاد ابن تومرت إلى المغرب، أخذ على نفسه مهمة التدريس والنهي عن المنكر، وانتهى به المطاف إلى الانعزال في قرية ملالة بالقرب من بجاية، حيث التقى بعبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي الندرومي، وأصبحا متلازمين.

وتمت البيعة لابن تومرت على نصرته في قريته إيجلي عام 515 هـ / 1121 م، وأطلق على أتباعه تسمية الموحدين الذين أخذوا يشنون الغارات على المرابطين، إلى أن توفي عام 524 هـ / 1130 م.

خلف عبد المؤمن بن علي، المهدي بن تومرت في قيادة الموحدين، الذين استطاعوا أن ينتصروا على المرابطين، فاستولوا على وهران وتلمسان عام 539 هـ / 1145 م، وعلى فاس وسلا وسبتة عام 540 هـ/1146 م، ودخلوا مراكش عاصمة المرابطين عام 542 هـ / 1148 م.

انتقل الموحدون إلى الأندلس، وأخضعوا مدنها ابتداء من سنة 541 هـ / 1146 م.

وفي سنة 547 هـ / 1152 م، استولى الموحدون على الجزائر، وبجاية عاصمة بني حماد، ثم القلعة وقسنطينة، ثم أخضعوا سطيف وقبائل بني هلال عام 548 هـ / 1153 م.

ودخل الموحدون تونس عام 554 هـ / 1159 م، ثم قابس وقفصة وطرابلس والمهدية عام 555 هـ / 1160 م.

وقبل وفاة عبد المومن، عام 558 هـ / 1163 م، بسط الموحدون نفوذهم على الأندلس وكل المغرب، وهذا بفضل قوة الجيش، الذي استمر في حماية الحدود، ومحاربة حركات الاسترداد، والحملات الصليبية.

مصدر جيش الموحدين :

1)- القبائل المحلية المغربية (البربر) :

كان أصل دعوة المهدي بن تومرت : نفي التجسيم الذي ذهب إليه أهل المغرب باعتمادهم ترك التأويل في المتشابه من الشريعة، وصرح بتكفير من أبى ذلك. وسمى دعوته: دعوة التوحيد، وأتباعه بالموحدين، وعلى حد قول " ابن خلدون "، خص المهدي بالمزية من دخل في دعوته قبل تمكنها، فكان أهل السابقة ثماني قبائل، سبعة من المصامدة هي : هرغة وهم قبيلة الإمام المهدي، وهنتاتة، وتينملل، وكنفيسة، وهزرجة، وكذميرة، ووريكة، أما القبيلة الثامنة، فهي كومية، قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته.[1]

وبذلك تعتبر القبائل الساكنة بجبال الأطلس الأعلى المغربية، هي السابقة في جيش الموحدين، الذي جهزه المهدي بن تومرت سنة 517هـ / 1123م، لنشر دعوته، والإطاحة بالمرابطين[2].

وقد ذكر "ابن خلدون " : «في سنة خمسمائة وخمسة عشر هجري، نزل المهدي على قومه من بلاد هرغة وبنى رابطة للعبادة، واجتمعت إليه الطلبة والقبائل ».[3]

فكانت قبيلة " هرغة " أول نواة لجيش الموحدين، باعتبارها القبيلة التي ينتمي إليها المهدي بن تومرت، ولجأ إليها حتى يكون في منعة من قومه، ودخل أهلها في أمره كلهم، ومنعوه من المرابطين[4]

ولما زحف جيش المرابطين من سوس بقيادة أبي بكر اللمتوني على الموحدين، تحالفت هرغة مع جيرانها من قبائل المصامدة، وأوقعوا بالمرابطين، فكانت بداية الانتصار للموحدين.[5]

ولما كانت قبيلة هرغة وحدها، لا يمكنها تجسيد مطامح المهدي، بادر إلى تجنيد بقية المصامدة، واختيار أصحابه العشرة، وأهل شورته، من هذه القبائل المختلفة بهدف ضمها إليه.

قال "ابن خلدون" : « ثم دعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد، وقتال المجسمين دونه سنة خمس وعشرة وخمسمائة، فتقدم إله رجالاتهم من العشرة وغيرهم، وكان فيهم من هنتاتة : أبو حفص عمر بن يحي، وأبو يحي بن يكيت، ويوسف بن وانودين، وابن يغمور ؛ وتينملل : أبو حفص عمر بن علي أصناك، ومحمد بن سليمان، وعمر بن تافراكين، وعبد الله بن ملويات»[6].

أما "ابن أبي زرع"، فيذكر أسماء العشرة[7] كالتالي : أبو محمد البشير الونشريسي، أبو حفص بن يحي، أبو حفص بن عمر بن علي اصناج، إبراهيم بن إسماعيل الهزرجي، أبو عمران عيسى، سليمان بن مخلوف، أبو محمد عبد الواحد الحضري، أبو عثمان بن يخلف، أبو يحي بن يجيت.

ويورد " ابن الأثير " [8] اسم عبد المؤمن بن علي، خليفة المهدي

وكانت قبيلة هنتاتة العظيمة، بجبال درن، محل ثقة المهدي، وشكلت الطلائع القيادية الأولى لجنده. ثم انتقل المهدي إلى جبال " تينملل "، وانضمت إليه قبائلها، فقويت شوكته.

ثم أخذ المهدي يقاتل من تخلف عن بيعته، ويضم بقية المصامدة عنوة، فزحف على هزرجة، وغزا هسكورة، وعجدامة، وجنفيسة. وبذلك انضافت هذه القبائل، وشكلت جيش الموحدين الذي قاتل به المرابطين.[9]

وبعد وفاة المهدي عام 524هـ / 1129م، استقدم خليفته عبد المؤمن بن علي قبيلته "كومية "، ليحمي بها ظهره، سيما بعد الخلاف الذي نشب بينه وبين المصامدة حول ولاية العهد، والتي أسندها عبد المؤمن لابنه.[10]

وبذلك دعم عبد المؤمن جيشه بأربعين ألف من قبيلته كومية الزناتية، وجعل منهم بطانته وحرسه الخاص، ورتبها في الطبقة الثانية بين القبائل الموحدية.[11]

وبعد دخول عبد المؤمن مراكش، انظم إلى جيشه بعض المرابطين، سيما من قبيلة مسوفة.

ودخل في دعوة الموحدين : بنو يلومي، وبنو عبد الواد، وسيني، وبنو توجين، بعدما زحف عبد المؤمن على تلمسان.[12]

ولما فتح بجاية انظم بعض الجنود الحماديين من صنهاجة إلى الجيش الموحدي[13].

2) العرب :

ذكر " هوبكنز " أن العنصر العربي لم يكن عاملا هاما في قوات الموحدين، ولكنه يتعرض للوقائع التاريخية التي لا تؤكد ذلك.[14]

فبعدما أخضع عبد المؤمن سنة 548هـ / 1153م بني هلال في سطيف، أعلن في سنة 554هـ / 1159م عن عزمه على استعمالهم للغزو ضد الكفار في الأندلس، وعلى إنزال بعضهم للاستيطان في المغرب الأقصى، أما انتقال العرب بالجملة إلى الأندلس، فلم يبدأ بالفعل قبل سنة 576هـ / 1181م [15]، وذلك تلبية لنداء الجهاد.

كما أن العرب كانوا يضمون بعض الرؤساء ذي النفوذ، فوجد عبد المؤمن من المجدي استعمالهم لكي يوازن بهم عند الضرورة قوة أشياخ الموحدين.

ولما أراد عبد المؤمن استغلال كثرة العرب وشجاعتهم للجهاد في الأندلس، جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بإفريقية، وقال لهم : « قد وجبت علينا نصرة الإسلام، وما يقاتلهم أحد مثلكم، فبكم فتحت البلاد أول الإسلام، وبكم يدفع عنها العدوان الآن، ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله». [16]

وكان الموحدون يستشيرون العرب عند لقاء النصارى، لأنهم كانوا يحسنون الحرب على الأرض المنبسطة، بالإضافة إلى حيلهم كما ذكر " ابن صاحب الصلاة ". [17]

ومن حرص عبد المؤمن على تجنيد العرب، فقد سار على نهجه خلفاؤه من بعده، وعملوا على نقل عرب إفريقية إلى السواحل الأطلسية لاتقاء تمردهم، والاستفادة منهم في حروب الأندلس.[18]

3)- النصارى (أو الروم)

يعتبرا لروم عنصر آخر العناصر التي استخدمت في الجيش الموحدي ويعد السبب في ذالك الى كفاءتهم الحربية وشجاعتهم في ساحات القتال حيث يقول ابن

خلدون آن الروم كانوا يقدرون لأسلوبهم في القتال ففي حين آن قتال المسلمين كان قائما على الكر والفر فان الروم يثبتون في مواقعهم أو يزحفون في صفوف متراصة فكانوا يقيمون قاعدة ثا بتتة يكون السلطان في وسطها.

ذكر كل من "ابن الأثير"[19]، و" صاحب الحلل الموشية "[20]، أن النصارى هم الذين قاموا بفتح أبواب مدينة مراكش لعبد المؤمن.

ومن المحتمل أن الموحدين أخذوا ما تبقى من النصارى عند المرابطين، فيذكر " هوبكنز "[21]، أن بعض النصارى كانوا يعملون في جيوش عبد المؤمن، ضمن الجيش الذي أرسل ضد الماسي في سنة 542هـ / 1147م، بعد سقوط مدينة مراكش

ولما طالب " إدريس المأمون بن المنصور " بالعرش، كان حينها موجودا في الأندلس، وكان يواجه صعوبات حينما عبر بحر الزقاق للاستيلاء على العاصمة، لذلك قد اصطحب معه إلى المغرب الأقصى، سنة 626هـ / 1128م، فرقة من النصارى، زوده بها " فرناندو الثالث "، وفرض عليه مقابل ذلك شروطا باهظة، فتقبلها منه، وأورد هذا " ابن أبي الزرع " فقال » قال له ملك قشتيلة : لا أعطيك الجيش إلا على شرط أن تعطينا عشرة حصون مما يلي بلادي، أختارها لنفسي، وإذا منّ الله تعالى عليك ودخلت مراكش، تبني للنصارى الذين يسيرون معك كنيسة، في وسطها يظهرون بها دينهم، ويضربون فيها نواقيسهم في أوقات صلواتهم. وإن أسلم أحد من الروم لا يقبل إسلامه ويردّ إلى إخوانه فيحكمون فيه بحكمهم، ومن تنصر من المسلمين فليس لك عليه من سبيل، فأسعفهُ في جميع ما طلب منه، فبعث إليه جيشا كثيفا من اثني عشر ألف فارس من النصارى برسم الخدمة معه».[22]

4) الغُز (أو الأغزاز) :

هم جماعة من الرماة من أصل تركي، قدمت من مصر، وظهرت على مسرح الأحداث في إفريقية، حوالي سنة 568هـ / 1172م.

ويبدي " هوبكنز "[23] في تعريف الغز أو الأغزاز، الملاحظات التالية:

أ - يدعي " ابن أبي زرع " (في كتابه : روض القرطاس، ص 87) أن يوسف بن تاشفين أدخل الأغزاز والرماة إلى جيشه في سنة 454هـ / 1062م. وليس لهذا القول ما يؤيده.

ب - لا ينبغي الخلط بين الغز والغزاة في طبقات الموحدين.

ج - لا يرى سببا للخلط بين الغز والأكراد، كما يفعل عدة كتّاب.

قد وصل الجيش الرئيسي من الغز إلى إفريقية حوالي سنة 568 هـ / 1172م، قادما من مصر، بقيادة شرف الدين قراقوش[24]، الذي أعلن فيما بعد طاعته للموحدين، وكان ذلك عام 583هـ /1187م[25]. وهي السنة التي ظهر فيها الغز في مدينة مراكش كما ذكر " المراكشي "[26]. ثم استمر الغز يفدون إلى المغرب حتى آخر أيام أبي يوسف المنصور، الذي توفي سنة 595هـ / 1198م.

ويرد ذكر الغز بعد ذلك ضمن قوات الموحدين، فيقول " المراكشي " : « بعثوا بعثا من الموحدين والغز وأصناف الجند »[27]

ويذكر " ابن أبي الزرع "، أن جيشا أرسل للغزو في الأندلس، مكون من : « العرب وزناتة والمصامدة وغمارة وصنهاجة وأوربة وأصناف البربر، ثم جازت جيوش الموحدين والأغزاز والرماة »[28]

ولا شك في أن سلطان الموحدين كان يقدر الشجاعة والعصبية اللتين تتميز بها القوات المرتزقة كالغز، لذلك حظوا بالتميّز والامتيازات حتى على حساب الموحدين.

5) السودان

تشكلت نواة عبيد المخزن عند الموحدين، من القوة العسكرية السودانية التي كانت لدى المرابطين، وشارك عبيد المخزن في استيلاء الموحدين على مدينة مراكش.[29]

ثم اتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من عبيد السودان حرسه الخاص (30)، نظرا لما تمتعوا به من إخلاص وتفان في القتال.

ومما يذكر كذلك عن السودان، أنه كانت جماعة من العبيد تشكل حرسا خاصا للناصر في يوم كارثة وقعة العقاب. [31]

تنظيم جيش الموحدين

اول الوظائف المتعلقة بتنظيم الجيش هي الديوان الذي يعتبر الان بمثابة وزارة الدفاع وصلاحيته تتمثل بالدرجة الأولى في تسيير شؤون الجند.

وقد حدده ابن خلدون بان وظيفته تتمثل على الخصوص في اعمال الجبايات وحقوق الدولة وتقديم إحصاء شاملا للجند وتقدير رواتبهم وصرفها في وقتها واما الماوردي فوصفه بقوله حفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من إعمال وأموال وما يقوم به الجيش.

وربما تعود بداية هذا التنظيم إلى عهد ابقين تومرت الذي كلف إسحاق بن برنوس بكتابة قائمة الجند أثناء التمييز.

وفي عهد عبد المؤمن ومن جاء بعدة من خلفاء الدولة ظهر كاتب خاص يعتني بشؤون الجيش يسميه المراكشي كاتب الجيش وابن صاحب الصلاة كاتب العسكرة أو كاتب ديوان التمييز عناصر الجيش الدارس للتاريخ العسكري للدولة الموحدية يستنتج ان عناصر الجيش الموحدي كانت في البداية مقتصرة على القبائل الموحدية لكن مع تطور الأوضاع تغير المفهوم بإدخال عناصر جديدة أول تلك العناصر قبائل الموحدين وهذه القبائل هي التي نظمها ابن تومرت ورتبها حسب أهميتها 1 بعد مبايعة المهدي بن تومرت، سنة 515هـ / 1121م، وضع نظاما عسكريا للموحدين، فرتبهم صفوفا، وراعى في ذلك أن يمثل في المراتب الأولى القبائل التي استجابت لدعوته التوحيدية، وأظهرت استعدادها لنصرته [32]

واعتمد المهدي على نظام الطبقات، فقسم الموحدين إلى أربعة عشر طبقة، أوردها " ابن القطان "[33]، مرتبة حسب أهميتها، كالتالي :

- الطبقة الأولى : أصحاب المهدي العشرة، وعرفوا باسم أهل الجماعة، وهم أهل الشورى وأصحاب الرأي في حركته، وبمثابة وزرائه[34]. فذكرهم "ابن الخطيب "[35] كالتالي :

- أبو محمد البشير (الونشريسي)
- عبد المؤمن بن علي
- أبو حفص بن عمر ارتاج (أصناج)
- أبو حفص بن يحي اينتي
- إبراهيم بن إسماعيل الهرغي(الهزرجي)
- سليمان بن مخلوف
- أبو محمد عبد الواحد أحضر (الحضري)
- أبو محمد بن عبدا لله بن يعلى(أبو عثمان بن يخلف)
- أبو يحي بن يجيت.
- أبو عمران موسى بن غار(أبو عمران عيسى)

وذكرتهم المصادر بأسماء مختلفة، منها " ابن أبي زرع "[36]، و" ابن الأثير" [37]. وهؤلاء هم الأشياخ، جعلهم المهدي بمثابة قادة القبائل المختلفة، وفي نفس الوقت يمثلون المجلس الحربي الذي يعقد للتشاور قبل أي حرب أو معركة، وأحيانا ينعقد أثنائها [38].

- الطبقة الثانية : أهل الخمسين، أي خمسون من كبار رؤساء القبائل، إذ كان المهدي بن تومرت في حاجة إليهم، لضم القبائل المختلفة إلى حركته، ولقد نالوا الوظائف الكبيرة بفضل إخلاصهم له، وجعل منهم قادة في الجيش.

- الطبقة الثالثة :أهل السبعين، وهم بمثابة مستشارين للمهدي، وجعل منهم أيضا قادة في الجيش، ولكن أقل مرتبة.

- الطبقة الرابعة : الطلبة.

- الطبقة الخامسة : الحفاظ وهم صغار الطلبة.

- الطبقة السادسة :أهل الدار، وهم الرجال الذينيخدمون ابن تومرت في داره. وحسب ما أخبر به " ابن القطان "[39] كانت لهم مكانة مرموقة بين الموحدين، ومن بينهم : عبد الواحد بن عمر، وأبو محمد عبد العزيز، وسفار بن محمد، وعبد الكريم أفغو.

- الطبقة السابعة :قبيلة هرغة، وهي قبيلة المهدي بن تومرت.
- الطبقة الثامنة : أهل تينملل.
- الطبقة التاسعة : قبيلة جدميوة (جرميوة)
- الطبقة العاشرة : قبيلة جنفيسة.
- الطبقة الحادية عشرة : قبيلة هنتاتة.
- الطبقة الثانية عشرة : أهل القبائل، أي القبائل التي ناصرت المهدي.
-الطبقة الثالثة عشرة : الجند المتطوعون الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة.
-الطبقة الرابعة عشرة : القراء، وهم الأحداث الصغار الأميين[40] وذكر "علام" أنهم يمثلون الموالي كذلك[41]

بينما ذكر "ابن الخطيب في رقم الحلل"، ثماني طبقات، بقوله : "ورتب المهدي قومه ترتيبا غريبا :

-وأهل الجماعة للتفاوض
-أهل الدار للامتهان والخدمة
-و أهل الخمسين
-و أهل الساقةللمباهاة
-و الطلبـــة
-و أهـل السبعين
-و أهل القبائل لمدافعة العدو
-الحاظ لحمل العلم والتلقي

وكان يعلمهم أوجه العبادات من العادات". [42]

وفي أيام الحرب كانت جميع الطبقات تشترك في القتال بقيادة المهدي. وجعل المهدي لكل طائفة منها رئيسا، يتولى النظر في أحوالها، يسمى "المزوار"[43]. واعتمد المهدي أيضا على نظام عشري، فجعل على كل عشرة جنود نقيبا[44]. وظل هذا النظام القائم على أساس قبلي مستمرا حتى انتصار عبد المؤمن على المرابطين.

ثم انتهز عبد المؤمن فرصة موت أغلب أصحاب المهدي العشرة، من بعده، وعمد إلى تغيير نظام طبقات المهدي الأربع عشرة، وصنف الموحدين في ثلاث فئات، ورتبها كالتالي :

الفئة الأولى : تضم ممن ما زالوا على قيد الحياة من أصحاب المهدي العشرة، وأهل الخمسين، وأهل السبعين، والسابقين الأولين، الذين سبقوا إلى مبايعة المهدي ونصرته ،أو ممن صلوا خلفه، دون التقيد بقبيلة معينة.[45]

الفئة الثانية : تتكون من الموحدين الذين دخلوا في الدعوة الموحدية بعد موقعة البحيرة سنة 524 هـ/ 1130 م، دون التقيد بقبيلة معينة أيضا، وهم الذين صمدوا في فترة الصراع بين الموحدين والمرابطين.

الفئة الثالثة : تضم الذين دخلوا في دعوة الموحدين بعد موقعة وهران، سنة 539 هـ/ 1145 م [46]. وقد لاحت بشائر انتصار عبد المؤمن، فقد انضموا إلى الأقوى ليعيشوا، فمنزلتهم كانت الأخيرة.

و على هذا الأساس، فقد كسر عبد المؤمن شوكة القبائل سياسيا، إلا أنه عمل على إبقاء النظام القبلي من الوجهة العسكرية، كما وضعه ابن تومرت، باستثناء قبيلة كومية، فقد وضعها بعد قبيلة هرغة في الترتيب العسكري.

أما المراكشي فيذكر لنا قبائل الموحدين ويعرفها بقوله وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم هم الجند والأعوان والأنصار ومن سواهم من سائر البربر المصامدة رعية لهم وتحت آمرهم سبع قبائل أولها قبيلة ابن تومرت وهي قبيلة هرغة وهيى قليلة العدد بالنسبة الى قبائل الموحدين ثم قبيلة عبد المؤمن وتسمى كومية وهي قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب لم يكن في قديم الدهر ولافي حديثه ذكر في رئاسته فاصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحدا ولاتطاول أيديهم يد لكون عبد المؤمن منهم وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ثم هنتاتة ثم كنسيفة ثم كمنيوة وبعض قبائل هسكورة وبذلك يكون وصفه أهم وصف لقبائل الموحدين[47].

2) تركيب الجيش وأصنافه

أدخل عبد المؤمن على النظم العسكرية إضافات وتحسينات، بوصفه القائد الأعلى للجيش.[48]

و اهتم عبد المؤمن بضبط الجيش ضبطا جيدا، إذ يقول " السلاوي " :« بلغ من حفظ عبد المؤمن لعساكره، وضبطه أنهم يمشون بين الزرع، فلا تتأذى بهم سنبلة، وإذا نزلوا صلوا بإمام واحد، وبتكبيرة واحدة، لا يتخلف منهم أحد كائن من كان »[49]

فقسم عبد المؤمن الجند إلى سبع مراتب[50] هي :

أولا : الأشياخ الكبار من الموحدين الذين هم من بقايا أتباع المهدي ابن تومرت، وهم بمثابة الأمراء.

ثانيا : الأشياخ الصغار من الموحدين وهم دون ما سبقهم في الرتبة.

ثالثا : الوقافون : وهم حرس الأمير، ويقطنون معه في القصبة، وهم فئتان : وقافون كبار، ووقافون صغار، والجميع يقف بين يدي السلطان أثناء استقبالاته، أو أوقات الجلوس إذا جلس.

رابعا : عامة النجد.

خامسا : الجند من قبائل العرب.

سادسا : الصبيان وهم جماعة من الشباب يعملون في خدمة السلطان.

سابعا : جند الإفرنج، ويدعون بالعلوج، وخاصة الأمير وموضع ثقته، لا يطمئن إلا إليهم.[51]

وبصفة عامة يمكن تصنيف جيش الموحدين إلى صنفين هما :

أ - **جيش نظامي** : " الأجناد المرسومون المعينون"[52]، ويتكون من أبناء القبائل المغربية، ومسلمي الأندلس، والعلاج والسودان[53]، ويختار أمير المؤمنين منه رجال الحرس، من أشد الشباب قوة وأعظمهم إخلاصا، ويضم هذا الجيش فرقا حرفية من الصناع وأصحاب المهن، توفر المؤن، وضروريات الجيش واحتياجاته.

وفي أواخر أيام دولة الموحدين، أنشئ أيضا حرس من الأندلسيين، وحرس من الأسبان.

أما القبائل المغربية، فكان يجب عليها أن تقدم أفرادا إلى الخدمة العسكرية، وفقا لنظام التجنيد في الجيش، الذي تفرضه السلطة[54]

ب - جيش عام : ويشمل المتطوعين، الذين يقدمون أنفسهم للجهاد في سبيل الله. [55]

وكان تجنيد المتطوعة، وخاصة من العرب، عن طريق الترغيب المادي والمعنوي في قتال النصارى، فذكر "ابن الأثير" أن عبد المؤمن استعمل هذه الطريقة في تجنيد العرب فأجابوا بالسمع والطاعة. [56]

عدد الجيش :

الدارس للجيش الموحدي يجد صعوبات كبير ة تتعلق بتحديده وأقسامه حسب المراحل التاريخية التي مرت بها الدولة ففي مرحلة التأسيس من الأصعب التحدث عن جيش نظامي بمفهومه الحال بل كان اغلبه يتشكل من قبائل الموحدين عكس المراحل الموالية فابن زرع الذي أرخ للدولة المحدية ذكر لنا آن جيش عبد المؤمن بلغ في غزوة نادلا نحو الثلاثين آلف من الموحدين واما صاحب الحلل فيحدد لنا الجيش الذي قده عبد المؤمن عندما توجه إلى تحرير المهدية من الاحتلال النوورماندي بلغ خمس وسبعين آلف وحدده ابن الأثير بمائة آلف رجل.

وخلال معركة الأراك في عهد السلطان أبو يعقوب بلغ عدد الجيش نحو مائة آلف واكثر وبيدا لك يمكن للبا حث آن يجعل القوة الموحدية في حدود مائة الف.

أقسام الجيش :

ينقسم الجيش الموحدي إلى الأقسام الا تية:

- قسم المشاة وهم الرجالة الدين مثلوا أغلبية الجيش في مرحلته الأولى ثم الفرسان بعد قيام الدولة وتطورها ثم الرماة وهم من عبيد المخزن وحراس الخلفاء يبدوا لي آن اغلب عاصرهم تتشكل من قبيلة كومية قبيلة عبد المؤمن.

لكن القلقشندي قسم الجيش الموحدي بميالي الأشياخ الكبار من الموحدين والأشياخ الصغار من الموحدين أيضا الوقاقون وهم خاصية بمثابة الحرس يسكنون معه رابعا عامة الجند خامسا الجند من القبائل العربية.

- الصبيان وهم جماعة من الشباب في خدمة الأمير.

سابعا الجند من الإفرنج

3)- إدارة الجيش ومراتبه :

عرف جيش الموحدين عدة دواوين في منتهى الضبط، إذ كان للجيش، بما فيه من جند نظامي، وحرس، وعبيد، دواوين تسهر على إحصاء الجند، ومعرفة حاجاته المتجددة، وكانت مهمة الإشراف على جيش الموحدين، تستند إلى الدواوين التالية.

أ - ديوان العسكر : يرأسه أحد القادة العسكريين [57]، وهو الذي يشرف على شؤون الجيش جميعها.

ب - ديوان التمييز : وهو يختص بمهمة اختيار الجند الصالحين للحرب، وتتم هذه العملية قبل الحرب أو الغزوة، كما أنه ينعم بالعطايا على الجند الذين فازوا بصلاحيتهم للقتال[58].

وكان يتولى ديوان التمييز وزير يسمى بكاتب ديوان التمييز.

ج - ديوان الإنشاء: يلحق بالديوانين السابقين، وهو خاص بالجيش، وله كاتب يسمى " كاتب العسكرية "، ومهمته إحصاء الجيش وتنظيم رتبه، وضبط مرتباته [59]

د - ديوان الكتابة: يلحق بالديوانين الأولين، ويشرف عليه كاتب العسكرية، وبه كتاب خاصون يسمون " كتاب الجيش"[60]، يوفون بالإحصاءات والتقارير عن الجيش باستمرار. [61]

أما مراتب الجيش فنذكر منها ما يلي :

تعددت القيادات في الجيش الموحدي خلال المراحل التي مرت بها الدولة ويمكن تقسيم القيادة العسكرية الى ثلاثة أنواع القيادة العامة من اختصاص

- **الخليفة** : كان يشرف مباشرة على جميع قيادات الجيش.[62]

- **أشياخ القبائل**: وهم بمثابة قادة القبائل ولعل ابرز هؤلاء ابا حفص عمر الهنتاتي الذي أوكل إليه عبد المؤمن قيادة الجيش لإخضاع منا طق هامة من المغرب واستمر الخلفاء بعده يعطون أهمية لهذه العائلة والدليل على ذالك تكليفها بمحاربة ابن غانية التي سمحت لها بتأسيس الدولة الحفصية.

- **الموزاوون**: أي رؤساء الفرق، وهم بمثابة المجلس الحربي الذي يعقد للتشاور قبل المعركة أو أثناءها [63].

- **الوالي على مصر أو مدينة**: وهو القائد الأعلى على مستوى الولاية، فينظر في عسكرها وأجنادها، وثغورها، وكانت تعطى الأولوية في هذه الرتبة لأصحاب المهدي أو أبناء الأمير الموحدي وأخوته [64].

- **ولاية إشبيليا** : كانت لها أهمية في الأندلس، بحيث يقوم الوالي المعين عليها بدور قائد لجيوش الأندلس، فقد كان الأمير " يعقوب المنصور " واليا عليها، ويقود الجيوش[65]

- **وزير الجند**: وهو بمثابة الحاجب الذي يرد إليه الأمر في أمور الجند

- **صاحب العلاقات**: وهو الذي يتولى أمور الإبلاغ (الإعلام)، وله أمر دق الطبول عند ركوب السلطان والموكب.

-**محركو الساقة**: وهم أفراد يحملون العصي ويرتبون الناس في المواكب[66].

- **المقدم على الدواب**: وهو شخص في جيش الموحدين مكلف بالدواب[67].

فهذا التنظيم للجيش ساعد كثيرا الأمراء والخلفاء الموحدون في التحكم في دواليب الدولة، رغم اتساع رقعتها، وكثرة حروبها، سواء ضد النصارى في الأندلس، أو في إخماد حركات التمرد والثورات في المغرب والأندلس[68].

قيادة الجيش وأوسمته :

1) - قيادة الجيش :

اعتنى الموحدون عناية كبيرة بتقوية الجيش تنظيما، وعددا وعدة نظرا لاتساع حدود الدولة، وكثرة حروبها. وتمثلت قيادة الجيش فيما يلي:

أ-المهدي بن تومرت: جمع في يده القيادة الدينية والعسكرية، وكان يقود الجيوش بنفسه في بعض الوقائع. واعتمد ابن تومرت في قيادة الجيش على أهل شورته وأتباعه الأوائل[69]، وهم " الأصحاب العشرة " الذين وضعهم أعلى طبقة، في النظام السياسي والعسكري. ومن هؤلاء :

- أبو محمد البشير الونشريسي : الذي لعب دورا هاما في الحركة الموحدية، واستعمله المهدي في محاربة المرابطين، إلى أن قتل في موقعة البحيرة.

- أبو حفص عمر الهنتاتي : الذي أعطى دفعا كبيرا للحركة الموحدية..[70]

-عبد المؤمن بن علي الندرومي : الذي كان أبرز مريدي المهدي، وأول من قاد جيش الموحدين في المعارك العنيفة التي دارت بين الموحدين والمرابطين. [71]

ب- خلافة عبد المؤمن بن علي : لما آلت إليه الخلافة عام 524 هـ/ 1130 م، جمع في يده السلطة السياسية والعسكرية، وكان يقود الجيوش في المعارك بنفسه [72] ومنح عبد المؤمن أولوية قيادة الجيوش، في بداية عهده، لأصحاب المهدي، وهم أشياخ الموحدين وأبنائهم، ثم أخذ يقدم أبناءه وذويه وأقرباءه من الحكم وقيادة الجيش، كما استفاد من قادة آخرين، ومن قادة المرابطين الذين أظهروا ولاءهم له، فمن القادة الذين اعتمد عليهم عبد المؤمن ما يلي :

-أبو حفص عمر بن يحي الهنتاتي : هو أبرز قادة عبد المؤمن، أعتمد عليه في إخماد الثورات، وهو الملقب " سيف الله ".

-يوسف بن وانودين - وأبو زكريا بن يرمور : وهما من الأشياخ، وكان لهما الفضل في فتح تلمسان، والإجهاز على التحالف بين بني عبد الواد، وبني يلومي من زناتة، ولمتونة، وغيرهم.

- إبراهيم بن جامع : من الفاتحين أيضا لتلمسان.
- يحي بن يغمور : الذي حاصر مكناسة.
- الوزير عبد السلام الكومي : لعب دورا هاما في الاستيلاء على تونس[73].
- عبد الرحمن بن زجو : وهو من القادة الذين شاركوا في معارك وهران.
- أبو بكر بن جبر : أحد قادة الذي فتح فاس.[74]
- أبو محمد بن عبد المؤمن : شارك في القضاء على بني حماد، وفي الاستيلاء على إفريقية.
- عبد الله بن عبد المؤمن : أرسله أبوه لغزو إفريقية والعرب في المغرب الأوسط.
- أبو حفص بن عبد المؤمن : صاحب أباه في غزو إفريقية.
- أبو سعيد بن عبد المؤمن : لعب دورا في حروب الأندلس.
- براز بن محمد المسوفي : تخلى عن تاشفين بن علي، وندبه عبد المؤمن لغزو الأندلس.
- موسى بن سعيد، وبعده - عمر بن صالح الصنهاجي : أرسلهما عبد المؤمن لغزو الأندلس مع بزار بن محمد.
- يوسف بن سليمان : بعثه عبد المؤمن في جيش إلى إشبيلية، بعد أن ضاقت أحوال الموحدين بها.
- يحي بن يغمور : بعثه عبد المؤمن على رأس جيش إلى إشبيلية في أثر يوسف بن سليمان.[75]

ج - خلافة أبي يعقوب يوسف : بعد وفاة عبد المؤمن، تولى الخلافة ابنه أبو يعقوب يوسف عام 558 هـ / 1163 م، وكان مثل أبيه يقود الجيش بنفسه، خاصة في الحملات الكبرى، والمعارك الحاسمة، لا سيما في الأندلس.

واستعان أبو يعقوب باخوته في قيادة الجيوش، وأهمهم : " أبو حفص"، و" أبو سعيد "، اللذين كان يصحبهما معه في غزواتهخاصة الأندلس.

و في سنة 571 هـ / 1175 م، هلك الكثير من القادة، بسبب الطاعون الذي أصاب مراكش، منهم " أبو عمران، وأبو سعيد، وأبو زكريا "، لذا استدعى الخليفة أخويه، وهما :

- أبو علي : عقد له الخليفة على سجلماسة.

- أبو الحسن : عقد له الخليفة على قرطبة.

- محمد بن يوسف بن وانودين : وهو من قادة أبي يعقوب يوسف، غزا النصارى في إشبيلية عام 577 هـ / 1182 م. [76]

د - خلافة يعقوب المنصور بن يوسف (580-595هـ/1184-1198م) : قاد الجيوش في المعارك الكبرى، لا سيما في الأندلس، ومن أشهر قادته:

- يوسف بن أبي حفص : أرسله يعقوب المنصور، على رأس جيش لمحاربة ابن غانية في إفريقية.

- أبو يحي: وهو أخو يعقوب المنصور، وأشهر قادته، قتل في معركة الأراك.

-أبو زيد : عقد له يعقوب المنصور على حرب ابن غانية في إفريقية[77].

هـ -خلافة محمد الناصر بن يعقوب المنصور : تولى الخلافة عام 595هـ / 1198م، بعد أبيه، واستمر على سيرته في قيادة الجيش بنفسه، إلى أن هزم في معركة العقاب عام 609هـ / 1212م، ومن أشهر قادته :

-أبو زيد بن أبي حفص : الذي أرسله عام 596هـ / 1199م، لمحاربة ابن غانية في إفريقية [78]

-أبو عمران بن يوسف بن عبد المؤمن : الذي كان واليا على تلمسان.

-أبو زكرياء بن أبي حفص بن عبد المؤمن : وهو الذي استرجع ما فقده الموحدون في موقعة العقاب.

و-خلافة يوسف المستنصر بن محمد الناصر : تولى الخلافة عام 610هـ / 1213م، وترك قيادة الجيوش، فسيطر عليها " ابن جامع "، ومشيخة الموحدين. [79]

ز-خلافة عبد الله العادل بن يعقوب : تولى الخلافة عام 621هـ / 1224م، وكان أكبر قادته هم :

-أبو العلي : وهو أخو الخليفة، فسلم له قيادة جيوش الأندلس.

-عبو بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص : سلم له الخليفة قيادة جيوش إفريقية.

-إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ أبي حفص : فوضه الخليفة قتال المتمردين.

ح-خلافة إدريس المأمون بن المنصور : تولى الخلافة عام 627هـ / 1230م، وأشهر قادته :

-يحي بن الناصر : أرسله الخليفة لقتال " أبي زكرياء من أحفاد الشيخ أبي حفص " الذي انفصل بتونس.

ط-خلافة عبد الواحد الرشيد بن إدريس المأمون : تولى الخلافة عام 630هـ / 1232م وأبرز قادته هو :

-أبو محمد بن وانودين : عقد له الخليفة على جيوش فاس، وسجلماسة، وكلفه بمحاربة بني مرين [80].

ي-خلافة أبي الحسن السعيد بن المأمون : تولى بنفسه قيادة الجيش، ومحاربة الأمير أبي زكرياء، صاحب إفريقية، وكذا محاربة بني عبد الوادي في تلمسان.

ك-خلافة أبي حفص عمر المرتضى : وهو آخر خلفاء الموحدين، وكذلك قاد الجيوش بنفسه في حروب بني مرين. [81]

ل-النصارى : استعمل الموحدون قادة من النصارى لقتال المتمردين.

م-القبائل : كان لكل قبيلة قائدها الخاص، وكانت قيادة القبائل يتولاها رؤساء البطون منها، فكانت القيادة مثلا :

-لبني محيو بن عبد الحق من بني مرين.

-لعباس بن عقبة في بني توجين.

-لمنديل بن عبد الرحمن في مغراوة. [82]

2) الأوسمة :

منحت تسميات وألقاب لأفراد جيش الموحدين، وبعض قادته، وهي بمثابة أوسمة، ومكافأة معنوية، نظرا لما أظهروه من ولاء للمهدي وحركته، وبذلوه من جهود في الحروب. ومن ذلك.

-الموحّد : وهي أول تسمية أطلقها المهدي بن تومرت على أتباعه، إذ يقول " ابن خلدون " : « ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي، وكان لقبه قبلها الإمام. وكان يسمي أصحابه الطلبة، وأهل دعوته الموحدين. ولما تم له خمسون من أصحابه سماهم أيت الخمسين »[83].

- **سيف الله** : لقب منحه عبد المؤمن بن علي للقائد أبي حفص عمر، نظرا لبلائه في حروب الموحدين في بلاد المغرب والأندلس.[84]

- **ولاية العهد**: وهي منحصرة في أبناء الخليفة عبد المؤمن بن علي وأحفاده، الذين يؤهلون للخلافة. فقد أخص عبد المؤمن ابنه عبد الله بولاية العهد عام 547 هـ/ 1152م لما حققه من انتصارات عسكرية، بتمكنه من القضاء على جيش بني حماد في بجاية، وإلحاق الهزيمة بالعرب في معركة سطيف. ثم عيّن عبد المؤمن في ولاية العهد محمد بدل عبد الله. لكن الكفاءة العسكرية لابنه "أبي يعقوب يوسف "، وما حققه من انتصارات، جعلت عبد المؤمن يوليه ولاية العهد عام 558 هـ/ 1162 م بدل أخيه محمد.

-**الولاية وقيادة الجيوش** : يعتبر العقد على ولاية، وقيادة الجيوش مكافأة، يمنحها الخليفة لمن حقق انتصارات عسكرية كبرى، وأظهر كفاءة قيادية معتبرة.

فقد عقد عبد المؤمن لابنه أبي يعقوب يوسف على إشبيلية وقيادة جيوش الأندلس سنة 551 هـ/ 1156 م، نظرا لحروبه في الأندلس وأهمية ولاية إشبيلية. [86]

وولى عبد المؤمن على فاس إبراهيم بن جامع بعدما فتح مدينة تلمسان. وعقد الخليفة يعقوب المنصور لأبي زيد على ولاية إشبيلية وقيادة جيوش الأندلس، نظرا لبلائه في حروبها.

كما عقد يعقوب المنصور على بجاية لأبي الحسن بن أبي حفص، نظرا لمحاربته ابن غانية، وصد زحفه على قسنطينة.

أما الخليفة محمد الناصر، فقد اختار عبد الواحد الهنتاتي بن الشيخ أبي حفص لولاية تونس، وفوضه الحفاظ على استقرارها، وتخليصها من الأعراب، ثم صارت لابنه أبي زكرياء من بعده. [87]

مظاهر قوة الجيش عند الموحدين :

1) تعداد الجيش :

رغم عدم توفر إحصاءات دقيقة لجيش الموحدين، إلا أن تعداده كان كبيرا، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي :

-في غزو الموحدين لمراكش، قال "ابن خلدون" :«فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألف كلهم رجلى، إلا أربعمائة فارس [88]

-و قال "السلاوي" : « كان هذا الجند يمتد أميالا، واجتمع لعبد المؤمن من العساكر مائة ألف مقاتل، ومن الأتباع، والسوقة أمثالهم » [89]. أي بلغ العدد الإجمالي مائتي ألف جندي.

-أما "صاحب الحلل الموشية"، فيقدر الجيش الذي راح يغزو إفريقية بخمسة وسبعين ألف فارس، وخمس مائة من المشاة[90]، وبذلك يقارب ستمائة ألف جندي.

- وفي غزو المهدية، قال "ابن الأثير" : « فدخل عبد المؤمن من زويلة، وامتلأت بالعساكر والسوقة، فصارت مدينة معمورة في ساعة، ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها، وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء ». [91]

-أما "ابن أبي زرع"، فذكر أن في الحرب المقدسة بالأندلس، كان ثلاثة مائة ألف فارس من الموحدين والعرب وزناتة، التحقت بجيش عبد المؤمن الذي لا يقل عن ثمانية مائة ألف فارس، ومائة ألف مشاة. حتى أن المنطقة التي نزل فيها هذا الجيش، لم تكف لإقامته.[92]

- و رغم في عهد الناصر بن يعقوب، تضعضع الجيش، وقل عدده، إلا أنه في سنة 607 هـ/ 1211م، حشد جيشا من المغرب والأندلس، قدر بستمائة ألف مقاتل. [93]

ومهما كان، يبقى تعداد جيش الموحدين تقريبا، سواء قل أو كثر، ذلك لأن المصادر التي تعرضت له، لا تتوفر على وسائل التأكد.

2) اعطاءات الجيش :

كان جيش الموحدين على ثلاثة أصناف هي :

أ - الجنود النظاميون والمرتزقة الذين يقع تجنيدهم طوعا، ويتلقون راتبا " رزقا " منتظما.

ب - الجنود المتطوعون لتأدية فريضة الجهاد، ويعتمدون على الغنائم والمنح الإكرامية.

ج - الحشود، وهم مجندون إلزاميا لحملة معينة.

لذلك كانت الإنعامات من أخص امتيازات جيش الموحدين، وهي تشمل على منح الأجور، والأعطية للجند، وتوزيع الكسى.

و كان كساء الفارس عبارة عن عفارة، وعمامة، ولباس، وقسطة، وشقة. وكانت مبالغ النقود الذهبية التي يأخذها القادة، والأعيان، وأشياخ العرب، تصل أحيانا إلى مائة دينار[94].

أما مرتبات الجند، فكانت كالتالي :[95]

أ - **ستون مثقالا** : يأخذها كل واحد ينتمي إلى أعلى طبقات الجند المقربين إلى الخليفة، وهم قليلون.

ب - **ثلاثون مثقالا** : تمنح شهريا لمعظم الجند من غير المقربين للخليفة.

ج - **ستة مثاقيل** : يأخذها شهريا أدناهم من الجند.

وذكر "ابن عذاري" أن الموحدين كانوا يأخذون الجامكيَّة ثلاث مرات في السنة، وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لا تختل، وقال : «قال المنصور : الفرق بين هؤلاء

وبين الموحدين، أن هؤلاء غرباء، لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية، والموحدون لهم الإقطاع والأموال المتأصلة ».[96]

هذا وقد كافأ الموحدون قادة الجيش والأعيان على خدماتهم بمنح إقطاعات من الأرض. ومن ذلك فقد أقطع عبد المؤمن رؤساء العرب بعض الأراضي التي جرد أمراء بني حماد منها[97]. كما أن المنصور هدأ أعمامه، الذين حسدوه على ارتقائه العرش، بأن منحهم إقطاعا واسعة. وكذلك الغز نعموا بإقطاعيات.[98]

وكانت الغنائم من أهم مصادر تموين الجيش، لهذا أهتم الموحدون بجمعها، فكانوا كلما دخلوا مدينة غنموا أموالها.[99]

فقد كان المهدي يقول لأتباعه : « لا تنظروا إلى أعداء الله وأعدائكم، فيعظموا في أعينكم، وانظروا عداءكم، واعلموا أن كلما جاؤوا به من خيل ورسل وخيام، وعدة من دروع وبيض ورماح هدية من الله تعالى لكم على رغبتكم وانقطاعكم وفقركم فأعطاكم وأغناكم ».[100]

و ذكر " ابن القطان "، واصفا الموحدين في جمع الغنائم، أنه لما انهزم تاشفين في جبل مزدوج، ضم الموحدون السلاح وأحمال الثياب، والنبال والمحلات والبغال والعبيد والحيوان وغير ذلك.[101]

و بلغت غنائم الموحدين من بعض الحصون مائة وخمسين فرسا، وخمسمائة حمار دون البقر والغنم، كما ذكر.

3)الاستعراضات والاحتفالات :

كانت استعراضات الجيش تقوم بين آن وآخر، فيجلس الخليفة في مكان مشرف وتمر الجيوش بين يديه، كتيبة بعد كتيبة بكامل عددها وأسلحتها. ويتقدم عادة ذرية أبي حفص الصنهاجي، ثم فرسان بني عبد المؤمن، فأهل الجماعة، فطبقة الخمسين، ثم القبائل تتقدمها هرغة، فأهل تينملل، فكومية، ثم سائر الموحدين (ويأتي المراكشي بنص مهم يتعلق بالاستعراضات فيقول وبعد يومين من الكلام على البستا ن الجميل آمر بعرض العسكر اخد اسلحتهم وجلس في مكان مطل وجعل

العساكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة اثر كتيبة لاتمر كتيبة الى التي بعدها احسن منها جودة سلاح وفراهة خيل وظهور قوة فلما راى ذلك التفت الي وقال يابا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا ثمارك واشجارك ولما انتهى عبد المؤمن من غزو الأندلس، رجع إلى مدينة سلا، فضرب له خيمة على شاطئ وادي أبي رقراق، وجعلت العساكر تعبر الوادي أمامه في استعراض عسكري، قبيلة بعد قبيلة [104].

ومن عادة الموحدين، أن يرسل قائد الجيش، بعد المعركة، إلى الخليفة، فرسانا يدخلون عليه ببشرى النصر، ويحمل الخيالة بأيديهم أعلام الخصم الذي هزموه، وهم يصيحون فرحا بالتكبير والتهليل، ويضربون الطبول[105].

مسير الجيش الى المعركة :

بعد التأكد من الاستعدادات المادية والمعنوية يادن للجيش في الشروع في المسير ويكون في اغلب الحالا ت بعدصلاة الصبح قبيل شروق الشمس وكانت علامة السير فرع الطبول وكان السير عادة بعد صلاة الصبح قبل شروق الشمس.

وهو ما يؤكده المراكشي بقوله أن أول شي يصنعونه في أول النهار بعد صلاتهم الفجر يخرج من ينا ذي الا ستعانة بلله والتوكل عليه هذه عندهم الركوب فحينئذ يركب النا س ويخرج الخليفة من خيمته راكبا واعيان القرابة وأشياخ الموحدين بين ايديه مشاة خطوات كبيرة ثم يامرهم بالركوب.

ويقول صاحب الحلل في شان الركوب أيضا وادا تحركوا آن يقدموا أمامهم لواء ابيض مع عدد من الرجالة يكون بينهم وبين الأمير مقدار ربع ميل ويكون الا ميز متقدم على الناس خلف اللواء المذكور في جملة من يختص بهم ثم تتبعهم الآيات الكبار والطبول والعسكر المعروفين بالساقة ثم كل قبيل على ترتيب وحسن هيئة. وكان للجيش منازل معلومة معينة ينزلون بها وكانت للخليفة الموحدي دار تليق به ينزل بها.

الجوسسة

المقصود بها تكوين فكرة على العدو وذلك بالحصول على معلومات تتعلق بمكن المعركة وإمكانيات العدو وخططه وأساليبه في الحرب وكان عبد المؤمن بن عل مؤسس الدولة يعطي للجوسسة دور مهما في خططه العسكرية فهو لم يلتقي مع قو خصمه الابعد معرفة الكثير عنه وعن عادته وتقاليده وطرق مسيره وقتا وإستراتيجيته العسكرية.

لذالك كان يبعث بسرايا استطلاعية لترصد أحوال العدو ثم تعود با خبا ومعلومات خاصة ما يتعلق بالإمكانيات الما دية له ويختار من رجاله من يكون ثقة

والى جانب الجوسسة عرف الموحدون البريد الحربي والشخص المكلف به يدعى الرقاص يكون اختياره من الرجال الا قوياء المدربين على الركض وكان يجد في كل محطة حصانا مسرجا يمت طيه الى محطة تليها ويكلف بنقل المعلومات المتعلقة بالمعركة الأسلحة وأنواعها تميز الجيش الموحدي باتخاذه أسلحة كثيرة ومتنوعة ويختلف عددها وأنواعها با اختلاف المراحل التا ريخيةالتي مرت بها الدولة.

ففي المرحلة الأولى اقتصرت على الا سلحة الخفيفة مثل الرماح والدرق ولع السبب فيها آن القوة الموحدية لم تكن كبيرة وكانت دفاعية بالدرجة الأولى مه يجعلها تقتصر على هذه الا سلحة ثم ازدادت الا سلحة بفضل الا انتصارات التي حققت من قبل الجيش المحدي بعد قيا م الدولة.

ومن هذه الا سلحة القوس والسهم ويعتبر من أهم أسلحة الجيش الموحدي بحيث نجد فرقة مت خصصة في الرماية وهي تاتي بعد فرقة الحاملين للحراب والسيوف من جيش المشاة.

ومن الأسلحة الرمح أصغرها يدعى الحربة ويذكر صاحب الحلل في الجيش الموحدي أصحاب الحراب أد يوضع حاملها في الصفوف الأولى وهي حراب طويلة تصل الى إحدى عشر قدما تعرف أيضا باسم الامرؤاس ويحملونها بايديهم وارجلهم وعن الهجوم يلقونها في وجه أعدائهم بالقوة واشهر الرما ح الرماح الخطية.

كما يوجد السيف الذي يعد من اشهر الا سلحة في العصور السطى وان كانت خطة القتال لتبدا بالتراشق بالسهام.

وادا رجعنا الى المعارك التي خاضها عبد المؤمن يتجلى لنا انه وضع اصحاب السيوف في الصفوف الأولى ثم الرماة في الصفوف التي تليها ولعل اشهر السيوف المستعملة من قبل الموحدين السيوف المشرقية؛ كما استعمل الموحدون الذراع وهي من أهم وسائل الدفاع تستعمل للوقاية الشخصية وبها يقاتل صاحبها امنا والدرع هي عبارة عن قميص ينسج من حلق حديدية وهي نوعان سابغوة وبتراء.

الترس اوالدرق وهما من الالآت الدفاعية وتسمى كدلك المجن وعرفت تطور كبير في طريقة صنعها وكانت تصنع من درق السلا حيف الكبيرة ثم صنعت من الوا ح الخشب خا صة الصفصاف وقد أشار الى ذلك الشيخ عبد الرحمان الثعالبي عندما أوصى السكان بصنعها من شجر الصفصاف واستعمالها ضد الغزات من المسيحين الدين سيها جمون المدن الساحلية ومنها بجاية والجزائر انتقاما لسقوط القسطنطينية وهذا ما حدث فعلا إثراء الحما لات الصليبية الا سبا نية على سوا حل المغرب في بداية القرن السا دس عشر، ومن أهم ملاحق الدروع المغافر والبضات.

وهناك أسلحة أخرى استعملت من قبل الجيش الموحدي منها المنجنيق الدي استخدمه عبد المؤمن بن علي في فتح المهدية سنة555.1160والدبابة التي استعملها في فتح مراكشي وتكون هذه الالة في اغلب الحالات مرافقة للمنجنيق كم استعمل سلم الحصار الدي كان له الدور الا كبر في اعتلاء الا سوار واقتحام الحصون.

الحيوانات المسخرة للمعرك :

من أهم الحيوانات التي لعبت دورا مميزا في ميدان معارك الموحدين الخيول وكان الحصان من أهم وسائل القتال لقدرته على المناورة والتنقل السريع في الميدان ومصدر تلك الخيول من أفريقية وتلمسان وهي مدربة تدريبا جيدا على القتال ويختارون المسومة منها :

الإبل كانت الإبل من أهم المواشي المستعملة في الحروب وكانت تستعم
كمصاف خلف الجيش كما تستعمل في نقال المؤونة.

الطبول

استخدم الموحدون الطبول وكانت في عهد عبد المؤمن بن علي كبيرة ويذكر
المراكشي أن جيش عبد المؤمن كان لديه اكثر من ماتي طبل في نهاية الكبر زيادة
على وجود فرقة خاصة تعرف بفرقة الطبالة وقراد الا هتمام بالطبول في عهد
الخلفاء الذين جاءوا بعده لكثرة الجند لديهم واشتداد المعرك بينهم وبين أعدائهم
خاصة في الا ندلس واستخدام الطبول في حربهم الهدف من ورايه إرهاب العدو.

الأيات

اتحد الموحدون الاعلام وارايات التي كان لها شانا كبيرا في الحرب وفي هذا
الصدد اورد ابن القطان نصا يتعلق بالموضوع منها قوله وادا تحركوا أي الموحدون
يقدموا أمامهم لواء ابيض مع عدد من الرجالة ثم تتبعهم الرا يات الكبار والطبول
وامارايته المنصورة المتقدمة بين يديه ففي أحد وجهيها مكتوب الواحد الله محمد
رسول الله المهدي خليفة الله وفي الوجه الثاني وما من اله الى الله وافوض امري لله
وقد بلغت راية الجيش الموحدي مائة راية مابين بنود ولوية.

السلاح :

ورث الموحدون الأسلحة من المرابطين، ثم أضافوا إليها، واقتبسوا كذلك من
الأندلس.

ووسع الموحدون صناعة أسلحتهم، إذ ذكر " السلاوي " أن عبد المؤمن لما أراد
غزو بلاد الإفرنج سنة 557 هـ : « نظر في سجلات الخيل للجهاد والاستكثار من
أنواع السلاح والعدة، وأمر بضرب السهام في جميع عمله، فكان يضرب له منها في
كل يوم عشرة قناطير حديدية، فجمع له من ذلك ما لا يحصى كثرة » [106].

وروى " ابن أبي الزرع " أن عبد المؤمن قبل وفاته أمر بصناعة النبال بكثرة، وقد وصل إنتاجها إلى عشرة قناطر في اليوم[107].

وقال " ابن صاحب الصلاة " : « صنع الصناع لأمير المؤمنين سنان رمح بسنانين اثنين متصلين، في سعة السيف لكل واحد منها » وذلك سنة 563 هـ [108].

فكان لجيش الموحدين أسلحة وآلات حربية متنوعة، تعرض لها الكثير من المؤرخين[109] ؛ وأهمها كما يأتي :

أ - الأسلحة الفردية :

- السيوف المختلفة، منها الهندية، والمغربية والأندلسية.
- الأقواس، والسهام أو النبال.
- الحراب، والرماح القصيرة والطويلة.
- الأمراس : وهي حراب طويلة يبلغ طولها اثنا عشر قدما، يستخدمها المشاة.

ب - اللباس الحربي :

- سروج الخيل ولجامها.
- الدروق اللمطية : لباس حربي خفيف، استعمله المرابطون قبل الموحدين.
- العفائر، والأتراس، والدروع ؛ وهي ألبسة حديدية واقية.
- البيضات الحديدية : وهي الخوذة التي توضع على الرأس.

استخدم الموحدون الألبسة الحديدة لقوات الحرس الخاص [110]، وقد وصف ذلك " ابن صاحب الصلاة " بقوله : « لبسوا على ما تقدم لهم السوابغ والأبدان، وتقلدوا الصفائح والقضبان، وتنكبوا القسي والمران » [111].

ج - آلات الحصار :

- السلالم والأبراج : تتخذ لتسلق الأسوار، وقد استعملها الموحدون في فتح مراكش، وتلمسان [112].
- المنجنيقات : آلات ضخمة، استعملها عبد المؤمن في دك أسوار المهدية عام 553 هـ [113].

- الدبابات الخشبية : تشحن بضروب من السهام، وقد استعملها يعقوب المنصور في فتح مدينة قفصة[114].

- العرادات أو الحرقات : آلات تقذف بها كتل صغيرة من الحجارة، وكرات حديدية ملتهبة.

د - الوسائل المرفقة :

- الرايات : اتخذ الموحدون الراية البيضاء شعارا لجيوشهم، عكس الراية السوداء التي كانت للمرابطين، وكتب الموحدون على رايتهم : « الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله »، وكتبوا : « وما من إله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله وأفوض أمري إلى الله».

وفي عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن اختار الموحدون : «الحمد لله وحده » [115].

- الطبول : استخدم الموحدون الطبول المختلفة الأحجام والأشكال، للإعلان عن بدء المعركة، أو الانتصار، أو الانسحاب والرحيل، وكانت الطبول توضع في مؤخرة الجيش، وهي في نهاية الكبر وغاية الضخامة [116].

أورد "بورويبة"، أن أثناء الغزوات، كان جيش الموحدين يشرع في السير بعد صلاة الصبح، وكان الاستيقاظ بواسطة طبل مستدير الشكل، دوره خمسة عشر ذراعا (أي يبلغ قطره أكثر من 2.30 م)، وكان هذا الطبل مصنوعا من خشب أخضر اللون مذهب، ويسمع على مسافة نصف يوم [117].

وعن "المراكشي" أن عبد المؤمن في العرض الذي قام به بتاجرا «هزت أكثر من مائتي طبل يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز، ويحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها» [118].

4 - البحرية عند الموحدين :

استخدم الموحدون عند قيام دولتهم السفن التي استولوا عليها من المرابطين وبني حماد، ولكن حرص الموحدين على مجال التفوق البحري، وحراسة السواحل

من الغزو الصليبي، لا سيما في الأندلس، جعل عبد المؤمن بن علي يقوم بإنشاء أسطول قوي وضخم [119].

قال " ابن صاحب الصلاة " : « إن أمير المؤمنين عبد المؤمن أضمر غزوة كبرى، فأمر بإنشاء القطائع في سواحل العدوة والأندلس، فصنع للروم بجزيرة الأندلس زهاء مائتي قطعة، أعد منها في مرسى المعمورة بحلق البحر على وادي سبو، وبمقربة سلا مائة وعشرين قطعة، وقفت عليها، وعددتها بالمرسى المذكور ؛ وأعد باقي العدد في أرياف العدوة والأندلس ؛ وأمر بكتب الرجال والرؤساء والأبطال لعمارتها، والقيام بحمايتها، والنظر في آلائها» [120].

وذكر "ابن أبي زرع" : «أن عبد المؤمن أمر سنة 557 هـ بإنشاء الأساطيل في جميع بلاده، وعزم على غزو بلاد الروم في البر والبحر ؛ فأنشأ أربعمائة قطعة ؛ منها في حلق المعمورة ومرساها مائة وعشرون قطعة؛ ومنها بطنجة وسبتة وباديس، ومراسي الريف مائة قطعة ؛ ومنها ببلاد إفريقية ووهران، ومرسى هنين مائة قطعة ؛ ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة» [121].

وكانت السفن التي صنعها الموحدون على نوعين، منها ما يستخدم لنقل الجند والمؤن، ومنها ما هو سفن حربية. فأورد " ابن الأثير " أن عبد المؤمن زحف إلى المهدية بأسطول بحري، فيه سبعين سينيا وطريدة وشلندي، وضرب عليها حصارا سنة 554 هـ (1160 م) إلى أن استسلم أهلها [122].

وتمثلت أهم السفن كالتالي [123] :

- المراكب والزوارق الصغيرة.
- الغرابين : سفن من النوع القديم.
- الحرّقات : سفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو.
- الطرائد : سفن صغيرة وسريعة تستعمل لمطاردة العدو.
- المسطحات : سفن كبيرة تجري وراء السفن الصغيرة لإنقاذها في حالة الخطر.

- الشلنديات : سفن تحمل المنجنيقات التي ترمي بالنفط المشتعل على العدو.

- الشوان : سفن ضخمة تتكون من عدة طبقات، تنصب عليها أبراج الدفاع.

وإلى جانب ذلك، اهتم الموحدون بتدريب الجند على ركوب البحر، والقتال فيه، وقيادة السفن، وكان من كبار قادة البحرية في عهد عبد المؤمن: الأمير علي بن عيسى بن ميمون، وقد قال فيه " ابن خلدون " : « أن عيسى بن ميمون نزع طاعة لمتونة وانتزى بجزيرة قادس، فلحق بعبد المؤمن بمكانه في حصار فاس، ودخل في دعوته، وخطب له بجامع قادس، وهي أول خطبة للموحدين بالأندلس سنة 550 هـ » [124].

وكان من قادة البحرية أيضا عبد العزيز بن ميمون، وعبد الله بن سليمان، وأبو الحسن الشاطبي [125]، وأحمد الصقلي الذي ذكره " ابن خلدون" بقوله : « لما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين، أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد. وكان قائد أساطيلهم أحمد الصقلي»[126].

لقد سيطر أسطول الموحدين على سواحل المغرب كله والأندلس، وساهم في إخضاع مدنها لطاعتهم. ومن مظاهر قوة الموحدين في مجال البحرية، روى "المراكشي" : « أن ملك صقلية وليام الثاني صالح الخليفة يوسف أبا يعقوب، وأرسل إليه بالأتاوة، بعد أن خافه خوفا شديدا ؛ فقبل منه يوسف ما وجه إليه، وهادنه على أن يحمل إليه كل سنة مالا اتفقا عليه» [127].

ولما أحرز أسطول الموحدين تفوقا بارزا، وانتصارات كبيرة في كثير من المعارك البحرية بالأندلس، ضد حملات الصليبيين الذين استهدفوا المسلمين [128]. فقد حاول صلاح الدين الأيوبي أن يستنجد به، فأرسل سنة 585 هـ / 1190 م سفارة برئاسة عبد الرحمن بن منقذ إلى الخليفة المنصور، يطلب إمداده بالسفن الحربية لتحول بين أساطيل الصليبيين وإمداد النصرانية بالشام، حيث روى " ابن خلدون " : «وامتعضت أمم النصرانية من كل جهة، واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر، فبعث صريخه إلى المنصور سنة خمس وثمانين يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكا، وصور، وطرابلس» [129].

الهوامش

1- عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر، ، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1968، ج 6، ص 560.

2- M .Kaddache : l'Algerie medievale ,S.N.D, Alger ,1982 ,pp 114-115.

3 - ابن خلدون، نفسه، ص 469.

4 - Henri Terasse : Histoire du Maroc ,Edi : abregee ,Paris 1952 ,P.88 .

5 - ابن خلدون، نفسه، ص 470.

- توفيق مزاري عبد الصمد : " التنظيمات العسكرية المغربية في عهد المرابطين والموحدين "، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، عام 2000، ص 72 - 73.

6 - ابن خلدون، نفسه، ج 6 ص 469 - 470.

7 - أبو الحسن علي بن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1936، ص 123.

8 - عز الدين بن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت 1980، ج 8، ص 298.

9 - عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1949، ص 340.

10 - أحمد السلاوي : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج 2، ص 140.

11- Terasse ,op ,cit .P .88.

12 - ابن خلدون : العبر، ج 6، ص 477.

13- R .Bourouiba : Abdel-Mumin ,S.N.E.D, Alger ,1974 ,P .70 .

14 - ج ف ب هوبكنز : النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، الدار العربية للكتاب، تونس 1980، ص 149.

15 - ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية، الرباط، 1941، الرسائل 20، 11، 16.

16 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 65.

17 - عبد المالك بن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين، دار الأندلس، بيروت، 1964، ص 418 / 507.

18 - ابن خلدون، العبر، ص 58.

19 - ابن الأثير، نفسه، ج 8، ص 301.

20 - الحلل الموشية، ص 114.

21 - هوبكنز : النظم الإسلامية، ص 146.

22 - ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 161.

23 - هوبكنز، نفسه، ص 150 / 151.

24 - ابن خلدون : العبر، ج 6، ص 291.

25 - بروفنسال : رسائل موحدية، الرسالة الحادية والثلاثون.

26 - المراكشي : المعجب، ص 288.

27 - نفسه : ص 315.

28- ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 135.

29 - أبو بكر البيذق الصنهاجي : أخبار المهدي بن تومرت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 117.

30 - ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 16.

-Bourouiba : Abdel-Mumin ,P .70 .

31 - ابن أبي زرع، نفسه، ص 152.

32 - عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر 1971، ص 257.

33 - أبو الحسن علي بن القطان : نظم الجمان في أخبار الزمان، مطبعة المهدية، الرباط، ص 27 / 28.

- أنظر أيضا : المراكشي، المعجب، ص 18.

34 - صالح بن قربة : عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991، ص 68 / 69.

35 - لسان الدين محمد بن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص 268/267.

36 - ابن أبي الزرع : روض القرطاس، ص 123.

37- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 8، ص 298.

38 - ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 498.

39 - ابن القطان، نظم الجمان، ص 30 - 33.

40 - المراكشي، المعجب، ص 18.

- رشيد بورويبة : ابن تومرت، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 95.

41 - علام، الدولة الموحدية، ص 158.

42 - لسان الدين محمد بن الخطيب : رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس 1366هـ، ص 57.

43 - أبو العباس أحمد القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة 1914، ج 5، ص 173.

44 - محمد بن عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة التأليف، القاهرة 1964، ص 632.

45 - علام : الدولة الموحدية، ص 258.

46 - بروفنسال : رسائل موحدية، الرسالة الثانية عشر، ص 53 - 54.

47 - ابن قربة : عبد المؤمن، ص 76.

48 - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، دار النفائس، بيروت 1967، ج 4، ص 370.

49 - السلاوي : الاستقصا، ج 2 ن ص 136.

50 - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، 1984، ج 1، ص 327.

51 - القلقشندي : صبح الأعشى، ج 5، ص 138.

52 – ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 215.

53 – شارل اندري حوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية. الدار التونسية للنشر، ج 2، ص 162.

54 – يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، مؤسسة الخانجي، القاهرة 1958، ص 488.

55 – ابن صاحب الصلاة : نفسه، ص 215.

56 – ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 65.

57 – احمد بن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت 1967، ج 4، ص 141.

58 – ابن صاحب الصلاة، نفسه، ص 150.

59 – علام : الدولة الموحدية، ص 263.

60 – عنان : عصر المرابطين والموحدين، ص 638.

61 – عبد الحق المريني : الجيش المغربي عبر التاريخ، الرباط، 1967، ص 24.

62 – الهيثم الأيوبي : الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص 610.

63 – ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 498.

64 – نفسه، ص 293.

65 – نفسه، ص 206.

66 – القلقشندي : صبح الأعشى، ج 5، ص 139.

67– ابن صاحب الصلاة، نفسه، ص 525.

68 – مزاري عبد الصمد : التنظيمات العسكرية، ص 59.

69 – ابن القطان : نظم الجمان، ص 81. 88.

70)- Abdallah Laroui : Histoire du Maghreb ,Paris 1976 ,P.163.

71 – بورويبة، ابن تومرت، ص 45.

72 - Bourouiba : Abdal Mumin ,pp. 19-23.

73)– ابن خلدون : العبر، ج 6، ص 472. 480.

74)- Bourouiba : Adbal Mumin ,pp .71 - 72 .

– ابن قربة : عبد المؤمن، ص 20 / 36.

75– ابن خلدون، نفسه، ج 6، ص 483 – 496.

76 – نفسه، ص 496 – 504.

77 – ابن خلدون، نفسه، ص 504. 514.

78 – عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ج 2، ص 302. 306.

79 – شهاب الدين المقري : نفح الطيب، دار صادر، بيروت، 1987، ج 4، ص 384.

80 – ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 515. 537.

81 – نفسه، ص 538. 546.

82 - مزاري عبد الصمد : التنظيمات العسكرية، ص 36 - 44.

83 -ابن خلدون، نفسه، ص 470.

84 -ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 134.

Bourouiba : Abdal-mumin ,p .71.

85 -ابن خلدون، نفسه، ص 496.

Bourouiba ,ibid .p .71 .

86 -ابن خلدون، نفسه، ص 493.

87 - مزاري عبد الصمد : التنظيمات العسكرية، ص 115/ 116.

88 - ابن خلدون، نفسه، ص 471.

89 - السلاوي : الاستقصا، ج 2، ص 136.

90 - الحلل الموشية، ص 61.

91 -ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 63.

92 -ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 132.

93 -ابن عذاري : البيان المغرب، ج 4، ص 239.

94 -ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 184.

95 -أشباخ : تاريخ الأندلس، ص 491.

عبد العزيز بن عبد الله : الجيش المغربي عبر العصور، الرباط 1986، ص 49.

96 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج 3، ص 208.

97 - المراكشي : المعجب، ص 225.

98 - هوبكنز : النظم الإسلامية، ص 157.

99 - ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 357.

100 -ابن القطان : نظم الجمان، ص 84.

101 - نفسه، ص 242.

102 -البيذق : أخبار المهدي، ص 129.

103 -حركات : المغرب عبر التاريخ، ج 1، ص 328.

104 -المريني : الجيش المغربي، ص 25.

105 -ابن صاحب الصلاة، نفسه، ص 275.

106- السلاوي : الاستقصا، ص 143.

107- ابن أبي الزرع : روض القرطاس، ص 127.

108- ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 351.

109- المراكشي : المعجب، ص 207.

- Bourouiba Rachid : Abdel-Mumin ,P .72 .

- رشيد بورويبة : عبد المؤمن، ص 47.
- مزاري : التنظيمات العسكرية، ص ص146 - 147
110- أشباخ : تاريخ الأندلس، ص 489.
111- ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 435.
112- أشباخ : تاريخ الأندلس، ص 491.
113- القيرواني : المؤنس، ص 111.
114- المريني : الجيش المغربي، ص 25.
115- ابن خلدون : ج 06، ص 497.
116- المريني : الجيش المغربي، ص 24.
117- بورويبة : عبد المؤمن، ص 47.
118- المراكشي : المعجب، ص 232.
119- المريني : الجيش المغربي، ص 24.
120- ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص 214.
121- ابن أبي الزرع : روض القرطاس، ص 131.
122- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ،ج 09، ص 63.
123- مزاري : التنظيمات العسكرية، ص 243.
124- ابن خلدون : ج 06، ص 486.
125- حركات : المغرب عبر التاريخ، ج 01، ص 330.
126- ابن خلدون، ج 01، ص 452.
127- المراكشي : المعجب، ص 252.
128- العبادي : تاريخ البحرية، ص 264.
129- ابن خلدون، ج 06، ص 514.

4

الجيش الزياني والعثماني

الجيش الزياني

مقدمة :

تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول التي قامت على أرض الجزائر مثل الدولة الرستمية والدولة الحمادية لكن تاريخها العسكري لم يدرس في السابق دراسة أكاديمية مثلها مثل بقية الدول المغربية الأخرى لأن التركيز كان مقتصرا على الجانب السياسي ماعدا ما كتبه الأستاذ : بوزياني الدراجي، إلا أن عمل هذا الأخير لم يكن دراسة عامة بل اقتصر فيه على الفصل السادس من رسالته فقط وحتى الأستاذ الدكتور : عطاء الله دهينه درسه ضمن النظم الإدارية لبلدان المغرب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي ولعل من أبرز ما يميز التاريخ العسكري لهذه الدولة موقعها الاستراتيجي بين دولتين معاصرتين لها تريد السيطرة على أملاكها وضم أراضيها لها.

كما أن القبائل المتواجدة في محيطها كانت في أغلب الحالات تتحالف مع أعدائها ضدها.

ولذلك فمجتمعها لم يكن متماسكا، لذا كثيرا ما كان يستغل من طرف أعدائها تستغله في حالة هجومها عليها وهذه سمة المراحل التي مرت عليها من تأسيسها إلى سقوطها.

وهذه الوضعية جعلت من الدولة الزيانية دولة عسكرية بقاؤها مرتبط بمؤسساتها العسكرية[1].

فالسؤال الذي يطرح من قبل الباحث في هذا الموضوع ما هي نقاط القوة والضعف بالنسبة لهذه المؤسسة ولكي نجيب على السؤال يجدر بنا تناول إدارة هذه المؤسسة.

الإدارة المركزية :

فالدارس لتاريخ هذا الجيش يلاحظ أن الإدارة المركزية كانت تتمثل بالدرجة الأولى في ديوان الجند وهو بمثابة وزارة الدفاع حاليا وصاحب الديوان يسمى كاتب العسكر فهو يختص بتعداد أفراد الجيش وتصنيف تخصصاتها حيث يكلف بفتح ملف أو سجل يسجل فيه أسماء أفراد الجيش العامل بهذه المؤسسة [2] ويبدوا أن التصنيف يتطابق مع الذي ورد ذكره في كتاب واسطة السلوك للسلطان أبو حموا موسى الثاني.

ومما يؤكد وجود كاتب العسكر ما أشار إليه يحي ابن خلدون حين وصف الاستعراض العسكري الذي نظم تحت رعاية السلطان أبو حموا موسى الثاني فقال في شأنه: «وحدق الكتبة بين يديه الكريمتين بحضور جنود القبائل والشعوب منها الرامح والنابل فكان حساب الجميع أربعة عشر ألف» [3].

وقد ورد لأول مرة ذكر كاتب العسكر في عهد يغمراسن بن زيان بعد ما سكتت المصادر عن ذكره بعد ما عاد رواية يحي ابن خلدون السابقة ويبدوا لي أنها أدمجت ضمن وظائف صاحب الأشغال لأهميتها الذي خصص لها موصفون يعملون تحت سلطته لأنه هو المكلف بالإشراف على أموال الدولة وكل أنشطتها الإدارية.

ويظهر من مصادر الدولة أن الإدارة المحلية كانت هي الأخرى تشرف على الجيش في الولايات لأنها إدارة عسكرية بالدرجة الأولى وتسير من قبل قادتها العسكريين الذين سبق لهم تولي قيادة الجيش مثل مسامح مولى السلطان أبو حموا

موسى الأول الذي استعمل على عمالة مغراوة والهدف من التعيين قمع هؤلاء لتحالفهم مع القوى الخارجية المعادية لها.

وما يقال عن مغراوة ينطبق على شلف [4] التي تسيطر على جزء هام من القبائل الأمازيغية والعربية وكان على رأسها يحيى بن موسى وهو من القادة العسكريين ونفس الشيء بالنسبة لمليانة والمدية ووهران وهي من أمصار الدولة[5].

فهذه التعيينات مرتبطة بأوضاع الدولة التي لم تعرف الاستقرار منذ تأسسيها إلى سقوطها مما جعل سلاطينها يختارون لتسييرها قادة عسكريين ليضمنوا طاعة هؤلاء لهم وأن جزءا من الأموال التي تجمعها تلك الإدارة تصرف على الجيش[6].

تركيبة الجيش الزياني

إن تشكيل الجيش الزياني لا يختلف عن الجيوش المعاصرة له من حيث كيفية حشد القوة العسكرية.

فذكر عبد الرحمان بن خلدون «أن حشد القوة العسكرية بلغ في بداية عهد الدولة ألفا بينما وصل الجيش المريني إلى ثلاثة آلاف» [7].

لكن الباحث في تاريخ بني زيان يلاحظ أن الحشود العسكرية قد ازدادت بزيادة القبائل الموالية لها منذ عهد يغمرا سن الذي جاء بالقبائل العربية من خارج محيط الدولة فاقطعها الأرض ثم إدخلها في الجيش وبذلك زادت تلك الحشود في عهد السلطان أبو حموا موسى الأول وأبو تاشفين الأول [8].

فالأول حشد أربعة فرق عسكرية في آن واحد وجهها لأراضي الدولة الحفصية وزاد الأمر في عهد ابنه حيث ذكر يحي بن خلدون أنه جند مجموعة من الفرق العسكرية [9].

وفيما يتعلق بعناصر الجيش الزياني فانها تتألف من القبائل الأمازيغية والعربية والعناصر المسيحية والأكراد [10].

القبائل الأمازيغية :

من أبرز القبائل المشاركة في الجيش الزياني قبيلة بني عبد الوادي وهذا منذ بداية حياة الدولة والعدد الذي ذكره ابن خلدون فيما سبق هم من عصبية القبيلة ثم انضمت إلى هؤلاء القبائل الأمازيغية الأخرى التي تحالفت معها في بعض المراحل التي مرت بها الدولة مثل قبيلة هوارة وقبيلة بني راشد وفي بعض الفترات بنو توجين [11].

القبائل العربية :

سبق القول أن دخول القبائل العربية ضمن الجيش الزياني يرجع إلى عهد يغمرا سن الذي حاول من خلالهم ضرب المعارضة التي تشكلت من قبائل زناتية إلا أن هؤلاء موالتهم لم تكن مضمونة باستمرار وسنتعرض لهذا بالتفصيل في موضوع الاستراتيجية العسكرية للدولة الزيانية [12].

العناصر المسيحية :

تؤكد المصادر التي رجعنا إليها تواجد هؤلاء في بلاط بني زيان في أغلب المراحل التي مرت بها الدولة وتحدد حتى الرواتب التي كانوا يتحصلون عليها [13].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تولوا قيادة الجيش مثل ما حدث في عهد السلطانين أبو حموا موسى الأول وابنه أبو تاشفين الأول حيث تولاها مسامح وهلال القاطالوني.

ويعلل ابن خلدون اعتماد هؤلاء على الجنود المرتزقة التي لم تكن مقتصرة على بني زيان بل شملت أغلب دول المغرب الإسلامي «احتاج ملوك المغرب جندا من هذه الأمة المتعودة الثبات في الزحف وهم الإفرنج يرتبون مصافيهم المحدق بهم هذا على ما فيه من الاستعانة بجند الكفر وإنما استخفوا ذلك للضرورة تخوفا على مصاف السلطان والإفرنج لا يعرفون غير الثبات لأن عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم على ذلك من غيرهم»[14].

يتجلى من النص أن النصارى يختلفون عن المغاربة وخاصة الدول التي تأسست على أساس العصبية القبلية ولم تدخل مرحلة التقدم كالدولة الزيانية في مراحلها الأولى فكانت تستعمل بالدرجة الأولى الغارات الخاطفة على القبائل المعادية لها دون اللجوء إلى المواجهة المباشرة التي تعتمد على أسلوب رص الصفوف والثبات في المعركة عكس تلك القبائل التي تعمد إلى الإنسحاب في حالة الهزيمة [15].

يضاف إلى ذلك أن أمراء الدولة لم تكن لهم ثقة في القبائل المتحالفة معهم التي تتغير مع تغير الظروف السياسية من التحالف إلى العداء مثل ما هو الحال بالنسبة لمغراوة وبني توجين وحتى القبائل العربية من رغبة وسويد وحصين.

الأكراد :

وما يقال عن الإفرنج ينطبق على الأكراد الذين اعتمد عليهم بنو زيان ويرجع ذلك حسب ما أورده ابن خلدون من قوله «أن الترك في قتالهم مناصلة بالسهام ولايعنيهم الحرب عندهم بالمصاف وأنهم ينقسمون إلى ثلاثة صفوف يضربون صفا وراء صفا ويترجلون عن خيولهم ويضعون سهامهم بين أيديهم ثم يتناصلون جلوسا وكل صف وراء الذي أمامه» [16].

يتضح مما سبق أن بني زيان استعملوا عنصرين هامين في قوتهم العسكرية هم النصارى والأتراك لمحاولة تحقيق النصر على أعدائهم لكن يبدوا لي من خلال تتبع مراحل حياة الدولة أنهما لم يضمنا لها الانتصار وهو ما دفع بالدولة إلى محاولة استعمال العبيد من السودان لكثرة عددهم في أسواق الدولة وانخفاض أجورهم زيادة على استعمال الحشم.

هذا فيما يتعلق بالتقسيم المعمول به في مراحل حياة الدولة على العموم لكن السلطان أبو حموا موسى من خلال تناوله لموضوع عناصر الجند قسمه إلى أربع عناصر الخاصة القبيل الأنصار الأحلاف والمماليك.

القبيل : الذين ينسبون لبطون بني عبد الوادي وهم العنصر الأساسي في قوة الدولة خاصة مراحلها الأولى قبل ضعف العصبية القبلية.

الخاصة : يختارون من القبائل الحليفة وهم يمثلون جهاز الشرطة العسكرية.

الأنصار : بمثابة الحرس الجمهوري فهم المحيطون بالسلطان يلازمونه في الحل والترحال وهم القوة الضاربة للجيش العبد الوادي بواسطتهم يكبح المتمردين من القبائل.

الأحلاف والمماليك : المقصود هم النصارى الذين كانوا يعملون ضمن الجيش الزياني بعضهم عبيد جاءوا من الدول الأوروبية.

العطاء :

يربط ابن خلدون قوة الجيش بكثرة العطاء وفي هذا الصدد يقول «تحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء».

ففيما يتعلق بالدولة الزيانية نجد صعوبات كبيرة لدراسة موضوع الجباية المالية لانعدام استقرارها ولعل هذا هو الذي دفع بسلاطينها إلى الإقطاع فكانوا يقطعون أراضي الدولة مقابل الخدمة العسكرية مما جعل مساحة شاسعة من أراضيها تتحول لصالح تلك القبائل واستمر هذا الوضع حتى سقوطها حيث نجد مجموعة من النوازل أوردها المزوني تتعلق بالجند في عصره.

وعلى الرغم من قلة الموارد المالية فان السلطان أبو حموا موسى الثاني حاول توزيعها على النحو التالي:

«يكون مرتبات الجيش في العطاء بثباتهم وشجاعتهم وسابقتهم للخدمة واصطناعهم ومحبتهم وانقيادهم واجتهادهم فهؤلاء أهل الطالعات والمجابئ والبلادي وهم القبيل والحماة والأنصار والأجناد ما عادا المماليك المنقطعين فان جرايتهم في المرتب مشاهرة وارتزاقهم من بيت المال مباشرة جريا على توالي

الشهور وهم عندك في جرايتهم على قدر طباقتهم. فأصحاب البلاد يجنونها في أوقات معلومة على حسب على ما هي عندهم مقسومة وذالك بقدر ما يقيم أولادهم ويصلح أصلهم وولدهم وخيلهم وعددهم ثم تنفد أحوالك جهد استطاعتك ليستمروا على خدمتك وطاعتك لان من فرط في جيشه خدم عدوه ومن تحفظ به فلا يجد العدو سبيلا إليه».

من خلال ما سبق يتضح لنا أن المرتزقة من النصارى الذين استخدمهم بنو زيان منذ عهد يغمرا سن كان يأتي بهم من الدول الأوروبية وتحدد رواتبهم حسب المعاهدات التي أبرمت بين بني زيان وهذه الدول تدفع أجورهم خلال شهور السنة من بيت مال المسلمين ويبدوا لي أنهم كانوا يأخذون علاوات أخرى عندما يحققون انتصارات يحصلون عليها من الغنائم وهؤلاء يشكلون جزءا من القوة النظامية للدولة. وما يقال عن هؤلاء ينطبق على الأكراد الذين عملوا ضمن القوة الزيانية.

أقسام الجند :

المتتبع للتاريخ العسكري خاصة في عهد السلطان أبو حموا موسى الثاني الذي عاصره ابن خلدون يؤكد أن القوة الزيانية كانت تنسحب من المعركة ولا تجد مؤخرة تحميها في حالة انسحابها مما يتسبب في خسائر كبيرة من الأرواح يلاحظ أيضا أنها لم تقسم جنودها إلى أقسام في شكل كر أدس يسوون في كل كردوس صفوفه بل نجد مصطلح العسكر أو فرقة يقودها قائد من قادة الدولة.

فقد ذكر ابن خلدون أن أبا حموا موسى الأول عقد لابن عمه محمد بن يوسف على عسكر ولمولاه مسامح على عسكر آخر وأمرهم بحصار بجاية [17].

وأما جمع القوة وتنظيمها أثناء المعركة فقد اتبع فيها بنو زيان نفس الأسلوب المتبع من طرف الجيوش الإسلامية الأخرى فكانوا يقسمون العساكر جموعا ويضمون المتعرضين بعضهم لبعض ويرتبونهم قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربعة ويسمون هذا الترتيب التعبئة فيجعلون بين الملك عسكرا منفردا بصفوفه متميز بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة.

ثم عسكر آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك ويسمونه الميمنة ثم عسكر آخر من ناحية الشمال يسمونه ميسرة ثم عسكر آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة وهو ما ينص عليه أبو حموا موسى الثاني فيقول «فتجعلهم على قسمين قسم يلي الميمنة وقسم يلي الميسرة ويكون قتال كل قسم من هذين القسمين الذين في الجهة مستندا لمن خلفه من الميمنة والميسرة وأن الساقة هي قلب الجيش الزياني. إن الساقة لانقاد توازي الميمنة والميسرة فان القلب يقف في الجيش ويشدد ويصد العدو ويرعبه» وهو ما يؤكده أبو حموا موسى الثاني تجعل عليها من زعماء خاصتك الأمجاد وحاميتك الأسود الأفراد قائد عن يمينها وقائد عن يسارها فإذا انكسرت الميمنة والميسرة والساقة تثبت معه على حالها.

في نص آخر يتعلق بتعبئة الجيش يقول فيه رتب جيشك يوم الحرب واللقاء على أربعة أقسام ميمنة من حماة أجنادك وميسرة من كافة أجوادك ومقدمة من أبطال فرسانك وساقة من أسود شجعانك تقدم على كل واحد من الميمنة والميسرة قائدا فأما المقدمة فتقدم منهم فرسانا بين يديك ويكونون في نصر العدو ولو قصد لك من الأمجاد قبائلك الشجعان أهل دخلتك العارفين بالضراب والطعان وتقدم عليهم قائد من الأبطال وبعدها تقوم بتفقد القوة ثم تأمر الجيش بالانطلاق للمعركة.

الرايات:

إن الجيش الزياني مثل بقية الجيوش الأخرى كانت له رايات وهو ما يؤكده السلطان أبو حموا موسى الثاني في كتابه واسطة السلوك حيث تعرض إلى استعمال الرايات في الجيش الزياني[18].

وفي هذا الصدد يقول «والأغزار تنقسم إلى أربعة أقسام وصفان اعلاج أتراك تقدم لكل جماعة منهم قد يقتادون به ويكون لهم علم يتميزون به».

وأما ابن خلدون فقد ذكر هو الآخر الرايات فقال «عن جيوش زناته ومنهم بنو زيان التي تكون في الساقة التي تتبع السلطان[19].

وفي نص آخر يقول أبو حموا موسى الأول «يكون بين يدي جنودك الحراب عليها صغار الرايات من أنواع الحرم مغتنمات.

كما يقول أيضا «وإذا كانت رايات القلب تخفق وطبوله تزار كان ذلك حصنا وإذا لقيت عدوك في الحرب فاجعل رايتك أمامك».

لم تكن للجيش الزياني الرايات فقط بل استعمل الآلات الموسيقية خلال المواجهة أو عندما يتحرك السلطان بقوته وهو ما ينص عليه يحيى ابن خلدون بقوله «إن المولى أبو تاشفين الأول عندما ركب قرعت طبوله».

وفي نص آخر يقول «وفي ذلك اليوم رتب السلطان جيوشه وقرعت طبوله ونشر جنوده».

القادة :

إن الدولة الزيانية لا تختلف كثيرا عن الدول المعاصرة لها في اختيار قادة جنودها بالاعتماد على العصبية القبلية وخاصة المقربين من سلاطينها أومن ذوى الكفاءة في القتال وهو ما يتأكد من قول السلطان أبو حموا موسى الثاني «أن اختيارهم يستحسن للمالك أن يختار رجالا أنجاد أكفاء يكونون منشئين بين يديك لو ركبت ومنصرفين حيث أسرت يكون لهم ترتيب في الناس ويمتازون بذلك على سائر الناس ويتزينون بالأقبية الحسان المختلفة الألوان».

والقيادة العليا ترجع إلى السلطان تماشيا مع ما هو مألوف لدى الجيوش الإسلامية مع مساعدة أبنائه وبعض قادته كما حدث في عهد السلطان يغمرا سن في معاركه ضد المرينيين.

كما توجد قيادة الحاميات في الأمصار تمنح في اغلب الأحيان لبعض أفراد الأسرة والقبيلة فقيادة فرقة سجلماسة كانت لابن مكي من أفراد القبيلة وهو ابن ذراع ابن أخت يغمرا سن ويحيى بن يغمرا سن الذي قتل إثر استرداد سجلماسة من طرف بني مرين ويحيى بن مكي الذي استعمله يغمرا سن على حامية مستغانم ثم

عزله فانتقل إلى الأندلس للجهاد ومسعود بن ابر أهيم الذي تولى قيادة الجيش الزياني في عهد السلطان أبو حموا موسى الأول وكان من المقربين له محمد بن يوسف بن يغمر أسن الذي تولى قيادة الحامية الزيانية بمليانة أبو ثابت. تولى قيادة الجيش الزياني في عهد أخيه أبى سعيد كما أشرف أبناء السلطان أبو حموا موسى الثاني على قيادة القوة الزيانية.

لم تقتصر القيادة على أفراد الأسرة بل شملت عناصرا أخرى. وتذكر منها على سبيل المثال إبراهيم الابلي وهو من أصل أندلسي تولى القيادة العسكرية في عهد يغمرا سن على حامية هنين وبذلك تكون الدولة قد اعتمدت على العناصر الأندلسية في ميدان الجيش مثل ما كان عليه الحال في الإدارة.

ويبدوا لي جزءا من قوته في البداية كان من الجالية الأندلسية الذين لهم خبرة في هذا الميدان.

كما استعمل هؤلاء شيوخ القبائل الأمازيغية نذكر منهم على سبيل المثال يوسف بن حيون الذي تولى قيادة شلف ويحيى بن عطية من بني توجين تولى على المدية وسعيد التوجيني على قلعة بني سلامة.

الأسلحة:

استعملت القوة الزيانية الأسلحة التي كانت متوفرة في عصرها ومن بينها القوس والسهم اللذان لهما أهمية كبيرة في الحروب استمر استعمالها حتى نهاية الدولة الزيانية وهو ما يتجلى لنا من خلال الوثائق الإسبانية التي تعرضت للمعارك التي وقعت بين قوتها والدولة الزيانية كمعركة مستغانم. 1543..1547.1553

ومن الأسلحة الدفاعية الرماح وهذا يتجلى لنا من نص ابن خلدون يحي الذي أشار إلى فئة الرماة بالنبل والقوس في جيش السلطان أبو حموا موسى الثاني.

وهناك نصوص عديدة أوردها يحيى ابن خلدون تشير إلى استعمال الرماح وهو مايو كده أيضا أبو حموا موسى الثاني حين أوصى ابنه باتحاد فرقة من المشاة

المسلحين بالحراب يمشون أمامه.

ومن الأسلحة المستعملة السيف ومن أهم أنواعه السيف المستقيم الشائع استخدامه ثم حل محله السيف المقوس ذي النصل الواحد

الملابس :

من بين الذين تعرضوا لملابس الجيش الزياني الحسن الوزان فقال أما العسكر والقادة من ذوي الرتب العالية فيلبسون فوق الصدرية لباسا آخر ويضعون فوق المعطف قبعة كتلك التي كانت متصلة بالمعاطف لدى الإيطاليين.

وأما بقية الجند فكانوا في فصل الصيف يرتدون صدرية ذات أكمام عريضة تساعدهم على تسرب الهواء لا أجسادهم وتخفيف شدة الحرارة. وفي فصل الشتاء يلبسون كساء من الجلد ويضعون فوقه الصدرية أو الكساء ويلبسون وشاحا كبيرا من قماش القطن يلفونه ويلتحفون به وتغير الملابس بين فصل أخر يدل على طبيعة المناخ الذي تتميز به أراضي الدولة الزيانية.

الهوامش :

1 -بوزياني الدراجي: نظم الدولة الزيانية، رسالة ماجستير.

2 - بالنسبة لبني زيان ورد ذكر كاتب العسكر في عهد يغمرا سن انظر بغية الرواد. ج الأول تحقيق حاجيات. 1984

3 - يحيى بن خلدون بغية الرواد تحقيق الفريد بل ج 2 ص 182.181.

4 - ثم الى حوض شلف.

5 - ولاية شلف يبدوا لنا أن عاصمتها هيى مدينة شلف بغية الرواد ج 2 ص 230.

6 - تأسست الدولة الزيانية سنة 633 - 1233.

7 - ابن خلدون المقدمة ج 2 275.

8 - الإقطاع من بين المواضيع التي لإتزال في حاجة الى دراسة أثناء حكم بني زيان.

9 - يحي بن خلدون بغية الرواد ج 2 ص 236.

10 - بجاية إمارة تابعة لبني حفص لها نوع من الا ستقلالية بغية الرواد ج و1 ص 81.

11 - نفسه ج 2، ص 81.

12 - رسالتنا دكتوراه الدولة 2000 جامعة الجزائر ص 125.

13 - ابن خلدون المقدمةص 251.

14 - ابن خلدون العبر ج 7 ص 230.

15 - نفسه ج 7. 176.

16 - المقدمة ص 251.

17 - بغية الرواد ج 2 ص 251.

18 - واسطة السلوك ورقة 174.

19 - المقدمة ص 250.

الجيش الجزائري في العهد العثماني

التنظيمات الإدارية والعسكرية للجيش البري :

" الوجـــاق" الجيش البري :

من المعروف أن الجيش الجزائري النظامي في العصر الحديث قد نشأ من قوة مشتركة جزائرية عثمانية في بداية مرحلته، إذ أن عروج وخير الدين قد استعانا بقوة من سكان جيجل ومن المبعدين عن بجاية بعد سقوطها في يد الأسبان عام 1510، فبعد دعوة شيوخ مدينة الجزائر لهما من أجل تحرير صخرة اسطفلة من حصن " البنون " رافق أروج برا إلى الجزائر 1000 محارب حسب ما ذكره هابدو[1]. وثلاثةآلاف حسب رواية أحمد توفيق المدني [2]. و5000 حسب ما يشير إليهإوزتنا يلماز[3]. يضاف إلى هؤلاء الجزائريين1300 (تركي) عثماني، منهم 500 موزعين على 16 غليوطةو 800 يرافقون أروج برا. [4] كما دعم الجيش النظامي في نهايته بقوة جزائرية تقدر بألفي جندي، حيثأمر علي خوخة إدراج أسمائهم في قائمة الجيش النظامي. [5] وعند انضمام الجزائر إلى الخلافة العثمانية، وبمعنى أدق عندما رفع السلطان العثماني سليم الأولعروج وخير الدين إلى رتبة لواء بحري بصفة رسمية في 1517 أرسل السلطان 2000 جندي كدعم لعروج وكمية كبيرة من المدافع والبنادق، ثم أضاف إليهم 4000 متطوع للعمل على المدفعية ولتدريب المواطنين على استعمال الأسلحة النارية، لكن عروج كان قد أستشهد عند وصول هذا المدد [6].

بدأت القوة النظامية تتزايد سنة بعد أخرى، ففي سنة 1533 ذكر سفير فرنسا لدى إسبانيا أنه «يوجد بمدينة الجزائر 15 ألفا ممن يحسنون استعمال الأسلحة النارية، من بينهم10 آلاف من العرب الذين نزحوا من إسبانيا في السنوات الأخيرة، وهم من خيرة الجنود». [7]

كما يفيدنا تقرير إسباني آخر سنة 1533 عن قوة الجزائر جاء فيه «أن عدد الجيش الجزائري يتكون من حوالي 700 تركي وألف فارس وألفين من المشاة العرب

أي ما يساوي 3700 جندي». وحسب تقرير سري آخر عن حالة الجزائر سنة 1536 «فإنه كان بمدينة الجزائر والمدن الداخلية ألفان من الأتراك العثمانيين وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس يتوزعون على الحاميات»[8].

أما أزوتونا فيذكر «أنه كان بمدينة الجزائر سنة 1541 أي عند حملة شارل الخامس 600 جندي بحري تركي و2000 متطوع عربي فارس ومدفعي» ويشير إلى أن الجيش النظامي في الجزائر لم يكن قد أسست به فرقة المشاة»[9].

وعندما حاول حسن بن خير الدين (1544 ـ 1552) أن يستعيد الأمن بمنطقة تلمسان كان معه في 1547 حوالي 3000 من الفرسان و1500 من المشاة، وهنا يتضح لنا أن فرقة المشاة قد تأسست بين 1541 و1547، مع مراعاة الفرقة المتكونة من المتطوعين من مدن جيجل وبجاية. الذين رافقوا عروج في 1516 والمهام التي قاموا بها بعد ذلك عند تحرير المدن الساحلية كفرقة للإمداد والدعم.

وعند حملة حسين باشا (1544 ـ 1552) على مستغانم في سنة 1551. كان بصحبته 6000 جندي تركي و8000 عربي انتصر بهم على جيش مولاي عبد القادر في الموقع المسمى الوادي المالح[10].

وفي سياق حديث الأسير هابدو عن قوة الجيش الجزائري في نهاية القرن السادس عشر، يذكر أن هؤلاء الإنكشارية يربو عددهم عن ستة آلاف رجل، موزعون في مدينة الجزائر وعلى الحدود، ويوجد عدد بمدينة الجزائر يتراوح بين 3500 و4000 إنكشاري، لكنهم لا يستقرون بها دائما لكونهم يتنقلون مرتين في العام، مرة في فصل الشتاء ومرة في فصل الربيع، وهذا الانتقال عادة ما يكون لجمع الخراج من القبائل المتفرقة في الداخل، وفي بعض الأحيان لإخماد الفتن الداخلية أو الثورات المحلية[11].

وسأقدم باختصار ملخصا للتشكيلات العسكرية التي ساهمت في العديد من الحروب سواء مع المغرب أو تونس أو لصد الهجمات الأوروبية أولإخماد الفتن الداخلية[12].

كان عددالجيش الجزائري على عهد حسين باشا في 1551متكونا من: 6000تركي و16000 عربي. وفي1563 على عهد حسن باشا متكونا من 16000 تركي و12000 عربي.

في 1568 على عهد محمد باشا متكونا من 14000تركيو 60000 عربي.

وعند حملة علج علي على تونس في 1569 كان متكونا من 5000 تركي و6000 عربي.

كان جيش رمضان باشا في 1576متكونا من 7000 جندي بحري و6700 فارس و1000 كرغلي أي (14700) ماعدا المدفعيونكان جيش رمضان باشا في معركة وادي سلي يتكون من30000 " جندي تركي و30000 ألف جندي عربي.

كان قوام أوجاق الجزائر في 1620 على عهد محمد خضر باشا حوالي 22000 أما الخيالة من العرب ومجموعة الكراغلة فكانوا يشكلون وحدات منفصلة.

وفي 1693 كان برفقة شعبان داي في معركة وجدة 11000 إنكشاري و3000 صباحي و1000 خيال عربي.

وإذا انتقلنا إلى منتصف القرن الثامن عشر، واعتمادا على دفاتر وسجلات رواتب الجيش لسنة 1745 فإننا نجد أن عدد الجنود المسجلين في هذا التاريخ يقدر بنحو 11900 رجل من بينهم 2575 ينتمون لصف (الخارجو) [13].

يذكر الدكتور شو 1720 أن القوة العسكرية للجزائر قد قدرت بمختلف التقديرات فمن 25 ألفا إلى 30ألفا إلى 100 ألف رجل من بينهم 15 ألفا إلى 16 ألفا من الأتراك والباقي يتكونون من البدو الذين يحيطون بمدينة الجزائر، والذين هم تحت حكم الداي والمتحالفين معه بواسطة عقود [14].

وعند حملة اوريللي (OREILLY) الإسباني على خليج الجزائر سنة 1775.

نلاحظ أن القوة الحقيقية للدولة الجزائرية قد فاقت 100 ألف جندي، حسب التقديرات الفرنسية التي كانت ترى أن الجيش الجزائري يتوزع على النحو التالي :

- كان يرابط قرب باب الوادي تحت قيادة خوجة الخيل 4000 مدافع أغلبهم أتراكا.
- وعلى مشارف باب عزون كان الأغا والخزناجي يشرفان على 30000 مقاتل لحماية الجهة الشرقية من المدينة.
- وقرب وادي الحراش كان يرابط باي قسنطينة مع 30000 مقاتل.
- تمركز باي التيطري مع قواته قرب رأس تامنتفوست بـ 5000 مقاتل.
- وعلى أسوار المدينة لحراستها 5000 مدافع.
- وبالميناء 5000 مدافع.
- وأخيرا فرقة زواوة التي كانت منفصلة بـ 20000 مقاتل وكانت قرب قرية الأربعطاش.

وبهذا يرتفع العدد الإجمالي للجيش الذي جاء لصد الحملة إلى 000 100جندي يضاف إليهم جيش الحاميات والحرس الخاص بالمدن.

أما التقديرات التي قدمتها القوات الإسبانية فتقدم تفصيلات أدق بعدد أكبر من الجند، إذ تذكر التقارير التي قدمتها قيادة أركان الحملة حسب ملاحظاتهم الميدانية، أن الجيش الجزائري المدافع يتكون من :

- 000 40 فارس قدموا من قسنطينة.
- 000 40 بين فارس وراجل قدموا من عنابة[15].
- 000 20 قدموا من معسكر.

وقد أشار التقرير إلى فرقة الصباحية التي تدعم الجهة اليمنى للمدينة والتي تقدر بـ000 30 مدافع.

ثم رفعوا من جيش الحامية إلى حوالي 000 50 مدافع، مع إهمالهم لفرقة زواوة التي قدرت بعشرين ألف فارس.

يقدم هذا التقرير عدد الجيش الجزائري أو القوة الدفاعية للجزائر بـ 000 180 مدافع [16] بين مشاة وفرسان خيالة (صبايحية) وبحارة ومدفعية وهذا هو أكبر عدد قدم لنا متعلق بالجيش الجزائري وقوته الدفاعية.

وإذا أضفنا ما تبقى بالمدن الساحلية والحاميات لوجدنا أن العدد الإجمالي للقوة الدفاعية تفوق المأتي ألف رجل، أما إذا رجعنا إلى كتب التاريخ فإننا نجد مثلا قوة وادي سوف ووادي ريغ تقدر بمائة وثلاثين ألف تسعون ألف خيال والباقي من المشاةالرجالة. [17]

1 . كيفية توظيف المتطوعين :

يمكن أن نفرق بين نوعين من المتطوعين : نوع مؤقت وهو خاص بالجزائريين الذين يستدعون في شكل تعبئة عامة لصد هجمات أو حملات أجنبية أو للمشاركة في رحلات بحرية على متن الأسطول الحربي أو لإخماد الفتن، ثم تسرح هذه الفرق لتستدعي كلما دعت الحاجة.

أما النوع الثاني فيتمثل في الشباب الذي جاء إلى الجزائر في شكل نجدات وتعزيزات تحت وازع ديني لنجدة إخوانه من الاضطهاد الإسباني ثم لدعم الجهاد البحري لحماية الدولة الإسلامية. وهناك من جاء إلى الجزائر حبا في المغامرة وطمعا في المال والجاه.

كان تجنيد المتطوعين يتم بطلب من دايات الجزائر وبترخيص من الباب العالي، حسبما تنص عليه اتفاقية أبرمت بين الدايات والسلطان منذ القرن السادس عشر. وكانت ترسل مجموعة من الموظفين الجزائريين إلى إزمير والقسطنطينية لتنظيم عملية التطوع يطلق على هؤلاء الموظفين اسم الدائيات.

عندما يشرع في تسجيل المتطوعين بإحدى المدن التركية لا يقدم للمتطوعين عقودا ولا التزامات تربطهم بالحكومة الجزائرية، فبينما تنصب الخيام المعدة لاستقبال الشباب . وهي علامة أصبحت من التقاليد بالمدن الساحلية التركية ترمز إلى فتح باب التطوع . يمكن للمتطوعين أن يأتوا للأكل كل صباح ومساء كدليل على الارتباط، حتىيوم الإعلان عن الرحيل حيث يوزع عليهم الأكل مجانا أيضا، وفي هذه الأثناء فإن الضابط المكلف بتسجيل المتطوعين يوزع عليهم بعض النقود لشراء ما يستحقونه ليومهم، ليظهر لهم حسن النية، كما يمنيهم بالحياة السعيدة والرخاء والجاه والثروة التي تنتظرهم بالجزائر [18] .

ونظرا للأهمية التي كانت للدائيات فقد كانت الموانئ في البلقان والأناضول تدعم بمكاتب خاصة أو وكالات يعين عليها عدد من الموظفين، وأهم المدن التي كانت بها وكالات هي : تونس، طرابلس، الإسكندرية، القاهرة ومدينة رشيد بمصر، إزمير، أو لكون إسطمبول سافر، وقورون بتركيا. خانية بجزيرة كرتب، جبل طارق، مالطة.[19]

وإذا كان عدد المتطوعين كبيرا، أو تعذر جمع واستقطاب الشباب إلى خيمة التطوع فإن الباشا داي أو الوكيل يطلب من الداي إرسال دائيات بالعدد الذي يراه مناسبا يساعدوه في تنظيم عمليات التجنيد.[20]

يرفع على كل خان علم الجزائر تعبيرا عن استقلاليته وتمتعه بالحصانة الدبلوماسية، وفي بعض الأحيان عندما تتعرض سفن بعض الدول إلى مضايقات وهي في طريقها إلى إحدى المدن الصديقة تبقي حمولتها بالخانات أو الوكالات الجزائرية كتعبير عن مكانة الجزائر لدى الباب العالي من جهة وللثقة التي كان يوليها القادة للوكلاء الجزائريين من جهة أخرى.[21]

ثم إن هذه الوكالات كانت تقوم بدور القنصليات في هذه الدول فعندما تتعرض الدول التي توجد بها (الوكالات) إلى كوارث طبيعية أو حروب مدمرة كانت تطلب المساعدات والإعانات للسكان المتضررين من الجزائر عن طريقها[22] أو إصلاحات بالموانئ على نفقة الدولة الجزائرية[23].

* يتكون كل مكتب أو وكالة من :

- الباشا داي أو الوكيل : رئيسا للخان أو الوكالة.
- علمدار : المسؤول على راية الجزائر.
- سردار : وهو الأمين أو الكاتب الخاص بالوكالة.
- مفتي الجزائر.

وبالوكالات التي تقع على طريق الحج تضاف مهمة الوكيل المكلف بشؤون الحجيج والعناية بهم ورعاية شؤونهم، كما يضاف إلى هؤلاء، الدائيات (أو الأغوات)

المكلفون بتنظيم التطوع. وبفضل مراسلات هؤلاء الوكلاء عثرنا على وثائق تؤكد تسجيل بعض المتطوعين من مصر عن طريق وكيل جزائري في الإسكندرية [24].

يقوم الجندي بخدمته العسكرية التي تدوم حوالي [10] سنوات ثم يختار بين البقاء في الجزائر أو العودة إلى موطنه بنفس الطريقة التي أتى بها، أي أن وكيل الجزائر في المدينة التي ينتمي إليها المتطوع هو الذي يستقدمه بعد تسريحه، ويسلمه شهادة إثبات من الدولة الجزائرية[25]. ويبقى يتقاضى راتبه إذا بقي في الجزائر، وعند عودته أيضا يحصل على هدايا من الأوجاق. [26] مقابل سندات استلام [27].

ازدادت الحاجة إلي البحارة نتيجة للأعمال الحربية البحرية المكثفة طيلة القرن السابع عشر من جهة ومشاركة الأسطول الجزائري في حروب البلقان ضد الأساطيل الأوربية من جهة ثانية [28]. ونظرا لقلة عدد المتطوعين فقد توجه الأسطول الجزائري إلى ميناء حوجا في إزمير سنة 1700 وأخذ عددا من الشباب الذين صادفهم بالقوة إلى الجزائر وسجلوا بحارة (لوتد) فاعتبرت هذه العملية بمثابة خرق للسيادة العثمانية.

واحتسبت ضد أسطول الجزائر، حيث ألغى الديوان الهميوني امتياز تسجيل الجزائر لشباب الأناضول الراغبين اختياريا الانخراط في سلك البحرية والذي كانت الجزائر قد حصلت عليه منذ منح السلطان سليم هذا الامتياز إلى عروج وأخيه خير الدين ورغم ذلك فقد أجاز ذهاب شباب الأناضول الراغبين إلى الجزائر وتسجيلهم بحارة [29].

لكن محمود الثاني وفي رسالة إلى محمد باشا (في 1241 هـ) أبلغه فيها عن تراجع الباب العالي عن قراره منع الجزائريين من تجنيد المتطوعين في الأناضول مقابل توقفهم عن اعتراض سفن رعايا الدولة العثمانية والدول التي لها علاقة مع الباب العالي[30]. ويعطي السلطان أيضا الأمر، باحترام الجزائريين* الذين يتوجهون إلى المدن العثمانية لزيارة أقاربهم وأداء فريضة الحج، وعدم طلب الرسوم الجمركية منهم في الموانئ التي تتبع الخلافة العثمانية [31].

(*) عندما يعود الأتراك الذين أدوا الخدمة العسكرية إلى تركيا الأم كان الحكام يعتبرونهم جزائريين.

يولي الجندي النظامي في الجزائر بعد التحاقه بوحداته . وتسجيله في سجل كبير خاص . طاعة كبرى للداي بصفته أعلى هرم السلطة وللضباط لخبرتهم وأقدميتهم وكبر سنهم، وخاصة عندمايتعلق الأمر بأملاك الدولة، أو احترام القوانين أو تطبيق شروط الخدمة العسكرية وهو يعي دائما أن ارتكاب أي خطأ حتى وإن كان بسيطا سيكلفه تخفيض الراتب كأدنى عقاب، ثم تتعاظم العقوبات حتى تصل إلى الإعدام خنقا بدار سركاجي (دار الخل)[32].

أما إذا كان الإنكشاري أو اليولداشي خاضعا للتقاليد المتعلقة باحترامالقانون فإنه يحظى بامتيازات تخوله الصعود في هرم السلطة والتسلق إلى أعلى المناصب العسكرية والإدارية، فأعضاء الديوان الصغير (الوزراء) والبايات يصبحون عند إعلان التعبئة العامة لصد غارة أو حملة أجنبية، قادة على رأس أقسام من الجيش للدفاع عن جهة معينة من المدينة أو لإدارة المعارك وقيادتهالأنها جميعا تعتبر كخدمة إلزامية [33]. ويمكن لأي مواطن أن يدافع عن حقوقه وأمام القادة عند تعرضه لأي استفزاز أو تعسف من قبل الجند، إذ بمجرد تقديمه شكوى للأغا بالجزائر أو أغا العرب بإحدى النوبات فإن الضابط يأمر بمعاقبة الجندي، ولنا أدلة عن هذا مسجلة بالوثائق الخاصة بمراسلات الأغوات والبايات [34].

2 - الترقية وأنواع الرتب :

بعد أن يصل المتطوع إلى الجزائر، ويتم تسجيله على دفتر خاص يعطون رقما تسلسليا فيصبح" جندي جديد " (يني يولداشي) وتعين له الثكنة والأورطة التي يسكن بها وأودا باشي الذي يعمل تحت قيادته المباشرة.

إذا التحق المتطوع بالجزائر كمهاجر وليس عن طريق الدائيات فإنه يتحتم عليه السعي وبجدية للحصول على إذن من مجلس الديوان يسمح له بالانخراط في فرق الأوجاق والالتحاق بالمتطوعين في فرق الينـي يولد أشي [35].

بعد أن يقضي الينـي يولدا شي ثلاث سنوات (متنقلا بين النوبات والحاميات في سنته الأولى ثم يعمل في السنة الثانية بالمحلات أو الفرق التي تقوم بجمع الخراج

وفي السنة الثالثة يعود إلى الجزائر ليقضي وقتا من الراحة)، بإمكانه أن يشتغل بالحقول أو بإحدى الدكاكين، إلا إذا نودي للتعبئة العامة، وعند انقضاء السنة الثالثة يصبح " جندي قديم" (اسكي يولد أشي) [36].

لا يمكن لأحد (من الأتراك أصلا) أن يحصل على الإعفاء من الخدمة العسكرية، فالامتياز الوحيد الذي يمكن أن يحضى به الجندي هو تغيير وجهة تعيينه من نوبة إلى أخرى، ولكن عندما يعين بقصبة الجزائر، أو بمينائها فإن طلب التغيير يقابل بالرفض دائما.

بعد الانتهاء من أداء الخدمة العسكرية يرتقي الاسكي يولداشي إلى إحدى الرتب التالية:

- باشي يولداشي. (رئيس فرقة متكونة من 20 جنديا)، وفيها يتدرج فيرتقي إلى رتبة وكيل الحرج (مقتصد) ثم أوضا باشي (أو قائد فرقة) ثم يرتقي إلى رتبة البولكباشيي.

- أما إذا أنهى خدمته وهو بمدينة الجزائر في فرقة دورية الحراسة الليلية لتوقيف الأتراك الفارين من الثكنات وبروج المراقبة والتحصينات، فينتقل الاسكي باشي إلى رتبة صولاجي أو الصولاق ثم يرتقي إلى رتبة الأوضا باشي فرتبة بولكباشي اليولداش الذين يحسنون القراءة والكتابة، والذين يتوفرون على 1000 بتاك شيك لشراء منصب ما، يتم تعيينهم ضمن خوجات البحرية ليعملون ككتاب الرايس ضمن فريق البحارة حسب اختياره، وعندما تكون لهم رغبة وقدرة على الإبحار، ويحسنون قيادة عمارة بحرية يصبحون رياسا، لكن هذا النوع من الرياس ليس لهم الحق في الراتب إلا بمقدار الجندي ولا يتقاضى راتب الرايس إلا بعد انتهاء الخدمة العسكرية [37].

- يرتقي الجندي إلى رتبة السنجياق دار أو علام دار بشراء المنصب بمقدار 1000بتاك شيك، وهذا المنصب يسمح لصاحبه من احتلال رتبة (خارج عن الصفوف)، ويتمتع أيضا بتقاضي راتبا. عندما يأتي خليفة أحد البايات إلى الجزائر . مرة كل ستة أشهر لتقديم تقارير البايلك عن أحوال الباي والرعية . يقدم الخليفة

للعلام دار حصانين كهدية، وعندما يحتاج أحد الصبايحية إلى جواد يشتريه من السنجياق دار بمقدار 100 بياستر.

- وعندما يكلف أحد البولكباشيةلتسيير نوبة أو محله يصبح برتبة الأغا، وبعد خدمة طويلة يحال الأغوات على التقاعد محتفظين براتبهم ويصبحون بعدها من المنتسبين إلى محكمة الكاهية بالجزائر أو قائد الدار بقسنطينة أو شيخ البلد بوهران.

- يكون اليولداش الذين يعينون على رأس إحدىالنوبات، الموزعة بالجزائر العاصمة وبوغني وحمزة، البيبان، ونوغة، زمورة، مجانة، قسنطينة، عنابة، القل، جيجل، بجاية، ميلة، تبسة، بسكرة، قشتولة، سور الغزلان، المدية، فرندة، مليانة، مستغانم، وهران، تلمسان. ...، قيادات عسكرية تتكون من :

1 ـ الأغا : ينتخب من بين البولكباشية.

2 ـ أوضا باشي : رئيس البرج أو الحصن.

3 ـ السقا باشي : رئيس السقالر أو المكلفين بجلب المياه وتوفيرها

4 ـ الاشجي باشي : قائد الطباخين.

5 ـ الشاوش : يختار من بين أبسط اليولداش من طرف الداي شخصيا دون اعتبار للأقدمية[38]. إذ يكفي أن يكون له وجه حسن وجسم قوي وسليم وسيرة حسنة ليصبح مؤهلا لهذا المنصب.

يبقى هؤلاء القادة (الشواش) بالنوبة لمدة 10 سنوات ثم يرتقون إلى أعلى المناصب في الوجاق، ومنهم من وصل إلى رتبة داي، بينما يرتقي الشواش الآخرون إلى هذه الرتبة بالتناوب على المناصب العسكرية حسب الحقوق التي يرتبطون بها.

أما التسلسل الترتيبي للجيش الجزائري النظامي، بالإضافة إلى هذه الرتب النوعية التي يمكن للجندي أن يصل إليها والتي تعادل في الكثير منها رتب ضباط الصف عندنا اليوم، نجد سلما تصاعديا يبدأ من منصب الاوتراق لينتهي برتبة الأغا. ورتب الضباط هي :

- الاوتراق : وهم رؤساء الاوضا باشية.

- البادوشا : وتمنح هذه الرتب لأربعة من أقدم الاوتراق فيصبح اثنان منهم مستشارين للأغا واثنين مستشارين للداي.

- البولكباشية : وهي تعادل اليوم درجة نقيب لأنه في حالة الحرب يكون على رأس عدة فرق أو فيالق غير محددة العدد يوجد منهم حوالي 60 بولكباشيا من بين أعضاءالديوان. وبين 20 و30 بولكباشيا يترأسون فرق الجيش.

الصولاجي : تمنح هذه الرتبة لأربعة من أقدم البولكباشية، يرافقون الداي أينما ذهب يأكلون على مائدته ويتميزون بلبس طاقية مذهبة على الرأس، ويحملون سيوفا محلاة بالفضة، وعندما يرافقون الداي يكون معهم اثنان من البادوشا حاملي البنادق الطويلة، ويغطون رؤوسهم بعمامات بهاريش على هيئة منشة.

موربولكباشي : يوجد واحد بهذه الرتبة، ومهمته دائما هي الوقوف بجوار الباشا مع الصولاجية.

الباشي بولكباشي : وهو زعيم البولكباشية يتقدمهم ويتكلم باسمهم وهو أكثرهم احتراما، ينتخب قبلهم وهو أقرب شخص للكاهية والمرشح الثاني للأغوية.

الأياباشي : يوجد بهذه الرتبة عشرون ضابطا مهمتهم مرافقة الداي إلى المسجد أيامالجمعة والمناسبات الأخرى، ويحملون على رؤوسهم عمائم بها ريش مختلف والقدماء منهم يقومون بالنيابة عن الجيش والوكالة عنهم عرض طلباتهم على الباشا أي يتكلمون بإسم الجيش كله على خلاف الباشي بولكباشي.

الكاهية : هو نائب الأغا ومساعده وخليفته في حالة المرض أو العزل أو الموت، إذ يقوم الكاهية بالنيابة عنه حتى انتخاب أغا جديد [39]. وغالبا ما يكون هذا الأغا هو الكاهية.

الأغا : وهو القائد العام للجيش البري، ويعتبر بمثابة الأمين العام لمال الجيش، فهو المكلف بدفع مرتباته والمشرف على مؤونة والحامي لحدود الإقليم [40]. والأغا هو أقدم جندي في الوجاق، لكن هذا المنصب لا يسمح لصاحبه التمتع به إلا لمدة

شهرين متتابعين، إذ بمجرد تقاضي الجند لمرتباتهم تعتبر مهمة الأغا منتهية، فيصبح برتبة "آغا معزول" ويتقاضى راتبه كاملا دون تقديم خدمة إضافية، لكن نجد العديد من الأغوات المعزولين يشكلون الديوان الكبير.

تقدم جميع الأوامر بإسم الأغا وتسلم له مفاتيح المدينة كل مساء وهو الوحيد الذي يستطيع إصدار الأوامر بالمعاقبة في حالة خرق القوانين العسكرية من طرف أحد الجنود كما أن العقوبات العسكرية تنفذ بمسكنه (العقوبات البسيطة) هذا المسكن الذي تمنحه له الدولة وتصونه وتقدم رواتب الخدم ونفقات الأكل.

وهذا الأغا " غير الأغا الذي يكون ثلاثيا يشرف على حماية وحراسة القصبة مع كاهيته وحوحة الباب، لأن هذا الأغا هو المسؤول سلما وحربا على حماية القصبة ويسمى الباش شاوش.

أما منصب الداي فهو أعلى رتبة في هرم السلطة إذ كان الداي هو رئيس الدولة، والقاضي الأول برئاسته لإدارة العدالة والتمثيل الأعلى للجزائر كإبرام المعاهدات والتوقيع عليها وإعلان الحرب وتعيين الرسميين لمختلف المناصب كالوزراء والدائيات... والأكثر من هذا فإن التنسيق في السياسة الخارجية بين السلطان العثماني والداي تجاه أوروبا قد احتفظ به حتى 1830 على أساس المصلحة المتبادلة، وذلك يخالف تماما إمتهانات الولاء التي كان زعماء الايالات التي يرمزون بها إلى تعلقهم بالسلطان خليفة المسلمين.

إلا أن الدايات قد تحصلوا منذ بداية القرن الثامن عشر على رتبة الباشوية، والتي تعادل رتبة الباشا ذي ثلاث شرطات في الجيش العثماني[41] وهذا ما سمح بحصولهم على القفطان الشرفي الأحمر والسيف كدلالة على سمو المنصب المؤكد بفرمانات من طرف السلطان الذي عرف كيف يحافظ على العلاقات الودية وعلى التبعية الاسمية بأقل التكاليف.

لقد أهملت بعض الرتب في الجيش النظامي مثل رتبة سنجاق بك تعادل رتبة لواء وكذا رتبة بكلر بك التي تعادل رتبة فريق أول في الجيش العثماني[42].

الرواتب والامتيازات :

تعتبر الرواتب دائما وفي جميع الحالات وعند جميع الشعوب عصب الخدمة العسكرية كما تعتبر الامتيازات الحافز الأول لتدعيم وترقية العمل الفكري أو العضلي، فبقدر انتظام دفع الرواتب للجند يعم الاستقرار مادام الجاه والسلاح بيدهم.

يقدم الراتب بانتظام كل شهرين بحضور الداي وفي قصره وبحضور الأغا وبقية ضباط الديوان، كل واحد من الجند يستلم راتبه بنفسه من أيدي الخزناجي بعملة ذهبية أو فضية توزن وتراقب من طرف المراقب المالي.

يقدر الراتب الشهري للجندي الجديد المبتدئ بـ 2.75 أسبر ويقدر أعلى راتب لنفس الجندي بـ 6 بياستر لشهرين، كما أن كل ضباط الدولة ابتداء من الداي لا يتقاضون إلا بقدر الراتب الذي يتقاضاه الجندي البسيط ـ أي الأجر القاعدي للجيش ـ لكن للضباط امتيازات أخرى، فهم يتحصلون على كل رتبة قيمة معينة وعلى مداخيل ومخارج السلع والسوق والمبيعات وفدية العبيد والدنوش [43].

وبالإضافة إلى رواتب الجيش النقدية هناك نوع ثاني يتحصلون عليه عينيا يدفعون فيه ثلث ثمنه في السوق ويتمثل في الخبز حيث يستلم كل واحد أربع خبزات ذات وزن 1 كلغ يوميا بالإضافة إلى زيت الطبخ واللحم، كما يتحصل على إضافات من اللباس بثمن مخفض أيضا.

تبدأ الدورة المالية عند مستهل شهر أبريل وتستمر لمدة أربعين يوما بدون انقطاع حتى يتسنى لجميع المكلفين بتوزيع المرتبات، وكل مجند من الحضور شخصيا لاستلام راتبه ماعدا المسجلين ضمن فرقة البحارة حيث يستلمون رواتبهم بالميناء من طرف أمير البحر، وعلى هذا فإن وقت قبض الرواتب محدود ولا يجوز لأي واحد ولا تشفع له إلا الأعذار القاهرة والحجج الدامغة من أجل قبض الراتب في وقته.

وتعتبر هذه العملية، حيث يجب الظهور على كل واحد شخصيا، فرصة لتطهير قوائم الخدمة الإلزامية، فإذا كان الجندي في عامه المخصص للعطلة يوجه بعدها إلى النوبات أو المقاطعات أو للإبحار، لكن العمل بالنوبات إجباري ولا يمكن إعفاء أي أحد منه.

عندما يحل موعد دفع الرواتب يجلس الداي وعلى يمينه الأغا ثم الكاهية والبولكباشية يجلسون حسب أقدميتهم أي الباش بولكباشي ثم مور بولكباشي ثم البولكباشية، وعلى يسار الداي يجلس كاتب الجمرك ثم بقية الكتاب حسب ترتيباتهم بمحاذاة الداي بينما يقف الخوجة وبجواره نائبه ثم يأتي بقية الشواش حسب الأهمية، وعندما يتعب الأغا أو يريد حاجة يخلفه كاهيته ويجلس الخز ناجي على الحصير أو السجاد بالقرب من الداي جاعلا الداي خلفه، ويساعد الخزناجي اثنان من الصرافين العرب.

يأتي اليولداشي قرب الباش شاوش حيث يقدم اسمه وفيلقه، يبلغ الباش شاوش الاسم إلى الكاتب فيسجل الكاتب اسمه ثم يسلم اليولداشي المنديل الذي يحمله بيده إلى وكيل الحرج الذي يبسطه على الأرض قرب الصراف فيضع هذا الأخير النقود على المنديل فيأخذه وكيل الحرج ويسلمه لليولداشي ثم يضع يده على كتفه ويدفعه نحو الخارج.

يمكن لأي جندي استلام راتبه مرتين بواسطة وكيل له لكنه مجبر على الحضور لاستلام الراتب الثالث، وإذا أراد أن يقوم بسفر أو اسر فإنه عند عودته يستلم راتبا لمدة سنة فقط.

بالنسبة للجندي المتزوج في داخل الجزائر وغير ملزم بالعمل لا بالنوبات ولا بالمحلات يبيع رواتبهم لليهود، لكن نظرا لكونه لا يستطيع الحضور يطلب من أحد الشواش ليقبض نيابة عنه مقابل بياستر واحد حق أتعابه، لكن لا يمكن للجندي التغيب في المرة الرابعة لأن الجندي لا يوظف إلا لمدة أربعة أشهر أو ستة أشهر في النوبات ولمدة سنة بالحاميات وإن رواتب الجند حتى بالنسبة للحاميات فإنها لا تقدم إلا في قصر الداي [44].

الهوامش :

1 - أنظر. HAEDO ,(F.D.D de)Histoire Des Rois d'alger P.

2 - توفيق المدني (أحمد) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا. ص 174.

3 -أوزونا، تاريخ الدولة العثمانيةج 1 ص 247.

4 - لم يذكر أوزتونا إلا 800 بحري تركي والقوة الباقية من العرب، ويذهب إلى ذلك توفيق المدني.

5 - الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار. ص. 166.

6 - أوزونا تاريخ الدولة العثمانية. ص253.

7 - توفيق المدني، حرب الثلاثمائة بين الجزائر وإسبانيا. ص 182.

8 - توفيق المدني، نفس المرجع ص 277.

9 - أوزونا، نفس المرجع. ص 279.

10 - أوزتونا، نفس المرجع. ص 298.

11 - أنظر. HAEDO .OP. Cit. p .509

12 - لقد أخذت هذه الإحصائيات عن أوزونا، تاريخ الدولة العثمانية.

وكذا عن كتاب الوزير السراج الحلل السندسية في الأخبار التونسية.

وعن هابدو تاريخ مملكة الجزائر وفانتير دو بارادي.

13 - DENIE / lesregistrsde s solde des jainissaires .r .AF .1920 .p .56

14 - SHAW ,voyage dans la regence d'alger . .p .128

15 - كانت عنابة تابعة لبايلك الشرق، وعلى هذا فوضع قوة عسكرية لمقاطعة واحدة في خانتين منفصلتين ومتمايزتين أمر مستغرب.

16 - أنظر47. 46. .P.p .cit .op ,PIQUET

17 - تاريخ العدواني (محمد العدواني) تحقيق سعد الله، ص 306.

18 - أنظر160. .p . .cit .op ,Paradis(de)

19 - المجموعة رقم 1903 و3190 و3204 و3205 و3190 بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

20 - أنظر مجموعة 3207 رقم 146 و3190 رقم 176 و186.

21 - مجموعة 3190 م وج رقم 315

22 - مجموعة 3204 م وج رقم 24.

23 - مجموعة 3205 رقم. 90.

24 - المجموعة 3190 رقم 115 و326

25 - المجموعة 3190 رقم 207 والمجموعة 3207 رقم 125.

26 - المجموعة 3190 رقم 315.

27 - المجموعة 3190 رقم 188

28 – المجموعة 2304 م وج. رقم 1. 43. 44. 51.

29 – أوزطونا، تاريخ الدولة العثمانية. ص 518.

30 – المجموعة3190م وج. رقم 137 .139.138.

31 – المجموعة·319م وج. رقم 30. 32. 54.

32 – أنظر 199. p. cit. p. o, Piquet

33 –عمر عبد العزيز، دراسات في تاريخ العرب الحديث. ص 45. 3

34 – مجموعة 3190. المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 282.

35 – ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث. ص 59. 60.

36 – أنظر 166.p. . cit Paradis (de)op

37 – للمزيد من الإطلاع يمكن مراجعة كارت، المرجع السابق. ص 245

38 -Paradis(de) op.cit .p .173

39 –أنظر 509 et 506. p.p . . cit .op ,Haedo

40 –أنظر 502. de Paradis . p . cit .op ,Haedo

41 – أوزتونا، المرجع السابق. ص 127.

42 – سينسر، المرجع السابق. ص75. سينسر، الجزائرفي عهد رياس البحر. ص 55.

43 - (de) ,op .cit. .P 165Paradis .

44 – أخذت هذه المعلومات بتصرف عن دوباردي. ص 182. 206.

الباب الثاني

الإستراتيجية العسكرية

1

االاستراتيجية العسكرية في المغرب من الفتح إلى نهاية الدولة الرستمية

الإستراتجية العسكرية للجيش الإسلامي

كان العرب في جاهليتهم وفي صدر الإسلام يتبعون طريقة الكر والفر في حروبهم ويجعلون نساءهم وزائهم وكان ذلك مما يثبت أقدامهم في الحروب فلما ظهر الإسلام أخذ العرب يقاتلون زحفا أي صفوفا عملا بقوله تعالى «إن الله يحب الدين يقاتلون في سبيله صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص».

ثم بعد أن اختلط العرب بالأعاجم عمدوا إلى نظام جديد وهو نظام الكر ديس وهي كلمة يونانية ومعناها الكتلة أو الكتيبة ويقسم الجيش بموجبها إلى خمسة أجزاء ومنها تسمية بالخميس أي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب.

ويقول ابن خلدون أن أول من استعمل الكر أديس في الإسلام عبد المالك بن مروان في قتال الضحاك الخارجي كما استعمله خالد بن الوليد في غزوة اليرموك وكذلك سعد بن أبي وقاص في القدسية والخطط العسكرية كانت كالتالي:

الشكل الرباعي وهو عمدة الجنود المنظمة اليوم الهلال، إن ترتيب الفرق يشكل قوس أو هلال وهذا الهلال على نوعين:

الأول مرسل والثاني حاد بسيط.

الهلال المركب : أي يكون إلى جانب الهلال شبه هلالين الدائرة وغالبا ما كانوا يشكلون دوائر مزدوجة.

المثلث : وكان على نوعين مثلث تكون قاعدته موجهة للعدو بينما يكون راس المثلث الثاني هو الموجه للعدو كراس حربة والجيوش العربية من بين الجيوش التي تتميز بخفتها وهذا راجع إلى الوسائل المستعملة.

الجيش البحري

تتميز جميع الدول العربية بموقعها على البحار إذ كانت ولاتزال هذه البحار همزة الوصل بين مختلف أجزائها واشتهر سكان السواحل بالملاحة.

اعتنى المسلمون بالجهاد البحري بعد أن تبين لعثمان بن عفان مدى الفائدة التي يمكن أن يدرها العمل لصد الهجمات البحرية التي كثيرا ما كان الروم يقومون بها ضد سواحل المدن الإسلامية.

وقد كان عامل البحرين أيام عمر بن الخطاب هو أول من أغزى بأسطول بحري سنة 17 هـ فإن معاوية بن أبى سفيان هو أول من كون أسطول عربي خفيف الذي تغلب به في معركة ذات الصواري.

كما كانت في العهد الأموي غزوتان الأولى صيفية والثاني شتوية تعرف باسم الشواتي والصواف.

بعد التبعية البحرية للأسطول المغربي لمصر أسست بعد الحملة الثانية لحسان بن النعمان دار لصناعة السفن بتونس لكن الأسطول المغربي لم يتكون إلا في العصر العباسي فغزو سواحل البحر المتوسط بحيث أصبحوا سادته كما غزوا أيضا سواحل الهند سنة 159.

ومن بين الدول التي اهتمت بالموضوع الطولونيين الذين أنشؤا مراكبا بحرية كانت تصنع بالروضة والفسطاط كما بدل الفاطميون عنايتهم نحو الأسطول لما رأوا تهديد البيزنطيين لبلاد المغرب وكذلك الأمويين في الأندلس، قيل إن عدد السفن التي بناها المعز لدين الله بلغت 600 لم يعرف مثلها من قبل. ولما انتقلت السلطة لصلاح الدين الأيوبي اهتم هو الآخر بالأسطول.

وكان أيضا للأغالبة غزوات كثيرة بواسطة سفنهم العسكرية إلى سردينية وصقلية وقد فتحوا هذه الأخيرة واستولوا عنها سنة 212 وبقيت في حوزة الفاطميين بعد الأغالبة كما اشتهر أيضا المرابطون والموحدون ببناء الأسطول.

أما في الأندلس فقد بدا الاهتمام بأمر البحرية منذ أيام عبد الرحمان الثالث وصلت سفنه إلى مائة سفينة تمكن بواسطتها الاستيلاء على ثغور وسواحل الفرنجة من بين المدن التي اشتهرت بصناعة السفن طرابلس بليبيا وتونس وسوسة بتونس وبونة وبجاية ووهران وهنين بالجزائر وسلا وطانجة والصويرة.

السفن الحربية واشهر أنواعها :

السفينة : اسم عام للمركب.

الشونة : اكبر أنواع السفن أكثرها استعمالا.

الكراكات : ويطلق على جميعها فرافير وهي من السفن العظيمة.

الصندل : وهي مراكب حربية مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح والمؤن المسطح وهي من السفن الكبيرة الحجم.

الطراد : سفينة صغيرة سريعة السير تستعمل لحمل الفرسان والخيول.

الجحرافة : تحمل المجانيق.

العشائري : أكثر ما كانت تعرف في النيل.

السمريات : معدة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلين.

الغراب : جميعها أغربة.

الحربية : نوعا من الشواني لكنها أصغر حجما.

الباطشة : مراكب كبيرة الحجم.

الاستراتيجية الحربية العربية في بلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى

الاستراتيجية مصطلح جديد يقابله في العهد الإسلامي الأول مصطلح " تعبئة" وتعني كل ما يقوم به الجيش من تحركات وتنظيمات في وضع القتال أو صف الكتائب في المعركة وقبلها.

و يختلف نظام التعبئة باختلاف أعداد الجيش ومعداته والظروف المحيطة به وقد تطورت هذه الأنظمة عبر القرون متأثرة بتلك العوامل.

حيث نرى أن الجيش العربي استعمل في البداية نظام الكر والفر في غزواته الأولى من خلال الحملات الاستطلاعية التي كان يرسلها في النصف الأول من القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، وما أن حل النصف الثاني، حتى ظهرت محاولاته في الاستقرار وتثبيت الوجود، وكان للقائد العربي عقبة بن نافع الفهري الدور الرائد في هذه المرحلة، حيث اعتمد في تأمين ذلك الوجود على مجموعة من المعسكرات والحصون، كان أولها معسكر القرن ثم القيروان الذي أسسه بنفسه ليصبح قاعدة انطلاق للجيوش ومركز لنشر العقيدة الجديدة والثقافة العربية بين قبائل البربر.

زيادة على اعتمادهم على المنشآت البيزنطية التابعة لخط الدفاع القديم في العهد الروماني، واحتفظت الخطوط البيزنطية المطابقة للتحصينات الرومانية التي أقيمت في القرن الأول الميلادي بقيمتها الدفاعية خاصة المراكز المحصنة المنيعة كتبسة وطبنة وباغاي وبلزمة وسطيف وميلة، كما كان الخط المرتكز على قلعة قالمة وقسنطينة والذي يضم عددا من الحصون الضخمة مثل: تيفاش وتيجيس وتبراشق وتاسدوق الواقعة بين شق بنارية (الكاف) ووادي الرمل.

و هكذا كانت الإمارة الأغلبية وقبلها إفريقيا في عصر الولاة مغطاة بشبكة من القلاع الواقعة في السواحل وفي الحضنةو الهضاب العليا وسفوح جبال الأوراس وبابور وقد بقيت في حالة جيدة حتى العهد الفاطمي، وكانت تمثل جهازا دفاعيا يمكن استعماله ضد البربر سواء في العهد الأغلبيأو الفاطمي.

ومن ثم استغناؤهم عن إقامة حصون جديدة، واكتفوا بإقامة مدينة جديدة هي المسيلة التي كانت تراقب قبائل زناتة، ومدينة آشيرفي جبال التيتري وقلعة المهدية على الساحل الأفريقي التي أصبحتالعاصمة الجديدة للفاطميين وأهم المدن المحصنة على البحر.

وقد ساهمت هذه المراكز في عملية الاتصال مع السكان المحليين، كما أن الاستراتيجية العربية في هذه المرحلة تميزت بسياسة كسب السكان وتجنيدهم ضمن الجيش العربي الإسلامي.

وطبقت هذه المحاولات من طرف حسان بن النعمان وموسى بن نصيرواستمرت من بعدهم طوال القرون الخمسة الأولى مستفيدة من الخبرة العسكرية والتجربة البربرية في الحروب مع الروم.

تلك الخبرة أهلتهم لتبؤ المناصب العسكرية الأولى كما حدث مع القائد طارق بن زياد وكسيلة وطريف بن زرعة بن أبي مدرك وأبو قرة اليفرني الذي كون دولة بتلمسان واستمرت 40 سنة وخوطب بأمير المؤمنين.

و قد مرت الاستراتيجية العربية في هذه الفترة بعدة مراحل تطورت فيها أنظمة الحربالمختلفة كنظام الكر والفر ونظام الصف والكراديس والانفتاحات والخميس وغيرها من الأنظمة.

نظام الكر والفر:

وهي الطريقة التي تستخدم فيها قوة خاصة مدربة تدريبا خاصا ومسلحة تسليحا مناسبا لتلك العمليات المسندة إليها.

و تعتمد هذه الطريقة على المباغتة في توجيه ضربات قوية وخاطفة قبل ردة فعل الخصم، ومن المعروف أن هذه الطريقة استخدمت كثيرا من طرف القبائل العربية والبربرية قبل الإسلام، بل أن جميع معاركهم تمت بهذه الطريقة.

لكن بعد الإسلام، تطورت العمليات القتالية بشكل اتسم بالمرونة واختيار المكان

والوقت المناسب لتنفيذ تلك الإغاراتالتي كانت عاملا رئيسيا في تحطيم إرادة القتال عند أعدائهم، بل أن علماء الاستراتيجية ينسبون إلى العرب الأسس والقواعد الواجب تطبيقها لنجاح نظام الكر والفر وعنهم أخذها الرومان والبيزنطيون.

وهكذا فإن نظام الكر والفر هو أن يحمل المقاتلون على العدو وبكل قوتهم وعندما ينهزم تتم مطاردته، أما إذا صمد فينسحبون لإعادة الكرة بعد الكرة حتى يحالفهم النصر.

وعرف هذا النظام عند العرب "بالرجعة بعد الجولة"، ويعتمد أساسا على اتخاذ المجبوذة ومعناها أن يجعلوا إبلهم وضغائنهم خلفهم ليعودوا إليها بعد كل كرة ليطمئنوا على أهلهم وذويهم ونوقهم فتلتهب حماستهم من جديدويعيدون الحملة على العدو، ويعرف ابن خلدون هذا النظام "بضرب المصاف" حيث يقول: «ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب - ضرب المصاف - وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة أدوم للحرب وأقرب للغلب».

وقد استخدم العرب في حروبهم قبل الإسلام المجبوذة، وفي عهد الرسول ﷺ، حيث نفذوها في معركة ذي قار سنة 650 م حين قطع قائدهم حنظلة بن ثعلبة العجلي أحزمة الهوادج فسقطت على الأرض وقال:

"ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته" ثم ضرب على نفسه قبة وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة، وحذا بقية رفاقه حذوه فتشكل شبه معسكر خلف جيش القبائل العربية والتجأت إليه النساء اللواتي كن يرددن مع امرأة من بني عجل الأهزوجة إثر كل تراجع لرجالهن.

إن تهـزمـوا نعـانـق ونفـرش النمـــارق

أو تهـزمـوا نفـــارق فـــراق غيـــر وامـق

ومن الطبيعي أن يتحمس الرجال في الكر على الأعداء عند سماع نسائهم وهن يهزجن لهم.

واستخدم العرب نفس الطريقة في معركة سبيطلة مع الروم باستثناء الاعتماد على نظام الراحة بالتناوب أي يحارب نصف الجيش ويرتاح النصف الثاني وهكذا إلى أن قتل قائدهم جرجير وحسمت المعركة سنة 28هـ/649م، وتعد هذه الهزيمة حاسمة إلى حد ما إذ لم تعد للروم قوة كبيرة بعد ذلك، وتبعتها غارة معاوية بن خديج السكوني على إفريقيا سنة 45هـ/665م.

واستولى على بعض المراكز الرومية في سوسة وهروب القائد نقفور بسفنه.

وكان كل مرة يعود فيها العرب دون ترك أية حامية في الأماكن. التي فتحوها ولم يبدأ الاستقرار إلا في عهد عقبة بن نافع الفهري الذي لا يقارن إلا بكتيبة بن مسلم الباهلي الذي قام بمهمة مماثلة في المشرق ووصل بفتوحاته إلى الصين.

وقد طبق نظام الحملات هذا في عصر الولاة خاصة ضد حركة الخوارج التي تزعمها ميسرة الفقير وخالد بن يزيد الزناتي الذي هزم الجيش العربي في معركة الإشراف سنة 123هـ/741م.

لكن حنضلة بن صفوان الكلبي انتقم لهذه الهزيمة ودحر جيش الخوارج بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري في معركة الأصنام وعكاشة بن أيوب الفزاري في معركة سبو سنة 124هـ/742م.

وبالقضاء على هاتين القوتين أنقذ مصير أهل السنة في إفريقيا والمغرب وانحصر الخوارج في المغرب الأوسط وإقليم الريف وجبال نفوسة في إقليم طرابلس وجزيرة جربة.

كما استخدم المهالبة نظام الغارات ضد الحدود الغربية لإمارتهم وخاصة في إقليم الزاب ضد القبائل البربرية الثائرة، لعل آخرها ثورة أبي زرجونة الورفجومي سنة 157هـ والتي بعث لها يزيد بن حاتم جيشا بقيادة مجزأة المهلبي وجيشا آخر بقيادةالعلاء بن سعيد المهلبي، وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري شمال قسنطينة، ووجه إليه يزيد والي طبنة المخارق بن غضار الطائي لكن لم يتمكن منه، فوجه إليه جيش ثان بقيادة العلاء بن سعيد، فتمكنا من التغلب عليه سنة 156هـ.

ومن بعدهم جيش الأغالبة الذي واجه القبائل البربرية ذات النزعة الخارجية والانتفاضات الداخلية التي كان يثيرها زعماء القبائل العربية المستقرة في الحدود الجنوبية الغربية، ونفس النظام استخدم في إمارة الرستميين في مواجهتهم ضد محاولة ابن الأشعثتفويض دولتهم، وضد عمر بن حفص الذي هزمهم في تهودة.

نظام الصفوف:

لقد كان نظام الصفوف مرحلة متطورة في الإستراتيجية العسكرية عند العرب حيث عمد القادة إلى ترتيب المقاتلين في صفوف متراصة عملا بقوله تعالى : إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، وعملا بقول رسوله الكريم: المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا "

وجاء هذا النظام كبديل لنظام الكر والفر، حيث أصبح النظام الجديد نظام كر دون فر، وكان ذلك تكتيك جديد أرعبوا به خصومهم وجربوا ذلك في معركة بدر سنة 2هـ، ثم بعد ذلك في معارك العرب في فارس والشام وإفريقيا.

فكان المقاتلون يرصون صفوفهم كما في الصلاة، ويزحفون دون فر واضعين إبلهم ونساءهم وأحمالهم كحاجز يمنعهم من الفرار، ويقال أن القادة المسلمون كانوا يستعرضون الصفوف قبل القتال، ويتم هذا النظام بتقدم حاملي السهام والسيوف في الصفين الثاني والثالث ويقف الفرسان ميمنة وميسرة. ولما تكاثرت جموع المسلمين وتنوعت أسلحتهم، جعلوا الجنود على صفوف يختلف عددها باختلاف تسليحها مع مراعاة إبقاء الدارعين أمام الحاصرين مع التمسك بعادة (اتخاذ المجبوذة) لتكون عونا لهم في الاستماتة في القتال وهي نفس الإستراتيجية التي استخدمتها القبائل الهلالية ضد الدولة الزيرية في موقعة حيدران وقبل ذلك استخدمتها قبائل زناتة في مواجهتهم مع صنهاجة.

أنواع التعابي:

و أصل أجزاء التعبئة ثلاثة: القلب ويسمى الجمهور، والميمنة والميسرة وتسمى الجنيين، وطرفا كل من هذه الأجزاء جناح، وقد يجزأ كل منها ثلاثة أجزاء: قلبا وميمنة وميسرة.

وعلى هذا فإن التعبئة عند الهرثمي الذي كتب كتاب (الحيل في الحروب) للخليفة المأمون، تتكون في الأساس من القلب والميمنة والميسرة، إلا أن الهرثمي يضيف ثلاثين صنفا من أصناف التعبئة في المسير والنزول والمصاف واللقاء وهي:

السرايا، والمبدرقة (وهي خيل الحراسة).

النوافض (وهم جماعة لقطع المدد عن العدو وإفشال كمائنهم).

البيادبة (الحراس بالنهار أو الخفراء).

الربايا (وهم الطلائع أمام الجيش المتقدم ليأتوا بالأخبار).

الأرصاد (من يراقبون العدو).

المسالح (جماعة مسلحة معدون في مكان للقتال).

الدراجات (وهم العسس بالنهار).

العساس (وهم العسس أو الشرط بالليل).

الجواسيس، المصاف، والساقة(و هي مؤخرة الجيش).

المقدمة والردة (الرديف أو الاحتياط).

المرتبة (نقاط المراقبة الثابتة على المرتفعات).

الكمين (لمراقبة العدو والاختفاء عنه ثم مهاجمته والعودة بسرعة).

المدد، والخيل المرتفعة (الفرسان للحراسة على مسافات متباعدة). لنقص تعبئة العدو ومصافه.

الخيل الممدة (وهي المهيأة للطلب).

الخيل المانعة (وهي خيل حراسة الجيش والأثقال).

الخيل المنتبذة (البعيدة أو المختفية لمفاجأة العدو وانتهاز الفرصة للانقضاض عليه أو لسد خلل في صفوف الجيش).

الخيل المقوية (ربما المستريحة ثم يقوى بها الجيش عند الحاجة).

الخيل المرتخية (ربما خيل الاحتياط خلف الميمنة، ولها مهام أخرى غير القتال كأخذ عسكر العدو وغنائمهم)

الخيل المنتخبة، والخيل المحتسبة (ربما هي خيل رجال الحسبة الذين يرافقون الجيش).

خيل الشاكرية وخيل للشرط (أي خيل رجال الشرطة).

خيل المقدمة

الجريدة (وهي الجيش والسرايا وغيرها من دون الأربعين).

العصبة (وهم أربعين شخص من الفرسان أو الرجالة).

المقنب (ما كان العدد إلى دون الثلاثمائة).

السرية (ما كان العدد من الثلاثمائة إلى الخمسمائة وهي التي تخرج بالليل)

السربية (التي تخرج بالنهار).

المنسر (ما زاد عن الخمسمائة إلى دون الثمانمائة، ربما تكون الميشر والمياشر)

الحسحاس (ما زاد عدد الجيش فيه من الثمانمائة إلى الألف).

الجيش الألزم (البالغ عدده الألف).

الجيش الجحفل (البالغ عدده الأربعة آلاف) .

الجيش الجرار (البالغ عدده اثني عشر ألفا).

العصبة (وهي عدد من الصفوف المتقاطرة التي تتراوح ما بين ألف صف وأربعة عشرين صفا).

صاحب العصبة (وهي من فيها من الرجال اثنان وثلاثون رجلا) ويسمى قائدهم

صاحب المائة ورئيس الكردوس (وفيه مائة وثمانية وعشرين رجلا، وفيه من الصفوف المتقاطرة ثمانية).

رئيس الجحفل أو رئيس الفئة (يضم كل من صاحب الراية، وصاحب الساقة. وصاحب البوق، والخادم).

رئيس الكوكبة (وتجمع فيه خمسمائة واثنا عشر رجلا، ومن الصفوف المتقاطرة اثنان وثلاثون صفا).

صاحب الزمرة (يضم فيها من الرجال ألف وأربعة وعشرون رجلا، ومن الصفوف المتقاطرة أربعة وستون صفا) .

رئيس الجيش، أو قائد الجيش (ولديه من الرجال أربعة آلاف وستة وتسعون رجلا، وفيه من الصفوف مائتا صف وستة وخمسون صفا).

الخميس (وفيه من الرجال ثمانية آلاف ومائة واثنان وتسعون رجلا، ومن الصفوف خمسمائة واثنا عشر صفا) .

العسكر الأعظم (وهو كل خميسين وفيه من الصفوف ألف وأربعة وعشرون صفا ومن الرجال ستة عشر ألفا وثلاثمائة وثمانون رجلا).

وصف الجيش بأنه الجحفل، والعرمرم واللهام ، واللجب، والخميس.

الفيلق (هي القطعة من العسكر).

وكان العرب يسمون الجيش (خميسا) لتكونه من خمسة أقسام : قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وساقة، ويتحدث الهرثمي عن التعبئة الخمسية ويسميها "تعبئة الزحف الأعظم" وتتألف من خمسة أحيان : الحين الأول وهو القلب والميمنة والميسرة.

الحين الثاني يأتي وراء الأول ويتكون من : من وراء القلب والميمنة والميسرة ويسمى ردء القلب ويبدو أن الحين الثاني هو صف المدد (الردء).

الحين الثالث فيأتي وراء الثاني ويتكون من الأثقال، وهي ما يرافق الجيش من رجال، ونساء، وأطفال، ومتاع، وجمال، وأموال. ..

الحين الرابع فيأتي بعد الأثقال ردء الأثقال.

الحين الخامس بعد ردء الأثقال وقد سماه الهرثمي الساقة وهم مؤخرة الجيش.

ويشير الهرثمي، إلى أن التعابي للحروب كالأرواح للأجساد، ومن ثم فهي فن توزيع

الوحدات والأرط العسكرية، وتتخذ التعبئة على بعد خمس مراحل من العدو سواء كان الجيش كثيفا أو قليلا، وأقل ما يتولى الحرب هو تسعة أنفار.

التعبئة في المسير:

يقول الهرثمي أن الجيش لا يسير إلا على تعبئة بحيث يكون جاهزا للقاء العدو وتكون هذه التعبئة تتقدمها الطلائع، تتبعهم القوة ومعها الفعلة لإصلاح الطرق وقطع الأشجار وإقامة الجسور والمعابر وحفر الآبار.

ويسير الجيش إلى الأعداء تتقدمه الفرسان وبجانبهم النشابة ثم الرجالة في صفوف متراصة ويليهم صفوف الجمال المحملة بالعدد والعتاد ثم الأطباء وآلات الحرب الثقيلة من منجنيقات وعرادات محملة على ظهور الجمال والخيل والبغال التي تسير في المؤخرة.

وعند بدء الحركة، يقوم صاحب التعبئة عنها بتوزيع رجال في أرجاء المعسكر وهم مسلحون، فيسير الناس أولا والخيل واقفة، ويعرف كل قائد بمهامه أثناء السير.

وقد كان الجيش الرستمي إذا تحرك يسير على تعبئة من مقدمة وقلب وميسرة وميمنة بين كل جزء منها مسيرة يوم، وكان لكل قبيلة رايتها، وتسير في مؤخرة الجيش الخيام واللوازم على البغال والجمال ترافقها الأغنام الحية يسوقها الرعاة تتخذ للمؤونة.

ويعتمد الجيش الرستمي زيادة عن ذلك في تموينه على البلد الذي يمر فيه سواء كان صديقا أو عدوا.

التعبئة في النزول والمقام:

عند نزول الجيش في المعسكر، لابد من معرفة المكان جيدا ومدى توفر الأمن والماء والكلأ والمسالك الآمنة والسهلة. ويشترط أن يكون المعسكر محصنا طبيعيا كأن يستند الجيش إلى العوارض الطبيعية كالجبال والتلال، وأثناء النزول تقام العسس وترسل الطلائع لتقصي أخبار العدو وتحفر الخنادق حول المعسكر، وهو ما

طبقه الجيش الأغلبي عند خروجه للقاء عبد الله الشيعي بقيادة أبو حوال، إذ جعل عساكره تسير زحفا بتعبئة كما تعبى العساكر عند لقاء القتال.

فإذا نزل لم يبت إلا في خندق يحتفر حوله من وقت نزوله، فلا تغرب الشمس إلا وقد تم، فقد رتب ذلك على رجال أوقفهم له بقياس معلوم بأذرع معدودة ورتب نزولهم على ترتيب معلوم، فكل قوم قد علموا وعرفوا مكانهم، فإذا أظلم الليل عليهم وقف الحرس على أبواب الخندق ودارت له الرجالة من داخله بالدرق والخيل تعس دون الرجالة في داخل الخندق وتخرج ألفا فارس فتعس حوله إلى أن يصبح، فساروا على ذلك الترتيب وكان الزمان زمان شتاء، وأثناء الرحيل يهيىءالقائد القوة لتأخذ مواقعها حول المعسكر لئلا يهاجم المعسكر أثناء الرحيل.

التعبئة في القتال:

عند وصول الجيش إلى ساحة القتال تتم تعبئته بترتيب الصفوف بعد جمع المعلومات عن العدو واستعداداته وعن أرض المعركة واختيار المكان والزمان المناسب للمعركة، بحيث يكون ظهر الجيش في مأمن وشكل الصفوف في شكل جبهة عريضة مكونة من القلب والأجنحة تتخللها فرجات للخروج والدخول خاصة للفرسان ويختار للقلب موضع مشرف على أرض المعركة حتى يستطيع القائد مراقبة أوضاع الجيش والتدخل عند الضرورة لتسوية الثغرات ويراعى في المعركة كذلك أحوال الطقس وخاصة الرياح والشمس.

وإذا لم تكن الظروف مناسبة يحرص القائد على تأجيل اللقاء إلى وقت مناسب كما كان يفعل أبو عبد الله الشيعي في بداية غزواته ضد الأغالبة.

ومن الأمثلة أيضا حرب القائم بأمر الله مع زناتة سنة 315هـ/928م والتي عبأ فيها جيشه على النحو التالي:

جعل في القلب جيملة وفي الميسرة أجانة وعساكر إفريقية وفي الميمنة ملوسة وبقية المغاربة وفي الساقة لهيصة.

أما الخطة التي طبقها المنصور في معركة مقرة، فلم تكن معهودة إذ جعل في الميمنة جيملة ولهيصة من قبائل كتامة، وجعفر بن علي صاحب المسيلة وألحق بهم بشرى الخادم بعد ذلك وجعل في الميسرة ملوسة وأجانة من قبائل كتامة أيضا وجعل معه في القلب خاصة الأولياء من كتامة والعبيد من عسكر البرقيين وجعل طائفة من رجال الجزيرة (جزيرة شريك) وجندها في ظهر الميمنة وأعطاهم بندا وطبلا، وجعل طائفة منهم أيضا بالميسرة وأعطاهم بندا وطبلا.

أشكال الصفوف في القتال:

الصف المستوي: ويكون فيه القلب والميمنة والميسرة على استقامة واحدة.

الصف الهلالي: ويكون القلب متأخر عن الجناحين قليلا وفي هذه الحالة، يجعل مع كل من الميمنة والميسرة كردوسا من الخيل المقوية.

الصف المعطوف: وهو الداخل الجناحين، الخارج الصدر ولا يكون إلا عند الضرورة، وفي هذه الحالة يتم تقوية القلب بكردوسين من الخيل عن يمينه ويساره.

ومن أشكال الصفوف الهلال البسيط والهلال المركب الذي يكون إلى جانبه هلالان كأنهما جناحان.

ومن التعابي، تعبئة اقتحام المدن والحصون وقد استخدم العرب أساليب مختلفة منها ما استخدموه في صوائفهم وشواتيهم، وهي إغارات محددة سريعة وخاطفة ثم يعود الجنود أو الغازون إلى مواقعهم.

وهناك طرق لمحاصرة القلاع والحصون، فإن كان أهل الحصن أهل مناجرة فتتم مطاولتهم ومراوغتهم، وإن كانوا أهل مطاولة ومراوغة تتم مبادرتهم وتتخذ الخنادق للحماية والخيول الرابطة والطلائع حتى لا يخرج أهل الحصنفيهاجمون.

وبالمقابل كانت ثغور المسلمين تتعرض للهجوم والغارات، لذلك كان يتم تعيين المواقع لتسهل الدفاع عنها، إذ يوضع في الحصن أهل الصبر والجلاد ويزود بالآلات والأسلحة والمؤنو تكون أساليب القتال المطاولة والمدافعة، ويوكل قائد الحصن

بكل موضع من يقوم بمسكه وحراسته والدفاع عنه من أبواب وأركان وبروج وشرفـو سدد ومحارس ومناظر ومراتب وخنادق.

وكانلأخذ الجيش العربي لنظام الصفوف فوائد شتى، حتى أن ابن خلدون حددها بثلاث فوائد:

1- تكون الصفوف أثبتت عند المصارع وأصدق في القتال

2- أرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد الذي لا يطمع في إزالته

3- المقصود منهحفظ النظام، أي أن يؤمن تحقيق مبدأ السيطرة أكثر من نظام الكر والفر

نظام الكراديس:

الكردوس من أصل يوناني وأغلب الظن أن الروم أخذوها كما أخذوا سواها من التنظيمات العسكرية عن اليونانيين، وتعني فرقة الجيش أو كتيبة تعدادها يتراوح بين 600 عند الروم و1000 عند العرب وتنقسم إلى أجزاء عشرية.

1- العريف: يأمر عشرة رجال.

2- آمر الأعشار: يأمر عشرة عرفاء (أي 100 رجل).

3 - قائد الكردوس: يأمر عشرة من أمراء الأعشار (أي الألف رجل).

و أجمع المؤرخون على أن خالد بن الوليد هو أول من استعمل التعبئة بالكراديس سنة 646 م واعتبر صنيعه هذا فتحا جديدا في الفن العسكري العربي وسميت تعبئته "بالخالدية" وتم ذلك في معركة اليرموك سنة 634م، إذ قسم الجيش 38 كردوسا وقيل سنة وثلاثين مع المحافظة على نظام الخميس في ترتيب الجيش.

و للسيطرة أكبر على قواته، قام بجمع الكراديس إلى بعضها حسب نظام الخميس بحيث جعل كل عشرة منها في تعبئة واحدة وذلك على النحو التالي:

أ - أمير التعبئة الأولى : أبو عبيدة ابن الجراح على كردوس القلب

ب - أمير التعبئة الثانية:عمرو بن العاص ويساعده شرحبيل بن حسنة على كراديس الميمنة

ج - أمير التعبئة الثالثة: يزيد بن أبي سفيان على كردوس الميسرة

ووزع الكراديس العشرة الباقية على الطلائع والساقة، وقد حقق هذا النظام نصرا كبيرا سواء في اليرموك أو في القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص

وتحرير الشام بقيادة خالد بن سعيد وقد بدأ هذا النظام سنة 128هـ/745م.

ويستخدم عادة نظام الكراديس في الجيوش كثيرة العدد لأنها أثبت في الحرب من الأنظمة الأخرى فإن انهزم كردوس يثبت كردوسا في حين نظام الصف إذا انهزم بعضه تداعى سائره.

نظام الخميس:

عبأ العرب جيوشهم في خمسة أجزاء هي:

-الطليعة، و تكون في مقدمة القلب من الجيش وتكلف بصد أي هجوم مفاجئ.

- الهلال المقلوب، وهو عكس الهلال المرسل أو الحاد .

- المعين، المربع المنحرف.

- المثلث.

- الدائرة المزدوجة: وهي دائرة داخل الأخرى وتتخذ في حالة كثرة جنود العدو وقلة جنود المسلمين، أي نظاما دفاعيا بالدرجة الأولى.

- المربع : يستعمل في حال نقص عدد الخيالة في الوسط ليدعموا الجناح المهدد. وفي كل من هذه الأشكال السبعة كان الجيش يرتب على نظام الخميس

وبتصفح الكتب العسكرية التي ألفها العرب، نجدأبحاثا كثيرة في أشكال التعبئة والأحوال التي يجب اتخاذ مثلهذه الانفتاحات فيها، حسب ظروف القتال والمكان والزمان وعدة الجيش.

كما ذكرت بعض الإيعازات التي كان القادة ينطقونها لينفذ الجيش إحدى الانفتاحات المطلوبة، أو لينتقلوا إلى بعضها وهي:

الميل	استدارة مطلقة
الانقلاب	أصناف
الانتقال	إتباع الميمنة
تسوية الانتقال	إتباع الميسرة
استدارة صغرى	جيش منحرف
استدارة كبرى	جيش مستقيم
تقـــاتر	تقدم
اقتران	حشو
رجوع إلى الاستقبال	رادفة
	ترتيب بعد ترتيب

وكان الوصول لإحدى هذه التشكيلات يتم عن طريق السماع أو قرع الطبول أو نفخ البوق أو هز الراية أو إعطاء إشارة بالأيدي ويمكن أن نسميها اليوم بـ (شارات الميدان).

ويقال أن العرب عرفوا نداءات خاصة كانوا يحركون بها جندهم مثل:

السلاح، السلاح،	الطلب بها الجيش للقتال
النفير، النفير	القيام بالهجوم
الرجعة، الرجعة	الانسحاب
الخيل، الخيل	امتطاء الخيول
الأرض، الأرض	الترجل

وغيرها من الإيعازات الكثيرة التي نصادفها في كتب التراث.

الاستراتيجية العسكرية الرستمية

يبدو للباحث أن الاستراجية العسكرية للدولة الرستمية تختلف عن بقية الدول المغربية لأنها لم تكن دولة تعتمد على المؤسسة العسكرية بل لجأت إلى مسالمة الدول المجاورة لها لأنها لا تشن حرب ضد أي دولة بل كانت هذه الدول هي التي طمعت في ملكها مثل الأغالبة والأدارسة الذين اقتطعوا منها أراضي والفاطميين الذين كانوا السبب في إزالتها من الوجود ولذا فإستراتيجيتها العسكرية مبنية على الدفاع بالدرجة الأولى وهو ما جعلها توجه العناية الكبرى للتحصينات العسكرية ومن بين التحصينات نذكر على سبيل المثال.

تيهرت :

إن تيهرت من بين أسباب البناء أن تكون قلعة للإباضية الذين فروا من القيروان بعد هزيمة ابن الخطاب أمام جيش ابن الأشعث لذا رأى عبد الرحمان بن رستم أن تكون المدينة أداة حصانة طبيعية وهو ما جعله لا يقوم بتيهرت القديمة وبمرور الزمن تأسست بها أبنية عسكرية منها القصبة، لأن الظروف الأمنية أدت إلى بناء القصبة التي كانت مشرفة على السوق تدعى المعصومة ولعل ذالك كان عندما احتدم الصراع في عهد الإمام افلح وازداد معها بناء القلاع والحصون بداخل المدينة وخارجها نتيجة للفتن التي تعرضت لها فيذكر ابن الصغير بعض الفتن منها الهزائم التي منيت بها القوة المعارضة للإمام أبو بكر مما جعلها تشيد حصن فاجتمعوا بعدوة نفوسة وبنوا به حصنهم.

وهنا تقدم وجوه التجار فقالوا للعرب والجند لو بنيتم حصنا تأمنون فيه ليلكم وتتحصنون به أن دهمتم عدوكم وهذه أموالنا في أيديكم فشرعوا في بناء الحصن.

بل إن بعض الحصون لم تظهر إلا في عهد الإمام أبي حاتم ادحين علمت العامة ومشائخ الباد أن الحرب داهمتهم أسرعوا ببنيان حصنهم.

يتجلى مما سبق أن التحصينات في تيهرت لم تقم بها الدولة وحدها كما هو الحال بالنسبة لبعض الدول بل السكان عندما يشعرون بعدم الأمان.

كانت أيضا تحيط بمدينة تيهرت أسوار من الحجارة ولها أيضا أبوب منها باب الصفا وباب المنزل وباب الأندلس وباب المطاحن.

من بين الحصون التي تعرض لها ابن الصغير حصن لواتة وكان للرستميين حصنهم بتماليت في أطراف لواتة يقع على نهر ميناء فيه مواشيهم وعبيدهم وحصن لنفوسة أهم قبائل الدولة التي كانت مستقرة بليبيا ثم بعد بطونها انتقلت إلى تيهرت بعد تأسيس الدولة وساهمت في الصراعات التي دارت في تيهرت مما دفع بها إلى إقامة حصن لها وللعجم حصنهم على مرحلتين من المدينة كانوا يتوجهون إليه عندما يشعرون بالخطر.

يضاف إلى الحصون القلاع التي انتشرت هي الأخرى في محيط مدينة تيهرت وبعضها يرجع إلى العصور التي سبقت قيام الدولة الرستمية منها قلعة أو حصن بقاجنة بتيهرت القديمة أضاف ابن عذاري قلعة أخرى عرفت بقلعة ابن حمة نسبة لصاحبها وهناك قلعة مغيلة هذه الأخيرة لا تبعد كثيرا عن تيهرت الحالية.

المصادر والمراجع :

- ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر، ط بيروت 1967-1968.
- ابن عذارى (المراكشي)، البيان المغرب، 4 أجزاء، بيروت 1967.
- ثابت (نعمان)، الجندية في الدولة العباسية، ط 2، بغداد 1956م.
- الثعالبي (عبد العزيز)، تاريخ شمال إفريقيا، دار الغرب الإسلامي 1987م.
- الجنابي (خالد جاسم)، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي دارالثقافة العامة، بغداد. (د. ت).
- السامرائي (عبد الجبار محمود)، نظم التعبئة عند العرب، المورد 21، 1983م.
- سعد زغلول (عبد الحميد)، تاريخ المغرب العربي حتى قيام الفاطميين، الإسكندرية 1979م.
- الشيخلي (صباح إبراهيم)، الاستراتيجية الحربية العربية في بلاد المغرب في القرن 5هـ، المورد 12، ع 4، 1983م.
- الدشراوي (فرحات)، الخلافة الفاطمية في المغرب، ترجمة حماي الساحلي، دار الغرب الإسلامي 1984.
- عون (عبد الرؤوف)، الفن الحربي في صدر الإسلام، دار المعارف المصرية، مصر 1961م.
- القيرواني (الرقيق)، تاريخ إفريقيا والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس 1968م.
- المناصير(محمد عبد الحفيظ)، الجيش في العصر العباسي الأول، الأردن 2000م.
- النعمان (القاضي)، افتتاح الدعوة، تحقيق الدشراوي، تونس، الجزائر 1986.
- الهادي (روجي إدريس)، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي 1992م.
- هنري (إحسان)، الحياة العسكرية عند العرب أو الجيش العربي في ألف عام مطبعة الجمهورية، دمشق (د ت).

2

الاستراتيجية العسكرية الفاطمية والحمادية

الاستراتيجية العسكرية الفاطمية

الجيش الفاطمي :

سيكون التركيز بالدرجة الأولى على المرحلة المغربية وعلى الخصوص الجزائر.

إن الدولة الفاطمية تختلف على الدول المغربية التي اعتمدت في قيامها على العصبية القبلية فهي اعتمدت على النسب الشريف وهو ماجعل الكتاميين يجندون فالدعوة الإسماعيلية وراء أبى عبد الله الصنعاني الذي اختير لكي يكون قائد لهذه المرحلة من قبل أكبر دعاة الإسماعيلية وقد سبق أن أقام دعاة سابقين ببلاد المغرب وبالخصوص الجزائر واختيار هذه الأخيرة لإقامة خلافة فاطمية يرجع إلى مجموعة من العوامل منها على الخصوص بعدها عن عاصمة الدولة الأغلبية وقلة موالاة أهلها للدولة وعدم مشاركتهم في أحداث بلاد المغرب عكس بقية القبائل الأخرى التي ساهمت في قيام دولة الأدارسة أو الرستميين أو الأغالبة كذالك تطرف إقليم كتامة لأنه بعيد عن المسالك التجارية وهذا ما جعل الرحالة يفشلون في تحديد ايكجان عاصمة الدعوة ومن هؤلاء ابن حوقل الذي زار الجزائر خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وحتى الدراسات التاريخية الحديثة لم تصل هي الأخرى إلى تحديد المكان نتيجة لعدم وجود حفريات بالمكان المتعارف عليه لآن.

يضاف إلى ما سبق أن رجل الدعوة تمكن من تجنيد كل السكان لصالح الدعوة بعد تغلبه على المعرضين له من أعين القبيلة وبعض بطونها ولم يقتصر الأمر على الرجال بل شمل أيضا النساء حيث قدمن خدمات للدعوة وأصبحن يعرفن بالمجاهدات ورجالها بالمجاهدين وبهذا يكون الداعي قد لجا هو الآخر إلي إدخال الجانب الديني في دعوته.

محاصرة القبائل المعارضة للخلافة وهذا يبدوا لي انه بدا في مرحلة الدعوة حيث عمد الداعي إلى تحصين ايكجان ولا تزال إثارة التحصينات لتلك القلعة ماثلة للعيان لحد الآن وكذا تازرت التي دمرت عن آخرها من قبل الجيش الأغلبي عندما تخلى عنها الداعي وعاد إلى ايكجان من جديد حيث توجد أيضا الحصانة الطبيعية أصبحت حمالته تنطلق منها نحو مدن الشرق الجزائري قبيل معركة الإربس التي كانت النهاية بالنسبة للأغالبة.

كما عمد أيضا إلى تحصين المدن الواقعة بالقرب من جبال الأوراس وعلى الخصوص سفوحه منها باغاية وبلزمة التي كانت تتميز بحصانتها مما جعل الداعي يفشل في السيطرة عليها خلال الهجوم على مدن سفوح الأوراس فيبدوا لي أنه بعد فتحها أعاد تحصينها من جديد وما يقال عليها ينطبق أيضا على مدينة طبنة التي اعتبرت من أهم مدن الإقليم فكانت عاصمة لإقليم الزاب ولهذا تتميز بتحصيناتها ولم يتمكن الداعي من الاستيلاء عليها إلا بعد استعمال أسلحة ثقيلة خاصة بالتحصينات كالدبابة وربما المنجنيق وقد استفاد من أسلحة الجيش الأغلبي التي تحصل عليها خلال انتصاراته عليه خاصة في معركة الكرمة بقسنطينة.

ومن بين المدن التي أعطيت لها أهمية مدينة بغاية التي كانت هي الأخرى تتميز بحصانتها وقوة أبراجها فدخلها أعاد بناء ما تهدم منها من التحصينات.

وعندما استولى على رقاده والآتيان بالخليفة عبيد الله المهدي رأى هذا الأخير أن رقاده غير صالحة لتكون عاصمة للخلافة الفاطمية التي تهدف إلى السيطرة على العالم الإسلامي ولذا أسس المهدية أقام لها تحصينات صرح بعد إتمامها أنها

ستحمي الدولة من أي خطر وهذا ما حدث عندما هوجمت من قبل قوة صاحب الحمار لم يتمكن هذا الأخير من فتحها بعد استلائه على مجموعة من المدن الجزائرية والتونسية.

كما كان للفاطميين دور مهم في مساعدة زيري بن مناد في إقامة أشير وتحصيناتها لتكون سدا منيعا أمام القوة الزناتية التي أعلنت معارضتها للدولة منذ مرحلة قيامها أعلنت الولاء للخلافة الأموية بالأندلس.

وبالقرب منها أسس القائم بأمر الله المحمدية المسيلة حاليا لتكون حصنا منيعا يراقب تحركات القبائل الزناتية التي كانت تتخذ من المنطقة معبرا لها نحو الواحات الصحراوية خلال فصل الخريف والعودة للمناطق التلية خلال فصل الربيع وتحولت إلى إمارة فيما بعد باستقرار الأندلسيين بها أصبحت تحمل الطابع الأندلسي حيث استقبلت المعارضين للخلافة الأندلسية بالأندلس وعلى رأسهم ابن هانيء الأندلسي الذي كان الناطق الرسمي للدولة من خلال أشعاره في مدح انتصاراتها.

لم تتوقف الإستراتيجية العسكرية عند هذا الحد بل استعملت القبائل المغربية لصالح خطط الدولة فقدرات الدولة أهمية مكناسة لموقعها في منطقة ذات أهمية من حيث النشاط التجاري وتحركات القبائل لأن مضاربها تمتد مابين وادي ملوية وسجلماسة التي هي من أهم الأسواق التجارية ببلاد المغرب.

وأهمية مكناسة جعل الخلفاء يستعملون قادتها لصالح الدولة فقد عين مصالة بن حبوس على تيهرت خلفا لدواس اللهيصي الذي حكمها من قبل وتيهرت تحتل مكانة كبيرة عند الفاطميين لأنها تعتبر من أهم القواعد الغربية واستعملت في مد نفوذ الدولة نحو أراضي المغرب الأقصى حيث يتواجد الأدارسة والجنوب المغربي حيث دولة بني مدرار ومراقبة تحركات الزناتيين وعلى الخصوص المغراويين بزعامة محمد بن خزر.

وتيهرت تتميز بحصانتها منذ عهد الدولة الرستمية حيث نجد مجموعة من الأبراج والقلاع داخلها وخارجها مما جعلها تصمد مرارا في مواجهة الزناتيين وأحيانا تسقط لكنها تعاد لصالح الدولة بعد إيصال الإمدادات لها.

وتعيين المكناسيين يندرج في إطار التخلص من نفوذ الكتاميين في الدول
واستبدالهم بآخرين يمكن لهم تحقيق خطط الدولة وهذا ما حدث في الميدان حيث
استطاع مصالة بن حبوس مع بعض قادة مكناسة من مراقبة الزناتيين والإقلال من
ضررهم على الدولة إلا انه قتل خلال المواجهة معهم ومقتله كان خسارة كبيرة للدول
وعلى الرغم من تعيين يصل بن حبوس على ولاية تيهرت ؛ إلا انه لم يتمكن من تحقيق
المشروع الفاطمي فقد تمكنت الجوسسة الأموية من جلبه لها وبذالك تفقد الخلافة
الفاطمية مكناسة التي ستتحول إلى المعارضة بقيادة موسى بن أبى العافية وفي
نفس الوقت تقوم قبيلة بني يفرن بثورة يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني
بالتعاون مع أعداء الدولة من أمويين وزناتيين ومالكيين وتتمكن تلك الثورة من تحقيق
انتصارات على الجيش الفاطمي في معارك عديدة وتستولي على مدن الدولة الواحدة
تلو الأخرى وكادت أن تزيل الوجود الفاطمي من بلاد المغرب لولى حنكة المنصور
والأخطاء المرتكبة من قبل قائد الثورة والقبائل الموالية له حيث تحولت الثورة إلى
عملية السلب والنهب فاستغل هدا من طرف المنصور الذي تمكن من ربط العلاقات
مع زيري بن مناد زعيم تلكاتة الصنهاجية فدخلت حلبة الصراع إلى جانب الفاطميين
كما استعاد العلاقة مع كتامة فتجندت هذه الأخيرة لانقاذ الدولة من السقوط وينفس
الوقت استغل الصراع المذهبي بين الوهابيين والنكاريين لصالحه وإرشاء شيوخ زناتة
من قبيلة مغراوة حتى لا تقدم يد المساعدة للدولة وبهذا ضمن النصر واستمرار
الدولة فخرج بنفسه وتولى قيادة جنده في مواجهة صاحب الثورة الذي تحول من
الهجوم إلى الدفاع بعد أن تخلت عليه القبائل التي توافدت عليه من أجل الغنائم.

فاستعاد المنصور أملاك الدولة وحاصر صاحب الثورة بقلعة أبى الطويل التي
ستعرف لاحقا بقلعة بني حماد بالقرب من المسيلة حاليا وبعد التخلص منه تقوم
الجيوش الفاطمية بحمالات عسكرية تميزت بالشدة ومست أغلب القبائل التي
تعاونت مع أبى يزيد مخلد بن كيداد فحرقت مساكنها وأتلفت ما كان بداخلها وأسر
سكانها وامتد ذالك إلى المناطق التي انضمت إلي الخلافة الأموية وكل ذلك كان
بفضل المساعدة الصنهاجية والكتامية.

الجيش الفاطمي

إن الدولة الفاطمية استعملت منذ انطلاقتها أساليب لا تختلف عن ما هو معمول به الآن ومنها .

الجوسسة:

راح الفاطميون يمهدون لإقامة دولتهم في كل العالم الإسلامي بالدعاية الشبعية ولهذا انتشر الدعاة في أغلب العالم الإسلامي حيث رافقوا القوافل التجارية وركب الحجاج في انتقالهم حتى لا يكتشف أمرهم وركزوا على الدعوة لـ آل البيت خاصة آل علي الدين هضمت حقوقهم واضطهدوا من قبل النظم الإسلامية منذ عهد علي رضي الله عنه إلى عصرهم[1] .

كما اعتمدوا على الجواسيس لمعرفة أحوال البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها وكان يقوم بهذه المهمة أمهر دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون أهدافهم بستار المصالح المشروعة كالتجارة وطلب العلم ومن بين الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس الرحالة أبو القاسم ابن حوقل المتوفى 367 هـ / 977م [2]، والذي قدم تقريرا مفصلا للدولة الفاطمية عن الأحوال السياسية للخلافة الأموية ومداخيلها من الخراج وغيره وسهولة الاستيلاء عليها في حالة تجنيد قوة عسكرية.

وقد انتبه بنو أمية لهذا الخطر فأبعدوا ابن هاني الأندلسي[3] الشاعر إلى المغرب الذي كان يعمل لصالح الفاطميين وأصدروا أوامر تتعلق بمراقبة هؤلاء حيث يتمكنوا من شل حركة الجوسسة الفاطمية في الأندلس.

ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل أرسلوا جواسيسهم إلى بلاد المغرب وتمكن هؤلاء من اكتساب أنصار للأمويين خاصة في الجزائر حاليا أمثال محمد بن خزر المغراوي[4] وموسى بن أبي العافية المكناسي [5] ويصل بن حبوس قائد مدينة تيهرت ويعلي بن محمد اليفريني أمير أيفكان[6].

كما خصص الفاطميون جهاز إداري يشرف على الناحية الإستخبارية ويبدو لي أن له صلة مباشرة بالخلفاء ولذا أشرفت عليه شخصيات مهمة في الدولة من أبرز هؤلاء القاضي النعمان الذي قدم خدمات جليلة للخلفاء الفاطميين لا سيما المهدي والقائم بأمر الله في مجال الاستخبارات لعلمه ولعلاقته بشخصيات عديدة.

فالدولة في هذا الوقت كانت في أشد الحاجة لمعرفة مجريات الأمور حتى تتمكن من أخذ القرارات المناسبة خاصة وأن الفاطميين أعلنوا خلافتهم في وسط سني معاد لهم.

كما دس الفاطميون رجال من جواسيسهم يرافقون الحمالات العسكرية ويتجسسون على قادة الجيش وعندما يعود لقواعده يقدمون تقارير مفصلة وأحسن مثال على ذلك التقرير المقدم لعبيد الله المهدي عن الاجتماع الذي عقده الداعي في تنس[7] والذي حث فيه التخلص من الخليفة بقتله.

فكان هذا التقرير سببا في مقتل أبي عبد الله الصغاني.

القواعد العسكرية :

يبدو الباحث الدارس للتاريخ المغربي وخاصة الجوانب العسكرية فيتبين له أن أغلب مدنه بنيت لدوافع عسكرية فأغلبها تقع عند أقدام الجبال كمليانة وتلمسان وجزائر بني مز غنة وغيرها من المدن ممّا يسمح لسكانها بمطاردة العدو إذا اغلبوه والتجاء إلى الجبال إذا هزمهم [8].

وقد عبر القاضي النعمان عن هذه الاستراتيجية بذكره صياح الناس في إحدى المعارك مناداتهم الجبل والجبل يعنون أوراس حيث يجعلونه خلف ظهورهم وأن كان علينا أمرا تحصن به وأن كان لنا أتعبنا العدو بطول الفحص[9].

ولعل هذه الاستراتيجية هي التي حالت دون وصول القوة الفاطمية لأوراس إلا في المرحلة المتأخرة من عهد المعز فوصل إلى أوراس وحاصر القبائل المعارضة له خاصة الإباضية الذين انهزموا في معركة بغابة الواقعة بسفحه[10].

ومما يؤكد أيضا هذه الإستراتيجية أن أبا يزيد مخلد بن كيدال عندما حوصر من طرف الفاطميين لجأ إلى قمة تاقربوست وبدأ في قذف الحجارة على جيش المنصور بسفح الجبل [11].

تيهرت :

لعبت تيهرت دور أساسيا باعتبارها القاعدة المتقدمة للمغرب الوسط في عهد الدولة الفاطمية بحيث أصبحت المدينة قلعة تفرض من خلالها الدولة إرادتها على القوى المعارضة في المعربين الأوسط والأقصى خلال تلك المدة.

وقد اكتسبت تيهرت هذا الدور العسكري طوال أيام التواجد الفاطمي في بلاد المغرب وحتى رحيلهم إلى المشرق واتخاذهم القاهرة كعاصمة لهم سنة 361 هـ/ [12].

ولم تتمكن القوى المعارضة لهم والمتمثلة في الزناتيين وبالخصوص المغراويين وعلى رأسهم محمد بن خزر الذي بعث برسالة الناصر لدين الله يشتكي له من عدم استطاعته اقتحام تيهرت وفي هذا الصدد يقول "وها نحن يا سيدنا عازمون على النهوض إلى المصدرة السوء تاهرت وهي كما بلغت من وعورتها وصعوباتها وشموخ جبلها وأشب شعاراتها والبربر من قلة البصر ومحاصرة المداين ومساورة المعقل ومكايدة الحصون والجبل عليها بحيث تعلمه من العجز عن ذلك والقصور عن رومه لا يقوم بهذا الشأن إلا ذوو الحنكة المختصون أصحاب الأسلحة والشات والعدة[13] "

وأن تحصين المدينة سبق العهد الفاطمي بل يرجع إلى فترة الحكم الرستمي فخلال هذه المدة انتشرت الحصون والقلاع حول تاهرت وقد أشار ابن الصغير إلى بعضها فذكر حصن لوائه ولعل قبيلة لوائه التي توجد مضاربها حول المدينة كانت تلجأ إليه في حالة تواجد الخطر المتمثل في الصراع القبلي وكذلك علاقة الدولة الرستمية مع تلك القبائل التي تلجأ إلى السلاح وهو ما أدى بأئمتها إلى إقامة حصون من بينها حصن تنماليت في طرف لوائه لمراقبة تحركات القبيلة حيث يقع على نهر ميناي يحمي مواشي الأئمة وعبدهم[14]. أن كان لوائه حصنها فنفوسة. التي يتواجد البعض منها في تيهرت لها هي الأخرى حصنها[15].

لم يقتصر الأمر على القبائل التي أقامت لها حصون بل نجد أيضا العجم المتواجدين بالمدينة كان لهم حصنهم بتابغليت على مرحلتين من تيهرت وهناك أيضا حصن تالغمت خارج المدينة[16].

لم تبق الحصون خلال العهد الرستمي مقتصرة على الضواحي المجاورة للمدينة بل شملت المدينة نفسها خاصة خلال عهد أبو بكر فظهرت حصون للطوائف المتصارعة بداخل المدينة.

فنفوسة شيدت حصنها بالعدوة المعروفة بها[17]، وكذلك خصومهم العرب والعجم الذين لم يكن بينهم وبين حصن عدوهم إلا قدرة رمية رام بسهم حتى استدار حصنهم وركبوا له أبوابه[18].

لم تفقد تيهرت أهميتها خلال عهد الخلافة الفاطمية فقد أصبحت ثغرا هاما سمح للخلافة الفاطمية بمراقبة قبائل المغرب الأوسط وتحركاتهم، فإنهم قد اتخذوا منها مركزا رئيسيا يوجهون منه قوتهم نحو المغرب الأقصى.

المسيلة :

الدارس لموقع المسيلة يلاحظ أنها شيدت بمكان تميز سكانه بنوع من الاستقلالية عن دويلات المغرب الإسلامي قبل قيام الخلافة ولذا عندما حاولت هذه الأخيرة التوسع وقفت قبائل الناحية ضدها مما أدى بها إلى نقل بعضهم إلى فحص القيروان مثل بني كملان [19].

ورأى أنه من الأجدر لها بناء مدينة بتلك الناحية حيث تستعمل هي الأخرى في مراقبة تحركات القبائل الزناتية المتمردة بزعامة محمد بن خزر الذي كان يقوم بالتنقل بين التعليم التل والواحات الصحراوية متخذا من المسيلة بوابة له نحو الجنوب[20].

من جهة أخرى أن للخلافة الفاطمية كانت تجد صعوبات كبيرة في عملية تموين الجيش وهذا كان يتسبب لها في خسائر كبيرة مثل ما حدث خلال حملة القائم بأمر

الله وهو ما دفع به إلى الأمر ببنائها سنة 315 هـ / عند عودته من الحملة التي قادها نحو الغرب الجزائري.

من هنا رأى أنه من الأحسن ضرورة إقامة حصن في تلك المنطقة يكون قاعدة الجيش ومصدر لتموين الحمالات المتجهة نحو بلاد المغربيين الوسط والأقصى، وسيما المنافذ على القبائل المعارضة لذا أدرك القائم بأمر الله حاجته إلى هذه القاعدة.

وممّا يوضح الغرض العسكري من بنائها أن القائم أمر بالبناء عند انصرافه من حملته التي قام بها إلى بلاد المغرب الأوسط [21].

أختط المسيلة ورسمها برمحه وهو راكب على فرسه وقد أكد ابن خلدون الوظيفة التموينية للمسيلة «فقال إنها أميرة للعساكر عند محاصرة المنصور لأبي يزيد مخلد بن كيداد بجبل كيانة».

القلاع :

الدارس الجزائر يلاحظ وجود عدد كبير من القلاع استمر وجودها من العهد الروماني حتى العصور الوسطى وحتى بعض القرى في المناطق الجبلية هي عبارة عن قلاع محصنة مثل ما هو عليه الحال في الونشريس وجرجرة والأوراس [22].

تعرضت المصادر التي استطعنا الإطلاع عليها إلى بعضها منها قلاع تيهرت التي أخذت تتسع بسبب الحروب التي تعرضت لها خلال العهدين الرستمي والفاطمي الذي يعتبر عهد الحروب.

والفتن بالنسبة لتاهرت ممّا يجعل تاريخ ظهور تلك التحصينات كقصبة المعصومة[23].

وبالنسبة لجراوة فإن طبيعة الأرض التي شيدت عليها المدينة حالت دون بناء حصن لعدم توفر المكان المرتفع ممّا دفع بأمرائها إلى الخروج بجبل قريب منها فشيدوا به حصنا لحماية أنفسهم وهذا الحصن هو الذي استولى عليه صندل عندما جاء لمساعدة ميسور الفتى.

وأما فيما يتعلق بتنس الحديثة فكان بها حصن استفاد منه التجار المتوافدين عليها فاتخذوا منه قاعدة أمة ينزلونها فتوافد على تلك القلعة أهل البيرة وتدمير وكانت تنس تتوزع بين سهل وجبل بينها وبين البحر ميلان وهي مسورة حصينة داخلها قلعة صعبة ينفرد بسكانها العمال" [24].

لم يقتصر الأمر على تنس بل نجد المدية فاختطاط المدية كان لهدف عسكري لدمنها يمكن لزيري ومن جاء بعده بسط السيطرة على القبائل الصنهاجية في تلك المنطقة وبجيش الجيوش [25].

وما يقال عنها ينطبق على جزائر بني مزغنة بسهل متيجة التي أعاد بنائها بلكين بن زيري وأقام حولها أسوار شامخة كان الهدف من إعادة بنائها الجانب العسكري حيث أصبحت مع مليانة والمدية بشكل جدار يحمي الدولة من غارة الزناتين الذين لا يزالون يشكلون خطرا على دولته على الرغم من تصديه لهم وأبعادهم للمغرب الأقصى وهجرة بعضهم إلى الأندلس[26].

وهناك قلعة أبي الطويل التي تحصن بها أبو يزيد مخلد بن كيداد عندما داهمته الجيوش الفاطمية، إلا أنه يبدو لي أن تلك القلعة دمرت وأعيد بنائها بلكين بن زيري وأن تلك القلعة توجد فوق جبل تاقريست يذكر الحمري أن بلكين بنى قلعة في ذلك الموقع سنة 373 هـ، إلا أن هذا التاريخ يتناقض مع الأحداث لأن بلكين توفي بالقرب من سجلماسة نفس السنة ممّا يجعلنا نعتقد بأن الزناتيين شيدوا قلعة لهم وقد ورد ذكرها باسم قلعة تاقربوست [27].

الأسوار :

من بين التحصينات العسكرية الأسوار بالنسبة للأسوار فهي تتعلق بارتفاعها وعرضها وطبقاتها المختلفة والأبراج والشرفة على رأس الأسوار والفار تينات مثل أضراس الكلاب وطاقات الأسوار والخنادق والأبواب المصفحة بالحديد.

أسوار تيهرت :

لا يشير ابن الصغير إلى أسوار تيهرت بل يكتفي بأبواب المدينة مما يدل على وجود الأسوار فحين يتعرض إلى قتال أبي حاتم وعمه يعقوب بن أفلح يذكر أن هذا الأخير أمر بأبواب المدينة فغلقت إلا بابا واحدا "[28].

ويرى العزيري أن سور تيهرت شيد من الحجر وقد دلت الأبحاث الأثرية أنها كانت محاطة بسور من الحجر محض بأبراج في زوايا ذات قواعد على شكل مضلع وبدعائم مربعة يبلغ طول ضلعها خمسة أمتار.

أسوار تلمسان :

يصف اليعقوبي مدينة تلمسان يقول عنها "يحيط بها سور من الحجارة وخلفه سور آخر من الحجارة وهي أجادير الآن" [29].

في حين يقول عنها ابن حوقل يحيط بها سور من الآجر ولعل الأسوار التي ذكرها اليعقوبي تعرضت الانهيار نتيجة للحروب السابقة [30].

ومدينة ابن ماما القريبة من تيهرت يحيط بها سور طوب [31] وأن كثرة الحروف خلال عهد الرستميين والفاطميين أدى إلى الاهتمام بالأسوار وللوصول لهذه الغاية كانوا يبنون أسوار متينة وحصينة أو يلجأون في بنائها في غاية الارتفاع والعرض كسور مدينة أيفكان إلا أنه لم يحمي المدينة من التدمير التي أصابها خلال حملة جوهر الصقلي [32] وأحيانا سور بن بدور أحدهما بالآخر وتقتضي الغاية أن تفصل بينهما مسافة مثل ما هو الحال بالنسبة لتلمسان والمسيلة.

وكان يحفر الخندق بين سورين مثل ما هو عليه الحال في المسيلة.

فكانت المسيلة عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة[33].

الحصون :

دعت الضرورة العسكرية التي عرفت خلال العصور الوسطى إلى تشيد حصون لأغراض دفاعية وأغلب القبائل الطاعنة والمستقرة لها حصونها التي تلجأ إليها عند الشدة.

فقد انتشرت الحصون حول تيهرت فقد أشار ابن الصغير إلى عدد منها فذكر حصن لوائه وحصن تماليت في طرفي لوائه يقع على نهر مينا.

وأن لزواعة ومكناسة ومطماطة حصونها وقد تعرضت لتلك الحصون المصادر الإسماعيلية لأن المعارضين للدولة الفاطمية استعملوها ومن بين تلك الحصون حصن برقاجنة المعروف بتيهرت القديمة وهو ما أكده ابن عذاري الذي ذكر أن تلك المدينة لها حصن يعرف بأغزر [34].

وفيه كان مولد الشاعر بكر في حماد، وهو الذي حاصره القائم بأمر الله ونقت سوره حتى سقط على سكانه [35].

ويذكر البكري مجموعة من الحصون منها حصن ابن زيني وحصن الفروس وحصن الوردانية وحصن هنين.[36]

كما شيد الحسن بن أبي العيش بجبل قرب حراوة تحيط به مدغرة وبني يفرن [37].

وكانت أشير عبارة عن حصن لا يمكن الوصول إليها إلا من موضع لخمسة عشرة رجال [38] وهو في الجهة الشرقية منها.

وجد الفاطميون صعوبات جمة في الاستيلاء على هذه الحصون والقلاع التي تحتاج إلى نوع من الأسلحة تتمثل في القسيّ المحكمة الصنعة والشاب والحسبان والجراد والمراكن المنجانين والعرادات والمقاليع والقسي الهندية والحجارة المهياه لأنواع الرمي والقذف والسلاليم بأدواتها.

وفيما يتعلق بأخذ المدن فإنها تتم عن طريق الحيل والمكائد كأخذها على غفلة بعض أهلها وبالسلاليم وبتعربة الأسوار مثل ما حدث في فاس عندما دخلها زيري بن مناد [39].

وكذلك إحاطة المدن بقوة عسكرية تتمركز أمام الأبواب وحفر الخنادق حولها واستعمال المنجانيق وهي أنواع من الأسلحة التقبلية المتخصصة في فتح المدن.

وتستعمل في رمي الحجارة المهياة لأنواع الرمي وجمار أحمر كما رماها الحجاج بن يوسف على الكعبة [40].

وكل ما تتعلق باستعمال النفط الأزرق والأبيض وملح النفط وقارورة النفط لحريق أبواب المدينة.

الأربطة:

من بين التحصينات العسكرية الأربطة مفردها رباط ولئن كانت لهذه الربط صبغة دفاعية وحماية البلاد من الأعداء فكانت بمثابة محارس.

واعتبر المرابطون فيها مجاهدون في سبيل الله فإن هذه النظرة قد تغيرت خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بسيطرة الأساطيل الإسلامية على البحر المتوسط فتكونت بتلك السواحل قواعد تنطلق منها السفن نحو الجنوب الأوروبي وعلى الخصوص جزر البحر المتوسط مثل صقلية وجزر اليونان [41].

ولكن هذه الربط وجدت في بلاد المغرب الأوسط وقد كانت المحارس والحصون ممتدة من سته إلى الاسكندرية في عهد الرستميين والأغانبة وحتى الفاطميين وبعضها استمر وهي ذات صبغة دينية وعسكرية.

ومن تلك الأربطة رباط بونة [42] وهناك أربطة ذكرها البكري منها رباط شرشال [43] الذي كان يجتمع فيه كل عام خلق كثير ويذكر أيضا الإدريسى مغيلة رباطا على ضفة البحر مسكونا ويشير أيضا إلى رباط بالجبل القريب من أرزيوا يقصده الناس [44].

وهناك رباط بالقرب من ندرومه يقصده الناس كما تعرض ابن القطان إلى رباط هلالة بالقرب من بجاية وهو الذي أقام فيه ابن تومرت.

الاستراتيجية العسكرية في عهد الحماديين

التحكيمات العسكرية والخطط الحربية

لاشك أن الدارس للتاريخ الوسيط لبلاد المغرب الأوسط عموما وتاريخ الدولة الحمادية والزيرية خصوصا، يدرك تمام الإدراك أن هذه الدولة قامت منذ نشأتها الأولى على مبدأ واحد هو القوة والمغالبة، وهي استراتيجية عسكرية اختارها حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية وفقا لتكوينه العسكري وطبعه الأجلف وشخصيته المحاربةوالمشاكسة التي تشكلت وتكونت مع مر السنين بفعل العوامل البيئية والوراثيةومن خلالالحروب والمعارك العديدة التي خاضها هذا القائد الفذ المحارب الهمام مع إخوته ثم إبان حكم أبناء إخوته ضد قبائل زناتة البربرية مما أكسبه خبرة عالية في القتال وهذا أمر طبيعي لكل قائد أو جندي ولكن الأمر الأهم هو بروز أو ظهور ملامح لشخصية جديدة ذات ميول عسكرية محاربة لهذا الرجل لها تطلعات جديدة تطمح إلى الحكم الوصول إلى السلطة ووسيلتها القوة والمغالبة ولا يصدها عن غايتها رادع أخلاقي أو ديني، لقد ورث من أعمامه الكثير من الصفات، فهذه الخلة من خلال حماد كانت سمة عمه زاوي بن زيري، وحبوس بن ماكس بن زيري، وباديس بن حبوس. ولعل من أهم العوامل التي ساعد في تكوين شخصية حماد بهذه الخلة هو ذلك الصراع الدائم على السلطة وجو الانقسامات والحروب المستمرةوالنعرات العصبية بين مختلف القبائل وخاصة بين الزيريين والزناتيين، وبدرجة أقل بينهم وبين قبيلة كتامة. ولقد عرف عن حماد شدة قسوته مع خصومه ومن الأخبار التي تؤكد ذلك ما فعله بأهل دكمة حين دخلها فقتل منهم ثلاثمائة ولم ينجو منه لا إماما عالما ولا شيخا صالحا ولا تاجرا مسافرا[45].

وقد رسم لنا ابن الخطيب صورة لشخصية حماد " بأنه كان نسيج وحده وفريد دهره، وفحل قومه، ملكا كبيرا وشجاعا ثابتا وداهيا حصيفا[46] " ووصفه أيضا صاحب كتاب بقوله " كان ذا دهاء وفطنة وتجربة في الحروب وكانت له فراسة وذكاء [47] ".

لذلك فقد صار العنف سمة من سمات أخلاق حماد ظهرت في سلوكه العام وبخاصة في طريق إلى تكوين دولته. وما شخصيته إلا تكرارا لأنماط كثيرة كانت آية في القسوة والطغيان في سبيل الحكم[48].

لذلك يتعين على أي دارس للاستراتيجية العسكرية الحمادية سواء في عهد مؤسسها حماد أو أحفاده من بعده أن يضع نصب عينيه أمرين اثنين في هذا العنصر واللذان قامت عليهما أركان هذه الدولة وقويت بهما وكانا سببا في إعلاء شأنها وسط الدول، ثم بقيا سنة سار عليهما خلفاؤه من بعده وهي: التحكيمات العسكرية والخطط الحربية.

التحكيمات والمحارس :

التحكيمات :

تعتبر التحكيمات أو التحصينات العسكرية من الفنون والأساليب الحربية الدفاعية لإبعاد الأذى والخطر عن النفس والممتلكات وهي فن من جملة الفنون العسكرية التي يراد بها الحماية والحصانة من الخطر الخارجي. والتحصين هو لا شك أسلوب قديم لا يعرف بالضبط تاريخ أول استعمال له، والظاهر أن تاريخ استعماله يعودإلى العصور الغابرة، وقد ثبت من خلال النصوص التاريخية والأدبية وحتى العلمية وهو ما دعمته المكتشفات الأثرية أن الأمم السابقة للإسلام قد كانت تمارس مثل هذا النظام - وإن اختلف - بشتى أساليب الحماية للذود عن كيانها وحماية مدنها، ومن تلك الأمم على سبيل التدليل لا الحصر نذكر الرومان والإغريق والفراعنة والسومريون والبابليون والصينيون وغيرهم من الأمم القديمة.

وإذا كانت التحصينات العسكرية تعد إحدى الاستراتيجيات الحربية الدفاعية فهي إلى جانب ذلك وسائل قهرية أو ردعية بالتعبير الاصطلاحي الحديث فليس هناك ما يخيف الغازي المهاجم كخوفه من المدن ذات التحصينات الجيدة التحكيم التي يصعب على العدو اقتحامها ولو حاصرها لمدة طويلة. أضف إلى ذلك

فالتحصين هو كذلك أحد أساليب المراقبة والاستكشاف عن بعد حيث يسمح للحاميات المرابطة في الحصون من استشعار الخطر قبل حدوثه بفضل المراقبة البعدية التي تسمح للمدافعين بمراقبة تحركات العدو وإدراك نواياه وأهدافه وبالتالي الاستعداد والتصدي له بالخطط المناسبة لضمان النصر.وهكذا يتضح أن التحصينات العسكرية هي معدة أساسا للحماية والوقوف في وجه العدو الغازي وضد الأخطار الخارجية بما تحوز عليه المدينة من أسوار وأبراج منيعة وحصينة معدة لهذا الغرض تستعصي على المهاجم. كما أنها معدة أيضا للهجوم على العدو أو للدفاع بفضل الوسائل الدفاعية التي تتيح للمدافعين من مهاجمة العدو وتصويب أسلحتهمنحوه ما يؤدي إلى إصابات كثيرة في صفوف العدو فيفشل الهجوم وينسحب العدو مقهورا مهزوما. وإذا تفحصنا مختلف التحصينات العسكرية في العصر الحمادي –وهي بدون شك نفسها التي استعملت في مختلف العصور الإسلامية – لأمكن التفريق بين نوعين من التحصينات.

1- التحصينات الدفاعية

وهي ذات طابع دفاعي محض كما يدل عليها اسمها، وهي إما طبيعية كاختيار موقع جغرافي يتميز بموانع طبيعية كالجبال أو الممرات الصعبة السلوك كما هو الحال لمدينة أشير وبجاية وقسنطينة والقلعة على الخاصة التي تتميز عن غيرها من المدن الأخرى بموانعها وتحصيناتها الطبيعية حيث أن المدينة تقع على هضبة قليلة الانخفاض يحدها من الشمال حاجز طبيعي هو جبل تاكربوست ومن الشرق مضيق وادي فرج العميقة.لا تكتمل قوة الدولة الحمادية في هذا الجيش البري بل نجد للدولة إستراتيجيتها بالنسبة للقوة البحرية التي أسستها بعد انتقالها إلى بجاية في عهد الناصر لدين الله لكنها لم تكن في مستوى قوة جيرانها خاصة في مراحلها الأولى كالزيريين والمرابطين.

على الرغم من أنها كانت تحوز على عدة مراسي ممتدة على طول سواحلها وتتمثل خاصة في مرسى وهران وتنس وشرشال وجزائر بني مزغنة وجيجل والقل

وعنابة ومرسى الخزر. لكن أهم تلك الموانيء بجاية التي لعبت دورا هاما في تاريخ البحر المتوسط لكونها دار إمارة ودار صناعة إلى جانب مرسى الخزر التي كان بها هي الأخرى دار صناعة.

أما الموانى الحربية فيبدوا لنا أنها تتمثل في عنابة ومرسى الخزر لقربهما من جزر البحر المتوسط خاصة صقلية عندما تحولت إلى النور مند أصبحت تشكل خطرا على الموانيء الحمادية والزيرية مما دفع سكانها في فصل الصيف إلى التحول إلى المرتفعات الجبلية خوفا من مباغتة الأساطيل المسيحية لهم ولمواجهة هذا الخطر لجأت الدولة الحمادية إلى بناء أسطول قوي يمكنه مواجهة هؤلاء عند إغارتهم على مدنها الساحلية وقد كان لمدينة بجاية دورا أساسيا في قيام الصناعة البحرية لتوفر مادة الخشب بها الصالحة لبناء السفن وكذلك الزفت والقطران.

ومن أهم انواع هذه السفن التي صنعت بها نذكر على سبيل المثال السفينة وهي اقل حجما من المركب كانت تستعمل لنقل السلع والمؤونة العسكرية والجند وبذلك فهي من سفن النقل.

ومن بين القطع الحربية التي أفادتنا بها مصادر الدولة لشواني وهي سفينة شراعية بحرية. الطرائد ومفردها طريدة وهي سفينة تستعمل كالمراكب لنقل الجيش صنعت بمرسى الخزر أيضا استعملت من قبل الحماديين في محاصرتهم للمهدية.

كان يتولى قيادة الأسطول الحمادي أمير البحر تنحصر مهمته في تصريف شؤون الأسطول كتدريب الجيش على ركوب البحر وتعليمهم فنون القتال البحري باعتباره ميدانا يختلف باختلاف القتال في البر لذا لابد على الجند أن يتعلم السباحة وتحمل أهوال الحرب وغيرها من الصعوبات التي تصادف المقاتل في عرض البحر وتقنيات الكر والفر والنزول إلى البر دون تعرضهم لخسائر بشرية كبيرة.

وعلى الرغم من قلة المعلومات عن الجيش البحري للدولة الحمادية فانه كان يتشكل من قوة متمرسة في الحرب وكان يستعل السلاح الذي كان متوفر لديه خلال تلك الفترة.

كما يبدو للباحث انه كانت لديه وسائل الاتصال وهي المتمثلة في الحراسة التي كانت تتخذ من الحصون والقلاع والأربطة مقرا لها وأغلبها كان فوق مرتفعات عالية يمكن لهؤلاء الحراس مراقبة تحرك السفن في البحر والإعلان عليها قبل وصولها إلى الميناء وكانوا يستعملون النار عندما يشعلونها يعرف سكان تلك المواني ء قروب الخطر فيتهاون للمواجهة والتحصن.

هذا النظام ضمن للأسطول الحمادي حسن المواجهة للقوى المعادية.

الهوامش :

01 - يستدل على ذلك من المصادر الشيعية التي تناولت موضوع الإمامة.

02 - ابن حوقل أبو القاسم النصيبي صورة الأرض ط ليدن 1938 ص.

03 - ابن هاني الأندلسي من أهم شعراء الأندلس الذين مدحوا المغرلدين الله وكانيتباهى به وأخذه معه إلى مصر إلا أنه لم يصل معه فمات في الطريق.

04 - شيخ قبيلة مغراوة وهي من أهم القبائل الزناتية خلال ق 4 هـ / 10م.

05 - شيخ قبيلة مكناسة كان مع الفاطميين ثم تحول للأمويين.

06 - يصل بن حبوس من قادة مكناسة تولى تيهرت به قتل مصالة.

07 - يعلى شيخ قبيلة بني يفرن التي كانت توجد مضاربها بولاية معسكر خلال ق 4هـ/ 10 م.

08 - هذه الظاهرة ترجع إلى العصور القديمة.

09 - القاضي النعمان افتتاح الدعوة ص 169.

10 - مدينة باغاية من أهم المدن التي تقع بسفح أوراس غير بعيدة عن خنشلة.

11 - ابن حماد ملوك بني عبيد ص 169.

12 - ابن خلدون العبر ج4 ص 247.

13 - ابن حيان المقتبس ج3 ص 166.

14 - لقبال موسى دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ص 166.

15 - نهر ميناء يقع إلى الجنوب من المدينة وغير بعيدا عنها.

16 - ابن الصغير المصدر السابق ص 307.

17 - نفسه ص 306.

18 - ابن عذاري البيان ج1 ص 196.

19 - نفيسة ج1 ص 191.

20 - القبائل الرحل عند انتقالها من الواحات الصحراوية نحو التلال تجتاز المسيلة.

21 - ابن عذاري البيان ج1 ص 190.

22 - لا تزال آثار هذه القلاع متواجدة لحدالان وبعضها يعود للعصور الوسطى.

23 - تم الكشف عن المعصومة خلال الحفريات التي تمت بالمدنية من قبل الفرنسيين.

24 - ياقوت الحمري معجم البلدان ج2 ص 361.

25 - المديةمن بين المدن التي أعيد بناؤها من قبل بلكين بن زيري بن مناد.

26 - جزائر بني مزغنة أعاد بناءها بلكين مع مليانة وكانت إمارة علوية.

27 - تقرسيت هو المرتفع للجبل الذي تقع في سفحه قلعة بني حماد.

28 - لقبال المرجع السابق ص 50.

29 - البكري المغرب ص 66.

30 - اليعقوبي البلدان ص 13.

31 - ابن جوقل صورة الأرض ص 66.

32 - ابن خلدون العبر ج4 ص 57.

33 - مؤلف مجهول للاستجار تحقيق رعلول ص 174.

34 - ابن الصغير المصدر السابق 347.

35 - ابن عذاري البيان ج1 ص122.

36 - البكري المغرب ص 79 -80.

37 - نفسه ص 80.

38 - نفسه ص 80.

39 - عن استعمال السلالم من قبل زيري بن مناد في فتح فاس العبر ج4 ص320

40 - كانت ذلك خلال مواجهة ثورة ابن الزبير على الخلافة الأموية.

41 - كانت بهذه الجزر قواعد بحرية للأسطول البيزنطي.

42 - بونة المقصود بها مدينة عنابة.

43 - شرشال من أهم المدن خلال العهد النوميدي ثم انهارت فأعيد البناء من قبل القرناطيين بعد هجرتهم إلى المغرب الأوسط.

44 - ارزيوا من الموانئ الهامة التي يتم من مينائها تصدير البترول.

45 - عن هذه الحادثة راجع المراكشي، البيان المغرب، مكتبة دار صادر بيروت 1/381.1950، وانظر أيضا ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت 1967، التاريخ، 9/87.

46 - ابن الخطيب(لسان الدين).-أعمال الأعلام، (تحقيق محمد عبد الله عنان). دار المعارف، مصر1955، 3/85.

47 - الاستبصار لمؤلف مجهول، نشر وتعليق سعد زغلول، مطبعة جامعة الاسكندرية 1980هـ،ص.168.

48 - عويس(عبد الحليم)، دولة بني حماد، دار الشروق، ط1 بيروت 1980/1400،ص. 54.

3

الاستراتيجية العسكرية المرابطية والموحدية

الاستراتيجية العسكرية لدى المرابطين

استراتيجية الهجوم

1 - دوافع الهجوم.

تعتبر العقيدة الإسلامية، والجهاد في سبيل الله القاعدة الأساسية التي دفعت بالمرابطين إلى تبني الروح الهجومية، ولعل الظروف السياسية والعسكرية التي ظهر فيها المرابطون قد عملت على بلورت هذه النزعة القتالية، ثم إن طبيعة الصراع على المواقع تفرض استراتيجية عسكرية ملائمة للأهداف المسطرة.

خاض المرابطون في البداية معارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ أمر " ابن ياسين " أتباعه بأن يثبتوا الأعذار والإنذار في قبائلهم سبعة أيام، ولما يئس من إجابتهم شرع في الغزو.[1]

وكانت هجومات المرابطين تتجه نحو الصحراء، حيث استولوا على جميع بلاد الصحراء المغربية، وجزء من بلاد السودان الغربي، وكانت الاستراتيجية العسكرية الهجومية تهدف، كما ذكر "ابن خلدون"[2] إلى تحقيق انتصارات حاسمة في المعارك الفاصلة ثم سعى المرابطون للسيطرة على بلاد المغرب، وبعد ذلك الاتجاه نحو الأندلس لتأديب ملوك الطوائف، ونصارى الأندلس، ثم توحيد شبه جزيرة الأندلس[3].

ولكن سوء الأوضاع في الأندلس، والاستنجاد المبكر بالمرابطين،أحدث تغييرا في السياسة الحربية للمرابطين، فتوقف توسعهم في المغرب عند مدينة الجزائر، واضطروا إلى فتح جبهة الأندلس التي أصبحت المجال الأكثر حيوية في استراتيجيتهم العسكرية الهجومية[4].

2 - خطة الهجوم.

أ - الاستطلاع والاستعداد.

اعتمد المرابطون في حروبهم الهجومية، على وضع خطة مبنية على عدة معطيات وأسس، حتى يتجنبوا المخاطر.

فقد كان الأمراء يستشيرون العلماء والفقهاء لاتخاذ قرار الحرب، ويستشيرون أهل الدراية بأمور الحرب لدراسة عملية الهجوم، ويستشيرون أهل الدراية بالأقاليم لمعرفة أرضية المعركة.

ومن ذلك، كان عبد الله بن ياسين يجمع رؤوس المرابطين، ويتدارس معهم أمور القتال وكيفية الهجوم على القبائل المجاورة ؛ فلما أرسل إليه فقهاء سجلماسة عام 447 هـ/1055 م، يدعونه ليخلص بلادهم من المنكرات، وجور أمراء زناتة وعلى رأسهم مسعود بن وانودين ؛ جمع ابن ياسين شيوخ المرابطين واستشارهم في الأمر، فأجابوه قائلين : « أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله ».[5]

وكان يوسف بن تاشفين إذا زحف على قوم، يأخذ بنصائح من له معرفة بالمنطقة، ويستشير أهل البلاد، حتى أنه في غزوه للأندلس جعل ابن عباد على محلات المرابطين لمعرفته بالمنطقة، وخوفا من مكائد النصارى.[6]

وللإرشاد إلى المسالك والطرقات، كان يتقدم الجيش رجال يعرفونها، وموثوق في أمانتهم.

وإذا نزل جيش المرابطين بمنطقة، فإنه يلجأ إلى إيجاد مكان الارتكاز للتموقع قبل عملية الغزو والتوسع.

وتظهر هذه الاستراتيجية في يوسف بن تاشفين على سبتة وإخضاعها له، لتمهيد الطريق إلى الأندلس قبل العبور إليها[7].

كما طلب ابن تاشفين من المعتمد بن عباد أن يسلمه ثغر الجزيرة الخضراء، مفتاح الأندلس من الجنوب، قائلا له : « ولا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا ومتى شئنا[8] ». فأجابه ابن عباد إلى طلبه، وكان من أملاكه، لكي يكون هذا الثغر قاعدة أمنية لعبور جيش المرابطين إلى الأندلس.

وقد جعل ابن تاشفين من ثغر الجزيرة الخضراء مكان ارتكاز ورباطا للجهاد، تنطلق منه القوات المهاجمة، ولما دخله شرع في بناء أسواره وتحصينه، وشحنه بالأطعمة والأسلحة، وأبقى فيه عسكرا من رجاله، لتأمين ظهره، ثم رحل إلى اشبيليا [9].

وبالإضافة إلى ذلك، كان يتقدم جيش المرابطين عيونه لمعرفة أخبار عدوه وعدد جنوده وقادته. ومن ذلك كان للمرابطين عيون في جيش ألفونسو السادس، يخبرون يوسف بن تاشفين بتحركاته وأخباره ؛ حيث قال " ابن الأبار " : « وقد جاء الجواسيس من داخل محلة ابن فردلند يقولون استرقنا السمع ساعة، فسمعنا ابن فردلند يقول لأصحابه : ابن عباد مسعر هذه الحرب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه، واهجموا عليه واصبروا، فأن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده [10] ».

وقد يكون ابن تاشفين رتب المعركة على أساس هذه المعطيات، فجعل ابن عباد في مقدمة الهجوم، واختفى هو وراء الجبل حتى يوهم العدو بأنه غير موجود، ويؤخر هجومه إلى أن تشتد المعركة فتكون الضربة القاضية للعدو. [11]

ب - السيطرة على المعركة

اعتمد المرابطون عدة طرق للأخذ بزمام المبادرة والسيطرة على المعركة، حسب الظروف والإمكانيات.

استعمل جيش المرابطين الهجوم الشامل والمباغت على مختلف الجبهات في وقت غير منتظر، فما يشعر العدو حتى يجد نفسه محاصرا من كل مكان. وطبق هذه الخطة " سير ابن أبي بكر " في فتح مدينة " شنترين " الواقعة في الشمال الشرقي من لشبونة، فهجم عليها هجوم الردي، وشن عليها الغارات على جميع الجهات، كما جاء في رسالة لابن تاشفين[12].

وطبق المرابطون أسلوب إرباك العدو، حيث يكتب الأمير إلى الخصم يدعوه إلى الطاعة، أو يأذن بحربه. فلما أرسل الملك الاسباني الفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين خطابا كله تهديد ووعيد محاولا فتحديه وإرهابه، رد ابن تاشفين على هذا التحدي، وأمر بأن يكتب على ظهر الخطاب : « أما بعد فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك والسلام على من اتبع الهدى[13] ».

واستعمل المرابطون خطة اختراق صفوف العدو، وذلك عن طريق ضرب قواته الأمامية مع التركيز على العناصر الأساسية في الجيش، ويظهر ذلك ما ذكره " ابن خلكان " : « أن ألفونسو لما رجع منهزما من الزلاقة سأل عن أصحابه وشجعانه وأبطال عسكره، فوجد أكثرهم قتلوا فلم يأكل ولم يشرب حتى مات هما وغما ». [14]

وجعل المرابطون فرقا متطوعة تقوم بالهجوم على محلات العدو، وتضرم النيران فيها، ويعتمد المرابطون عدم إظهار كل قوة جيشهم في بداية المعركة، ولما يبدأ العدو بالهجوم العشوائي عندها تبدأ هجومات المرابطين الفعلية، على شكل دفعات تحاصر العدو وترهق حركته، حتى تسيطر عليه تماما [15].

واعتمد المرابطون طريقة الخداع المظهري، لاستدراج العدو وإخراجه من معاقله المحصنة. فعندما أراد سير بن أبي بكر، قائد المرابطين، مهاجمة ملوك بني هود في الأندلس، وإخراجهم من معقلهم " روطة "، وهي قلعة منيعة محصنة لجأ إلى الخداع والتمويه، بأن رحل عنها، وجعل فرقة صغيرة تغير على القلعة، ولما رأى صاحب القلعة هذه الفرقة الصغيرة، استضعف أمرها، ونزل في طلبها، عندئذ خرج إليه سير بن أبي بكر الذي كان غير بعيد مع أصحابه، وقبض عليه، وتسلم القلعة [16].

ج - حصار المواقع.

لقد ألف المرابطون حياة الصحراء وطبيعتها، لذلك ارتكزت قوتهم على الفرسان، واعتمدوا في حروبهم على المباغتة والكر والفر، وكانوا أقل براعة في فن الحصار [17] في بدايات عهدهم. إلا أن توسعاتهم في شمال المغرب، ثم الأندلس أين تكثر المدن المحصنة بالأسوار، دفعتهم إلى تغيير أساليبهم الحربية، فأتقنوا فن الحصار في هجوماتهم[18].

ومن ذلك حصار عبد الله بن ياسين لأغمات، ورغم دفاع أميرها لقوط بن يوسف المغراوي أشد الدفاع، إلا أن المرابطين دخلوها عام 449 هـ/1057 م، بعدما شتتوا مقاومتها، وفر منها لقوط تحت جناح الليل [19].

وحاصر جيش المرابطين مدينة فاس، وشد عليها الخناق، حتى انقضت منها الأقوات، فقام صاحبها تميم المغراوي بجمع جيشه من مغراوة وبني يفرن، وخرج بهم إلى عسكر المرابطين، فوقعت عليه الهزيمة، وقتل مع عدد كبير من أتباعه [20]. ذكر صاحب الحلل الموشية أن المرابطين في حصارهم للحصون بالأندلس، كانوا يحضرون الفنيين والمهندسين[21] وهذا من أجل إيجاد منفذ إلى داخل الحصن أو المدينة المحاصرة.

وصف ابن الخطيب حصار المرابطين لغرناطة عام 519 هـ/1125م، قائلا : « وقد أحدقت جيوش المسلمين من أهل العدوة بالأندلس بغرناطة، حتى صارت كالدائرة، وهي وسطها كالنقطة [22].

إذا عجز الجيش عن اقتحام المدينة المحصنة أو الحصن، لجأ إلى قطع المؤونة على من في الداخل حتى يهلك جوعا أو يستسلم.

فذكر أن القائد أبا بكر بن إبراهيم حاصر برشلونة عشرين يوما حتى هتكها وقطع ثمارها، وخرب قراها وأشجارها[23].

وفي حصار يوسف بن تاشفين لحصن ليط (أو لبيط) سنة 481هـ/1088 م، مدة أربعة أشهر [24] رغم أن مناعة الحصن حالت دون اقتحامه، إلا أن الجوع هتك بحياة الكثير ممن فيه[25].

وتنوعت أساليب المرابطين في الحصار، حسب المواقع والوسائل المتاحة، ففي حصارهم لشنترين غربي الأندلس، شنوا غارات على نواحيها، وأقاموا سوقا أمامها، لبيع نسائهم وممتلكاتهم، لكي يستفزوا أهلها[26].

استراتيجية الدفاع

1 - عوامل الدفاع

يلجأ إلى الدفاع عادة الجانب الأضعف، الذي لا يستطيع المبادرة بتوجيه الضربة إلى الخصم، بل يصد الضربات حفاظا على الأرض، أو القوات، أو المكتسبات.

وتتطلب استراتيجية الدفاع الاحتراس الشديد، وتغطية النقاط الحساسة، وتكثيف تدابير الحيطة، وبناء التحصينات وأسوار المدن، بدفع تأمين الدفاع في وجه المهاجمين.

لم يتخل المرابطون عن الروح الهجومية، والاندفاع والمغامرة، وإنما اتخاذهم استراتيجية الدفاع، وإكثارهم من الحصون الجبلية، يعود إلى اتقاء خطر المصادمة القاطنين بجبال الأطلس، ومنعهم من مهاجمة المرابطين، خاصة بعدما تزعمهم المهدي بن تومرت [27].

حاول المرابطون صد خطر الموحدين بتجريد حملات عسكرية ضدهملكنهم فشلوا بسبب أعماق جبال الأطلس، ووديانها الضيقة، وعدم ملاءمة الأراضي الوعرة لجندهم الخيالة في غالبيتهم. لذلك لجأ المرابطون إلى بناء التحصينات على مخارج الوديان الممتدة في أطراف جبال الأطلس [28].

وقد أشار إليها البيذق، بقوله : « أخذ المجسمون الحصون، وبنوها في مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات [29] ».

2 - وسائل الدفاع.

أ - أسوار المدن.

لم يعهد المرابطون بناء الأسوار حول المدن، بحكم طبيعتهم الصحراوية، ولما اشتد خطر الموحدين عليهم أدركوا أهمية بناء الأسوار حول المدن.

ذكر ابن أبي زرع أن يوسف بن تاشفين بعدما دخل مدينة فاس، قال : « إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا [30] ».وقام بهدم الأسوار الفاصلة بين عدوتي القرويين والأندلسيين.

وقال ابن خلدون : « اختط يوسف مدينة مراكش سنة أربع وخمسين (454 هـ)، ونزلها بالخيام، وأدار سورها مسجد وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، وكمل تشييدها وأسوارها ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمائة [31]» بهذا ظلت مدينة مراكش بدون سور يحيط بها إلى أن تولى علي بن يوسف بن تاشفين، فشرع في بناء السور حولها.

وكذلك مدينة مكناسة، شرع في بناء سورها أثناء استعداد الموحدين لحصارها، وكمل البناء أثناء الحصار الذي دام قرابة سبع سنوات [32].

وأيضا في الأندلس، اهتم المرابطون بترميم الأسوار وتقويتها، لا سيما بالنسبة لكل من غرناطة، واشبيليا، وقرطبة.

ب - الحصون والقلاع.

بنى المرابطون الحصون والقلاع العسكرية على قمم الجبال وفي سفوحها، وفي المناطق الاستراتيجية والحساسة، وذلك لتمكين قوتهم الحربية من مراقبة العدو ورصد تحركاته.

واستعان المرابطون في بناء الحصون والقلاع بالفنيين الأندلسيين حتى في المغرب [33]، وكانت تبنى من الحجر، وتوضع لها أبواب من حديد، وتحفر حولها الحفير [34]، وتشحن بالأقوات والذخائر والحيوانات بالإضافة إلى الأسلحة، حتى تصمد للحصار مدة طويلة.

وكانت حاميات الحصون تتألف من خمسمائة جندي ومائتي فارس، وتنعم ببعض الاقطاعات من الأراضي المجاورة، خصوصا في الأندلس [35].

وكان عدد الحصون كبيرا في نهاية دولة المرابطين، قدره البيذق بحوالي ثلاثة وعشرين حصنا قضى عليها الموحدون الواحد تلو الآخر [36].

ومن هذه الحصون، حصن - تاكرارت -، اختطه يوسف بن تاشفين في مكان محلته تلمسان، وجعله رباطا عسكريا [37].

وحصن بمقربة من وهران على شاطئ البحر، اتخذه الأمير تاشفين ملجأ بعدما أحس بخطر الموحدين [38].

وحصن " تاسغيموت " بقرب مراكش، وهو يشرف على جبال الأطلس الكبير [39].

وكانت المدن تشتمل على الحصون والقلاع، تستقر فيها الحاميات العسكرية بصفة دائمة ؛ وقد أثبتت قدرتها على الدفاع أثناء حصار الموحدين لها، فصمدت فاس مدة سبعة أشهر، ومكناس مدة سبع سنوات، ومراكش مدة أربعين يوما [40].

ج - حماية الثغور.

لما انتزع الأمير يوسف بن تاشفين عامة حصونالأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في أيدي المستعين بالله بن هود، كان يدرك مدى أهمية سرقسطة كحاجز دفاعي بينه وبين نصارى الشمال، وظلت إمارة دفاعية حتى استولى عليها المرابطون عام 503هـ/1110 م.[41]

اهتم المرابطون منذ عهد يوسف بن تاشفين، بحراسة الثغور وحمايتها، وهي المواقع الرئيسية التي تجاور الأراضي الخاضعة لحكم النصارى [42].

فكانت سرقسطة، وهي الثغر الأعلى، أخطر منطقة بين ثغور الأندلس وكانت طليطلة، وهي الثغر الأدنى، أهم مركز دفاعي، وكانت المناطق الواقعة غربي اشبيليا مصدر الخطر الذي تستهدفه غارات النصارى.

وأسندت حماية الثغور إلى المتطوعة من أهل الأندلس وسكانها، بوسائلهم الخاصة، لكونهم أخبر بأحوالها، وأدرى بلقاء العدو، وشن الغارات. [43]

الهـوامـش :

1- محمد بن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق العبادي – والكتاني، الدار البيضاء 1964، ص 228.

02 - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر. . . بيروت 1968، ج 06، ص 377.

03 - أحمد القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة 1914 / ج 05، ص 258.

04 - شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تونس 1979، ج 02، ص 110.

05 - أحمد السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ج 02، ص 12.

- علي بن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط 1936، ج 02، ص 87.

06 - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 06، ص 382.

- محمد بن الخطيب : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تونس، ص 31.

07 - أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت 1972، ص 516.

08 - محمد بن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، الدار البيضاء، 1964، ج 03، ص 282.

09 - الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 34.

10 - محمد بن الأبار :الحلة السيراء (تحقيق عبد الله أنيس الضباع)، بيروت 1962، ص 354.

11 - عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت 1980، ج 08، ص 142.

12 - عبد الواحد المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب،القاهرة 1949، ص 197- 166.

13 - الحلل الموشية، المصدر السابق، ص ٢٩ ؛ ٣٠.

14 - شمس الدين بن خلكان : وفيات الأعيان وأبناء الزمان (تحقيق إحسان عباس)، بيروت ١٩٧١، ج ٠٧، ص ١٢٢.

15 - توفيق مزاري عبد الصمد : " التنظيمات العسكرية المغربية في عهد المرابطين والموحدين "، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، عام 2000، ص 214.

16 - أحمد بن عذاري :البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،بيروت 1967، ج 04، 122.

17 - يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، القاهرة 1958، ص 480.

18 - إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، 1965، ج 01، ص 210.

19 - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج 06، ص 376.

20 - السلاوي : الاستقصا، المصدر السابق، ج 02، ص 29.

21 - الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 55.

22 - محمد بن الخطيب : الإحاطة في تاريخ غرناطة، مصر، ج 01، ص 110.

23 – ابن أبي زرع : روض القرطاس، المصدر السابق، ج 02، ص 105.

24 – ابن الأثير : الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ج 08، ص 143.

25 – مزاري : التنظيمات العسكرية، المرجع السابق، ص 217.

26 – المراكشي : المعجب، المصدر السابق، ص 163.

27 – أندري جوليان : افريقيا الشمالية، المرجع السابق، ج 02، ص 130.

28 – رشيد بورويبة : ابن تومرت، الجزائر، 1982، ص 70 – 71.

- Terrassa H ; Histoire du Maroc ,Casablanca 1952 ,P .249

29 – أبو بكر البيذق : أخبار المهدي بن تومرت (تحقيق عبد الحميد حاجيات)، الجزائر 1986، ص 134.

30 – ابن أبي زرع : روض القرطاس، المصدر السابق، ج 02، ص 178.

31 – ابن خلدون : العبر، المصدر السابق، ج 06، ص 378.

32 – المراكشي : المعجب، المصدر السابق، ص 163.

33 – ابراهيم حركات : النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، الدار البيضاء، ص 183.

34 - Terrasse ,op .cit ,P .290 (Histoire du Maroc) . . .

35 – حسين حمدي عبد المنعم : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، الاسكندرية 1986، ص 376.

36 – البيذق، أخبار المهدي، المصدر السابق، ص 134.

37 – ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج 06، ص 381.

38 – الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 99.

39– عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، بيروت 1981، ج 02، ص 765.

40 – مزاري : التنظيمات العسكرية، المرجع السابق، ص 193.

41 – اندري جوليان : افريقيا الشمالية، المرجع السابق، ج 02، ص 115/111.

– حمدي عبد المنعم : المغرب والأندلس، ص 75.

42 – ابن عذاري : البيان المغرب، المصدر السابق، ج 04، ص 121.

43 – الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 56 – 59.

الاستراتيجية العسكرية لدى الموحدين

استراتيجية الهجوم

1 - دوافع الهجوم

بسبب الانتصارات التي أحرزها الموحدون على المرابطين في جبال الأطلس، شرع المهدي بن تومرت زعيم الموحدين في تجهيز حملات عسكرية هجومية ضد مدينة مراكش، عاصمة المرابطين. وهذا من أجل فك الحصارالمضروب على الموحدين في الجبال، وتوجيه أنظار القبائل نحو الخارج، وتجنيدها في حروب خارجية لنشر دعوة الموحدين[1].

ورغم أن الحملات الأولى ضد مراكش كانت فاشلة، إلا أن الموحدين أحرزوا نجاحا عند حافة جبال الأطلس، مما شجعهم على التقدم نحو مراكش ومحاصراتها، غير أن المساعدات التي تلقاها أمير المرابطين كانت سببا في هزيمة الموحدين في معركة البحيرة عام 524 هـ/1130 م.[2]

ساهمت هزيمة البحيرة في بناء استراتيجية عسكرية هجومية لدى الموحدين، فقد أدرك الموحدون عدم فعالية القيام بمهاجمة المرابطين في أرضهم، قبل توطيد سلطتهم على القبائل الجبلية، والسيطرة على المغرب الأوسط من تلمسان إلى وهران، لتطويق المرابطين بالمغرب الأقصى، والتفوق عليهم عدديا.[3]

2 - خطة الهجوم.

أ - الكمائن

إن الطبيعة الجبلية التي نشأ فيها الموحدون، وانطلقت حركتهم منها، ثم عددهم القليل، وامكانياتهم الضعيفة في بدايات أمرهم، كل ذلك جعل من الصعب عليهم تحقيق انتصارات حاسمة، في مواجهات مكشوفة بالمناطق السهلية على جيش المرابطين، الذي كان معظمه يتألف من الفرسان[4].

لذلك تجنب الموحدون المعارك المكشوفة ضد المرابطين، وطبقوا خطة الجبليين التي أوصى بها المهدي بن تومرت لمساعديه بقوله : « لا تنزلوا إلى السهل واتركوا العدو يصعد إليكم بنفسه ».[5]

استعمل الموحدون في هجوماتهم أسلوب الكر والفر والغارات المتكررة لا سيما بعد هزيمة البحيرة [6]. وبذلك حقق الموحدون عدة انتصارات على المرابطين وسيطروا على جبال المغرب الأقصى إلى تلمسان.

روى " صاحب الحلل الموشية "، أن عبد المؤمن بن علي في دخوله مراكش عام 541 هـ/1146 م، نزل بجبل صغير يقرب مراكش، ونصب الكمائن في الطريق، وزحف على مراكش، ولما خرج جيش المرابطين، انهزم لهم الموحدون، وتراجعوا ليجروهم إلى الكمائن، ولما وصلوا إلى المدينة التي بناها على الجبل ضربت الطبول وخرجت الكمائن، وبذلك كثر القتل في المرابطين وانهزموا[7].

وذكر "السهلاوي"، في معركة الأرك، أن الأمير المنصور في جيش على مسافة يختفي عن أعين العدو، وقدم الشيخ أبا يحي بن أبي حفصكبير وزرائه ببعض الرايات والطبول على هيئة السلطان لملاقاة العدو، وعندما اختلطت الصفوف وحمي وطيس المعركة، زحف الأمير يعقوب نحو المعركة في حرسه من العبيد والحشم والموحدين، وأصواتهم تهز الأرض بالتكبير، وسأل ألفونس : « من هذا ؟ قيل له : هذا المنصور قد أقبل في جيشه، وما قاتلت سائر اليوم إلا طلائعه ومقدماته». [8]

ب - المفاجأة:

من أجل إرباك العدو، واضطراره إلى الاستسلام، أو المواجهة دون استعداد، وبالتالي انهزامه والسيطرة عليه، اتخذ الموحدون أسلوب المباغتة، وأحاطوه بالسرية التامة، حتى يتحقق لهم النصر في هجوماتهم.

ففي غزو عبد المؤمن لبجاية، كتب "ابن الأثير" : « في هذه السنة (547 هـ/1152 م) سار عبد المؤمن بن علي إلى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بني

حماد، وكان لما أراد قصدها سار من مراكش إلى سبتة سنة ست وأربعين فأقام بها مدة يعمل الأسطول ويجمع العساكر القريبة منه، وأما ما هو على طريقه إلى بجاية من البلاد فكتب إليهم ليتجهزوا ويكونوا على الحركة أي وقت طلبهم، والناس يظنون أنه يريد العبور إلى الأندلس، فأرسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا وسار من سبته في صفر سنة سبع وأربعين، فأسرع السير، وطوى المراحل، والعساكر تلقاه في طريقه، فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها، وكان ملكها يحي بن العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد . . . فانهزم أهل بجاية من غير قتال، ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين. . . »[9]

وتجدر الإشارة إلى أن عبد المؤمن لما اتجه من تلمسان نحو بجاية، استولى في طريقه على مدينة مليانة، وخيم بالمدية، وأخذ مدينة الجزائر على حين غفلة من واليها القائم بن عبد العزيز، الذي فر إلى أخيه يحي ببجاية ؛ وهذا الأخير باغته الموحدون، ولم يكن مستعدا لمواجهتهم. فانهزم بنو حماد، ودخل عبد المؤمن بجاية من غير قتال، عام 547 هـ/1152 م.[10]

وإلى جانب أسلوب المباغتة، استخدم الموحدون الحركة المستمرة في استراتيجيتهم الهجومية، وذلك لإرهاق العدو وإرباكه.

كان الموحدون يتركون الجند ما يكفي للمقاومات المحصنة، وينطلقون لفتح مناطق أخرى. وظهر ذلك في غزوات عبد المؤمن بن علي الطويلة زمنيا من 524 هـ/1129 م إلى 557 هـ/1162 م، والكثيرة عدديا، والواسعة رقعة من المغرب الأقصى إلى الأندلس، إلى افريقية[11]

وفي الأندلس تحرك الموحدون باستمرار، فما ينتهون من فتح حصن حتى ينتقلون إلى آخر. وقام عبد المؤمن بتقسيم الجيش إلى أربعة عساكر، لكل عسكر يوم يختص به. وهذا حتى لا تتعب الجيوش، واحتراسا لأي مباغتة من نصارى الأندلس، ومنعهم من التكتل، وجعلهم يشعرون بالخطر الدائم.

وتظهر هذه الخطة أيضا في غزو الأندلس سنة 558 هـ/1163 م، حيث قسم الموحدون جيشهم على أربع جبهات، وهي جبهة ابن رنك (انتريكاز البرتغالي)،

وجبهة الليبوج بالسبطاط، وجبهة أذفونش بطليطلة (وهو ملك قشتالة)، وجبهة برشلونة[12].

ج – الحصار.

استخدم الموحدون الحصار في استراتيجيتهم الهجومية وتفوقوا فيه، لا سيما في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي، فقد أحكم الحصار على مراكش عام 541 هـ/1146 م، بالرغم من قلاعها المنيعة، وبسالة جيش المرابطين في الدفاع عنها، بما فيهم فرقة المرتزقة من الروم، حتى جهدم الجوع، وبرزا إلى الدفاع، فانهزموا، ودخل الموحدون مراكش [13].

وأورد ذلك " ابن خلدون " بقوله : « وأقاموا (أي الموحدون) على مراكش سبعة أشهر، وأميرهم (أي المرابطون) اسحاق بن علي بن يوسف، بايعوه صبيا صغيرا عند بلوغ خبر أبيه، ولما طال عليهم الحصار، وجهدم الجوع، برزوا إلى مدافعة الموحدين، فانهزموا، وتبعهم الموحدون بالقتل، واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين، وقتل عامة الملثمين[14] ».

كما استخدم الموحدون وسائل مختلفة في خطة الحصار، منها :

في حصار وهران قطع الموحدون عن أهلها الماء حتى جهدهم العطش وبأعاليها أضرموا النيران حول الحصن الذي لجأ إليه أمير المرابطين تاشفين بن علي، فسقطت أبراج وهران، وهلك تاشفين بحافة الجبل، وهو فار على فرسه، عام 539 هـ/1144 م [15].

وفي حصار فاس قطع الموحدون ماء النهر الداخل إليها، وبنوا عليه سدا، ولما امتلأ السد بالماء، خرقوه، فهدم سورها ودورها، واستسلم أهلها بعد ستة أشهر من الحصار [16].

وفي حصار مكناس، حفر الموحدون حولها الخنادق، وأحاطوها بسور وبعد سبع سنوات من الحصار والسجن والمقاومة، اضطر أهلها إلى الاستسلام [17].

وفي حصار شنترين في غربي الأندلس، قطع أبو يعقوب خليفة الموحدين، ثمارها، وأفسد زرعها، وشن الغارات على نواحيها، لقطع المدد عنها [18].

واستخدم الموحدون الحصار البري والبحري على بعض المدن الساحلية بالأندلس، مثل مدينة إشبيليا التي افتكوها من يد المرابطين، وحصار حصن المرية، مدة ثلاثة أشهر، حتى ضاقت السبل بالإفرنج فيه، فسلموه للموحدين عام 552 هـ/1157 م [19].

استراتيجية الدفاع :

أخذ الموحدون باستراتيجية الدفاع العسكري، من أجل الحفاظ على المناطق الواسعة التي فتحوها، واستخدموا مختلف الوسائل الدفاعية للسيطرة عليها[20]، كالتحصينات، والأساليب الحربية.

1 - التحصينات :

رمم الموحدون الحصون التي استولوا عليها في المغرب والأندلس، واستفادوا منها، وأضافوا حصونا وقلاعا جديدة. [21]

بنى الموحدون أول حصن على جبل درن، وهو حصن تنملل، الذي اتخذه المهدي بن تومرت مركزا لدعوته، كان حصن تنملل منيعا بجبال الأطلس المغربية(22) وأحاطه المهدي بسور، وزوده بأبراج الحراسة، بالإضافة إلى ذلك يقع الحصن في منطقة زراعية، كثيرة السكان الذين استجابوا لدعوة المهدي.[23] مما مكن تنملل أن تكون أول قاعدة دفاعية لحركة الموحدين. [24]

وجعل عبد المؤمن بن علي مدينة تازا أهم مركز حربي وحصن دفاعي في القسم الشرقي من المغرب الأقصى، فبنى أسوارها، وحصنها عام 529 هـ/1134 م وأصبحت منطلقا للحملات نحو الشرق وبلاد الريف.[25]

وشيد عبد المؤمن حصن رباط الفتح، رغبة في إقامة معسكر ضخم بشمال المغرب، وقلعة متقدمة تتجمع فيها الجيوش لعبور البحر نحو الأندلس. [26]

ويرى صاحب " الحلل الموشية " أن أهمية موقع حصن الرباط لم تفت عبد المؤمن، حيث أنه كان يحرس سهول الغرب وتامسنا التي كانت تستطيع أن تزود الجيوش بجميع المؤن الضرورية، وكان أيضا ملتقى طريقي فاس ومراكش، وميناءً للركوب نحو الأندلس، ومرحلة إجبارية بين مراكش ومضيق جبل طارق، هذا ما يجعله ملائما لجميع الجيوش، ولهذا في سنة 545 هـ/1150 م أمر الخليفة الموحدي الأول ببنائه.[27]

لقد كان حصن رباط الفتح قاعدة خلفية للأندلس، تتجمع فيها قوات الموحدين، ثم تنطلق للفتح. كما كان هذا الحصن أيضا عاصمة ثانية لعبد المؤمن[28].

وفي سنة 554 هـ/1159 م، أمر عبد المؤمن ابنه يوسف، والي اشبيلية، بتشييد مدينة جديدة بجبل طارق تصلح لجمع الجيوش من أجل الغزو الهام الذي سيقوم به ضد الممالك المسيحية الاسبانية، وذلك نظرا إلى الهجومات التي كانت تعانيها قرطبة وغرناطة واشبيلية، وسماها جبل الفتح.[29]

كانت مدينة جبل طارق، محصنة، تحتوي على سور داخله جامع وقصور وبساتين، فكانت حصنا عسكريا، ومقرا للخليفة، تنطلق منه جيوش الموحدين لنجدة الولايات الأندلسية إذا هاجمها النصارى[30].

بالإضافة إلى ذلك بنى الموحدون حصونا أخرى، وأحاطوا المدن بالأسوار، منها تلمسان وفاس ومراكش، وغيرها، وحصنوها بأبراج عالية للدفاع، وخزنوا المؤن والأسلحة، لمواجهة الحصار[31]

2 - الأساليب الحربية الدفاعية :

استخدم الموحدون في استراتيجيتهم الدفاعية، الحيل، والخداع الحربي كوسيلة لتحقيق أهدافهم، منذ بداية حركتهم، على عهد المهدي بن تومرت. ومثال ذلك، فقد جمع المهدي بن تومرت رجاله، وفرقهم على مراصد الوادي الفاصل بين مراكش وتنملل، ولما دخل جيش المرابطين الوادي، انهالت عليهم الحجارة كالمطر، فانهزم جيش المرابطين، ورجع إلى مراكش.[32]

وهيأ ابن تومرت أتباعه بالقوة المعنوية والثقة بالنفس تجاه المرابطين. كما أثرت الحرب الدعائية والنفسية على معنويات جيش المرابطين، حتى أصبح لا يغامر كثيرا في مطاردة جيش الموحدين.[33]

واستعان الموحدون بالجواسيس، ولجأوا إلى استمرار الغزو للحفاظ على المناطق التي يسيطرون عليها، لا سيما في الأندلس، وبسبب عدم استقرار الأوضاع.

واستعمل الموحدون قطع الطريق المؤدية إلى حصنهم أو مدينتهم، إذا حاصرهم أعداؤهم، ريثما تصل النجدات من المناطق المجاورة.

وكانت المدن القريبة من مراكز الخطر، تحصن بطريقة تجعل الوصول إليها عبر منافذ ضيقة يمكن غلقها، حتى تتمكن من الصمود لفترة طويلة.

من ذلك مدينة غرناطة التي حصنها الموحدون بهذا الشكل، إذ لما حاصرها إبراهيم بن همشك سنة 557 هـ/1162 م، واحتل القصبة الحمراء، ونصب المنجنيق وشرع في ضرب المدينة، تحصن الموحدون، وقطعوا الساباط المتصلة بينهم وبين القصبة الحمراء، واستغاثوا بأمير المؤمنين، وبالموحدين الذين باشبيليا.[34]

الهـوامـش

1 – عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر. . . ، بيروت، 1968، ج 06، ص 469.

2 – رشيد بوروبية : ابن تومرت، الجزائر 1982، ص 81 - 82.

3 – أحمد القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة 1914، ج 05، ص 190.

- Bourouiba R; Abdel-MU'MIN flanbeau des Almohades ,Alger 1974 ,pp .24 - 34 .

4 – أبو بكر البيذق : أخبار المهدي بن تومرت، الجزائر 1986، ص 78 - 102.

5 – شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تونس 1979، ج 02، ص 135.

6 – عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة 1949، ص 194.

7 – محمد بن الخطيب : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تونس، ص 103.

8 – أحمد السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ج 02 ص 190 - 191.

9 – عز الدين بن الأثير : الكامل في التاريخ، بيروت 1980، ج 09، ص 30 - 31.

10 – عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، بيروت 1965، ج 02، ص 298.

- Kaddache Mahfoud ; l'Algerie Médéval ,Alger 1982 ,P .117

11 - Bourouiba ,Abdel-MU'MIN ,op .cit .pp .16 ? 57 .

12 – توفيق مزاري عبد الصمد : " التنظيمات العسكرية المغربية في عهد المرابطين والموحدين "، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، عام 2000، ص 226.

13 – الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 102- 103.

14 – ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج 06، ص 479.

15 – يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، القاهرة 1958، ص 489.

16 – السلاوي، الاستقصا، المصدر السابق، ج 02، ص 107.

17 – الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 102.

18 – المراكشي، المعجب، المصدر السابق، ص 258.

19 – مزاري، التنظيمات العسكرية، المرجع السابق، ص 229.

20 – عبد الملك بن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين، بيروت 1964، ص 392.

21 – أشباخ : تاريخ الأندلس، المرجع السابق، ص 496.

22 – عبد الحق المريني : الجيش المغربي عبر التاريخ، الرباط 1967، ص 26.

23 – علي بن القطان : نظم الجمان في أخبار الزمان، الرباط، ص 93 - 94.

24)- Bourouiba ,Abdel-MU'MIN ,op.cit .pp 127 ? 127 .

25 – السلاوي : الاستقصا، المصدر السابق، ج 02، ص 109 - 110.

26 – ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، المصدر السابق، ص 139.

27 – الحلل الموشية : المصدر السابق، ص 118.

28 – علي بن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط 1936، ص 130.

– رشيد بورويبة : عبد المؤمن، الجزائر 1976، ص 122.

29 – بورويبة، عبد المؤمن، نفسه، ص 123 - 124.

30)- Bourouiba ,Abdel-MU'MIN ; op.cit .pp 129 - 130 .

31 – ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، المصدر السابق، ص 201 - 202.

32 – ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، نفسه، ص 390.

33 – البيذق : أخبار المهدي، المصدر السابق، ص 66 - 72.

34 – مزاري : التنظيمات العسكرية، المرجع السابق، ص 206 - 207.

4

الاستراتيجية العسكرية الزيانية والعثمانية

الاستراجية العسكرية للدولة الزيانية

الدولة الزيانية تأسست على أساس العصبية القبلية أي قبيلة بني عبد الوادي التي هي من قبائل الزناته ولهذا كانت تزاول الرحلة منذ القدم أي الانتقال من مضاربها بسفوح جبال أوراس إلى المناطق التلية ثم العودة إلى مضاربها خلال فصل الخريف والشتاء ويبدوا حسب المصادر التارخية التي رجعنا إليها أن أول علاقة لها بالنشاط السياسي كانت في عهد السلطان عبد المؤمن بن علي حيث وقفت إلى جانبه عندما تعرضت جيوشه لمهاجمة بني مرين ولذا يظهر أنها ارتبطت بالخلافة الموحدية منذ تلك المدة إلا أن المصادر المغربية وخاصة الموحدية لم تشر إلى الدور الذي لعبه بنو عبد الوادي في العصر الموحدي سواء فيما يتعلق بمواقفها من الدولة أو من أعدائها وربما السبب في ذالك أنها كانت تنتظر الفرصة الموالية لإقامة دولة لها وهذا لا يمكن إلا بعد ضعف الدولة.

جاءت هذه الفرصة بعد الفشل أو الهزيمة التي تعرضت لها دولة الموحدين بمعركة العقاب في الأندلس ثم ثورة بنو غانية التي انطلقت من بجاية وشملت أراضى واسعة من أملاك الدولة الموحدية وكانت ثورة مدمرة أدت إلى إتلاف الحرث والنسل جاءت على ما تبقى من الدولة لذلك اغتنم بنو عبد الوادي وبقية القبائل الزناتية الفرصة للانتقال نحو الشمال والاستقرار إلى جانب الحضر.

فبنو عبد الوادي استقروا إلى جنب تلمسان أو بالتحديد المنطقة المحصورة بين ام عسكر وتلمسان وهي المناطق التي كانوا يتوافدون عليها خلال رحلتهم من مضاربهم الأصلية.

بينما استقر بنو توجين إلى الجهة الأخرى أي ما يعرف اليوم بولاية تيهرت والمناطق المجاورة لهم بينما المغرويين اتخدوا الأراضي الواقعة الآن بولاية مستغانم وغليزان وشلف مستقرا واتخذوا من مازونة عاصمة لهم وكل ذلك كان على حساب القبائل التي كانت مستقرة بتلك الناحية التي يبدوا لي أنها لم تتمكن من المحافظة على مضاربها نتيجة للضعف الذي تعرضت له نتيجة لمساهمتها في الجيش الموحدي الذي تلقى ضربات في الأندلس على يدي النصارى وفي بلاد المغرب على أيدي بنوا غانية.

حلت هذه القبائل محلها أصبحت تعمل من أجل إقامة دولة على أنقاض الخلافة الموحدية فأقام المغراويين إمارة لهم ضمن مضاربهم وكذالك بنو توجين في ونشري

تأسيس الدولة :

تأسيس الدولة الزيانية كان سنة 627 هـ لكن التأسيس الفعلي تم عندما تولى السلطة يغمرا سن بن زيان سنة633 واتخاذ تلمسان عاصمة له وعرفت خلالها الدولة باسم الزيانية نسبة إلى زيان جد الأسرة الحاكمة

الجيش الزياني :

إن الجيش الزياني في بدايته لا يختلف عن بقية الجيوش التي اعتمدت على العصبية القبلية لأن أفراد القبيلة أغلبهم يملكون الأسلحة البسيطة للحماية خلال تنقلاهم أو مواجهة الخطر المحدق بهم نتيجة للصراعات التي كانت تحدث بين القبائل وعلى الخصوص المجاورة المضارب على الماء والكلاء أو الصراع بين الأفراد الذي كان ينتج عنه تدخل القبيلة.

والحروب تتم بين تلك القبائل بعد التجمع الذي يحدث بين بطونها وعشائرهاولذا يجدر بنا في البداية تناول موضع الحشود وكيف حدوثها.

الحشود : تتم الحشودات بعد اجتماع بن القبيلة إما في خيمة شيخ القبيلة إذا كانت من القبائل الرحل أوفي منزله إذا كانت من القبائل المستقرة ثم تحدد تلك الحشودات ومكان التجمع وتاريخه والأماكن المقصودة محاربتها والأهداف المرجوة منها.

بالنسبة لبني عبد الوادي هي إقامة دولة أي التحول من القبلية إلى الدولة لذلك تجمعت بطونهمثم بدأت بزحفها للاستيلاءعلى المدن القريبة من مضاربهم الجديدة وأول تلك المدن ندرومة التي لم يتمكنوا من السيطرة عليها بعد مقتل شيخ بني عبد الواد بالقرب من أسوارها لأن السلاح المتوفر للقبيلة لا يسمح لها بتدمير التحصينات لان أغلب ذالك السلاح هو السيوف التي لا يخلوا منزلا منها إلا أن تلك المعركة كانت البداية بالنسبة للجيش الزياني فيما بعد وقد تمكن من الدخول إلى تلمسان واتخاذها عاصمة للدولة بعد إبعاد حاكمها عنها وبذلك تأسست الدولة الزيانية.

تجميع قبائل بني عبد الوادي :

اعتنوا بتشكيل قوة عسكرية منها على الخصوص في المرحلة الأولى من حياة الدولة.

فالمعارك الأولى لهده الدولة كانت تعتمد على تجنيد أفراد القبيلة وأما القيادة فكانت جماعية حيث أن سلطان الدولة الزيانية كان له مجلس من أعيان القبيلة يستشار في حالة الحرب ويحدد عدد الجند ونسبة المشاركة لكل بطن من بطون القبيلة وكذالك توزيع القيادة العسكرية حيث يبدوا لي من المصادر التي تمكنا من الاطلاع عليها أن كل بطن من القبيلة يقود مجموعته أحد أعيانها أو أشجع فرسانها ويتأكد هذا من دراسة المعارك التي خاضها يغمرا سن ضد الدولة المرينية التي حاولت القضاء على الدولة الزيانية منذ البداية لأنها ترى بأنها أحق من غيرها في ملك الخلافة الموحدية على الرغم من أن بني مرين لا ينتسبون إلى القبائل التي كانت تتشكل منها الدولة الموحدية عكس الحفصصيين إلا أنهم يرون في أحقيتهم بالملك فمعارك وادي ملوية بين بني زيان وبني مرين كانت بمساهمة كل بطون القبيلة التي تنسب لها الدولة والفشل الذي أصاب القوة الزيانية في هذه المعارك يرجع بالدرجة الأولى إلى التفوق العددي لبني مرين أما الأساليب المطبقة لا تختلف بينهما لان كل واحد يطبق أسلوب الحرب لدى القبائل.

وهذا الفشل دفع بيغمرا سن إلى نصح ابنه الذي سيتولى قيادة الدولة بعده بتوجيه قوته نحو الشرق في مواجهة الدولة الحفصية على الرغم من أن قوة الدولة الحفصية لا تقل أهمية عن قوة بني مرين إلا أن بعد عاصمتهم يحل أمام تسيير القوة العسكرية وتجنيدها بنفس السهولة بالنسبة لبني مرين لذا كانت اغلب المعارك التي خاضتها الدولة في عهد السلطان أبو سعيد بن يغمرا سن كانت في الجهة الشرقية من أراضى الدولة الزيانية مما سمح لبني مرين من اغتنام الفرصة وتوجيه ضربات موجعة ضد بني زيان فيعهد السلطان يوسف بن أبي يعقوب ثم محاصرة تلمسان الحصار الكبير الذي استمر أكثر من سبع سنوات والنصف وكاد أن يقضي على الدولة لولا القتل الذي تعرض له السلطان المريني مما أدى بخليفته إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة إلى فاس.

ومن هذا الحصار بدأ الاهتمام بتجنيد قوة أخرى غير قوة القبيلة منها على سبيل المثال :

القبائل العربية الهلالية :

هذه السياسة ترجع إلي عهد يغمرا سن مؤسس الدولة فالمصادر تعرضت لعملية انتقال بني هلال بطلب من يغمرا سن نحو المناطق المجاورة لعاصمة الدولة ولم تحدد لنا تاريخ الاعتماد عليهم.

يبدوا أن هذه التجربة لم تنجح تماما لأن هذه القبائل لعدم استقرارها في مواطنها حتى يمكن للدولة تجنيدها عندما تشعر بالخطر.

بالإضافة إلى ذالك تقلبهم في السياسة مما جعلهم يتحالفون مع أعداء الدولة في بعض الأحيان.

من القبائل التي نقلها يغمرا سن حميان وهم فرع من بني يزيد نقلوا إلى المنطقة المجاورة لتلمسان واستقروا بالأراضي الخصبة المجاورة لعاصمة الدولة.

حصين الذين استوطنوا االأراضي التي تقع تيطري ونواحي المدية بنو مالك والعطاف استقروا بولاية شلف وغليزان حاليا.

بنوا عامر من رغبة سيطروا على الأراضي الوقعة مابين مرتفعات الظهرة وتسالة وامتدت مضاربهم إلى نواحي عين تموشنت حاليا.

ذكر الحسن الوزان أنهم كانوا يمدون الجيش الزياني بقوة تصل إلى ثلاثة آلاف فارس.

ومن القبائل التي كانت تمون الجيش الزياني بالقوة العسكرية سويد وهذا منذ حكم يغمرا سن بن زيان مما جعله يقدم شيوخهم عن غيرهم ويشاركهم في قتال أعدائه.

لكن موالاة هؤلاء تغيرت مع تغير الظروف فوقفوا مع الدولة المرينية في عهد السلطان أبو عنان الذي أقطع شيخهم ونزمار أراضى بني توجين كاالسرسوا والأراضي المجاورة له وخليج أرزيو والشط الشرقي ومجموع سهول سيدي بلعباس ثم قلعة تاغزورت التي تحول اسمها إلى قلعة بني سلامة.

ومن بين تلك القبائل العربية المعقل وعلى الخصوص دوي عبيد الله التي كانت أراضيهم متصلة ببني عبد الوادي وبالخصوص المنبأت الذين قال في شانهم ابن خلدون كانوا حلفاء وشيعة ليغمرا سن وبنيه بعده.

ومن بطون المعقل دوي عبيد اله اتصلوا بيغمرا سن وقد عين من بينهم موظفون في دولته مثل عيسى بن موسى الذي كلف بمراقبة الحراس ليلا وكذلك تقسيم الإتاوات على المقاتلين خلال الحصار المريني لتلمسان.

تميزت سياسة سلاطين الدولة الزيانية بضرب القبائل بعضها ببعض حتى لا تتحالف ضدها والأمثلة على ذالك كثيرة منها.

إن هلال الكاطالوني الذي كان قائدا للجيش الزياني في عهد أبي تاشفين الأول قد تآمر على عريف السويدي مما جعله يتحالف مع بني مرين سنة 720.1320 وينخرط تحت لوائهم ويخلص في الخدمة لهم وبذالك تنقل قوته إلى الطرف المعارض للدولة.

كما حاول أبو حموا موسى الثاني إحداث انقسام في صفوف قبيلة سويد عندما وافق على تعيين ميمون بنسعيد على رأس القبيلة والهدف من وراء هذا التعيين إضعاف قوة محمد بن عريف لكن هذا الأخير وقف إلى جانب المعارضين لآبي حموا.

وأما بنو عامر فعندما تولى السلطة أبو حموا موسى الأول أيدوه وبلغ عدد قوتهم بثمانية آلاف فارس قدم لشيوخهم الخيول مع سروجها والأموال الطائلة إلا أنهم بعد ذالك تخلوا عن نصرة الدولة عندما تدخلت في شؤون القبيلة.

يتجلى مما سبق قوله أن قوة القبائل العربية ضمن الجيش الزياني كانت تزيد مرة وتنقص أخرى وهذا راجع إلى العلاقة بين القبيلة والدولة.

وفي رأي أن يغمر اسن عندما أدرك خطورة المغراويين وبني توجين على الدولة أنهم تحالفوا في البداية مع الدولة الحفصية ضد بني زيان خلال هجوم أبي زكرياء الحفصي على أراضي الدولة حاول هذا الأخير إضعاف الدولة بالتعاون مع القبائل التي توجد مضاربها بداخل أراضي بني زيان إلا أنه رأى بعد وصوله إلى تلمسان وشدة المقاومة من قبل يغمر اسن الذي لجأ إلي حرب العصابات لمواجهة قوة بني حفص اتفق مع يغمرا سن على الاستمرار فيحكم الدولة مقابل إعلان الولاء لبني حفص وبعد انسحاب الجيش الحفصي شن هجوم على مضارب بني توجين ومغراوة فأهلك الحرث والنسل.

وهو ما جعل تلك القبائل تقف موقفا معارضا له على الرغم من وحدة العصبية القبلية وعندما ظهر الخطر المريني تحالفوا مع بني مرين ضد بني زيان وهو ما يتأكد لنا بان الدولة الزيانية أرادت من نقل بني هلال إلى محيط الدولة استعمالهم ضد القبائل الزناتية أو خلق توارن عرقي في المنطقة لصالح الدولة وهذه السياسة لا تزال مستعملة في بعض الدول لحد الآن.

وفي عهد السلطان السعيد يغمرا سن بني زيان سلك نفس السياسة التي سلكها أبوه ضد الزناتيين من بني توجين ومغراوة الذين رفضوا الاعتراف بالدولة والتعاون مع القوة المعرضة لها فهاجم مضاربهم ولم يتوقف عن ذالك إلا عندما شعر بالخطر المريني على دولته حيث رفع عن مضاربهم وتوجه إلى تلمسان للدفاع عنها ولم يتمكن من تخليصها فقد توفي وبني مرين محاصرين وتولى ابنه أبو زيان السلطة وبعد وفاته تولاها أبو حموا موسى الا ول الدي اغتنم فرصة رفع الحصار على تلمسان بعد مقتل أبو يعقوب فترك المدينة وتوجه لمضارب بني توجين ومغرواة فهاجمها بقوة من جميع الجبهات وتولى الهجوم عليها أبرز قادته منهم مسامح النصراني ووالي مليانة وقادة والأكراد الدين أصبحوا من جند الجيش الزياني وتذكر المصادر أن هؤلاء انتقلوا الى بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط الخلافة العباسية على يد المغول وبدأ استعمالهم من قبل الموحدين ثم من قبل بني مرين وبني زيان ابتداء من عهد السلطان

أبو حموا موسى الأول واضعف المغراوين ودفع بقادتهم إلى الانتقال إلى المغرب لطلب المساعدة من قبل بني مرين لان ظروف بني مرين لم تسمح لهم بذلك.

كما نجد أيضا خلال هذه الفترة بدأ أيضا التعامل مع قبيلة أخرى هي قبيلة بني راشد الذين توافدوا على معسكر من جبل عمور خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد واتخذوا من القلعة التي كانت لهوارة عاصمة لهم فأصبحت تعرف بقلعة بني راشد إلى الآن وهي تقع بولاية غليزان حاليا تحالف هؤلاء مع بني زيان وأصبحوا يشكلون جزءا من قوة الدولة واستعملوا ضد بني توجين جيرانهم من الغرب ومغراوة جيرانهم من الشرق وتولى بعض شيوخ بني راشد قيادة الجيش الزياني خاصة خلال عهد السلطان أبو تاشفين الأول وأبو ثابت على الخصوص الذي استعملهم ضد مغرواة خلال الهجوم الكاسح على مضاربهم بعد إعادة إحياء الدولة الزيانية من جديد وهنا يلاحظ الباحث أن الاستراتيجية العسكرية للدولة الزيانية تتغير مع ظروف الدولة فكانت تعتمد على قيبلة بني عبد الوادي عندما كانت قوة العصبية القبلية للدولة لكنها عندما ضعفت نتيجة للصراع على الزعامة وتعاون بعض بطونها مع أعدائها استعملت قوة عسكرية من غير قبيلتها سواء أمازيغية أو عربية أو حتى مسيحية لان الأهم هو استمرارية الدولة.

وفيما يتعلق بالعنصر الكردي فقد زاد استعماله في عهد السلطان أبو تاشفين الأول الذي تمكن من مد رقعة الدولة نحو الشرق على حساب الدولة الحفصية بفضل أمهر قادته العسكريين من جنسيات متعددة منهم المسيحيين بقيادة هلال القاطالوني الذي كلن يعتبر بمثابة وزير الدفاع والأكراد بقيادة موسى الكردي وبني راشد وبني عبد الواد لكن بعض المؤرخين يرون في تنوع القادة فشلا في تحقيق ما كان يصبوا إليه السلطان الذي يعتبر الشخصية الثانية في الدولة بعد يغمرا سن من حيث النجاح الذي حققه وشجاعته الباسلة حيث قتل أمام السلطان أبو الحسن المريني مدافعا عن ملكه ولم يرضى بالفرار.

بعد هذه المرحلة تأتى مرحلة أخرى دشنها السلطان أبو حموا الثاني الذي تولى السلطة بعد انهيار الدولة الزيانية للمرحلة الثانية وقد اعتمد في إستراتيجيته

العسكرية على القبائل الهلالية من زغبه وسويد وغيرها وأصبح عصب قوته من تلك القبائل التي كانت موالاتها تتنقل بين بني مرين وبني عبد الوادي.

ولضمان موالاتها له اقتطع لتلك القبائل مساحات شاسعة من الأراضي كانت من قبل ملكا للقبائل الأمازيغية من مغراوة وبني توجين فالمغراويين حسب بعض المصادر التي اطلعنا عليها خرجوا من محيط مضاربهم نحو الشرق فاستقر البعض منهم في ضواحي قسنطينة بينما البعض الآخر اتجه إلى وادي السورة فاستقروا بولاية بشار حاليا حيث نجد بعض القصور المنهارة في تاغيت تحمل اسم لإحدى بطون مغراوة وما تبقى منهم استقر في المناطق الجبلية وترك الأراضي الزراعية لصالح بني هلال الذين يتواجدون فيها لحد الآن وبذالك تكون سيلية بني زان قد أضرت بالقبائل التي تتواجد في محيط الدولة ومن عصبيتها بالدرجة الأولى فشتتتها وتركتها تتخلى عن مضاربها وتلجأ إلى خارجها.

في المقابل إن سيطرة القبائل الهلالية على الدولة لم يحقق لها النتائج التي كانت تصبوا إليها بل زاد تدخلها في شؤون الدولة وعلى الخصوص عندما اشتد الصراع بين أفراد السلطة الحاكمة في من يتولى السلطة حيث أصبح الابن يقتل أباه للوصول إلى سدنة الحكم أصبح شيوخ القبائل الهلالية يختارون من يتولى السلطة من أبناء السلطان المقتول أو المتوفى ولم يقتصر الأمر على شيوخ بني هلال بل شمل أيضا بني راشد مما جعل الصراع يشتد بين القبيلتين على الخصوص في نهاية القرن التاسع وما يليه من القرن العاشر وهذا من أن عوامل فشل الاستراتيجية العسكرية للدولة الزيانية.

وما يقال عن تلك القبائل ينطبق أيضا على الحكومات التي عمدت في البداية إلى التخلص من بني زيان وهي الدولة الحفصية والمرينية.

فالأولى أصبح تدخلها مستمرا خلال القرن التاسع الميلادي ولها رأيها في تعيين وعزل سلاطين الدولة الذين يعارضون سياستها وكذلك بني مرين سلكوا نفس السياسة في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية.

ابتداء من القرن العاشر الهجري تدخلت عناصر جديدة شكلت خطرا على الدولة وهي القوة الأسبانية التي استطاعت أن تستولي على بعض موانئ الدولة ومنها وهران ثم هنين لكنها لم تتمكن من السيطرة على مستغانم ثم تنس لقربها من الجزائر وتدخل حكامها كلما تعرضت لهجوم من قبل الأسبان وهنا سيدخل عنصر جديد في الإستراتيجية العسكرية للدولة الزيانية ولم يكن لصالحها في أغلب الحالات لاتهامها بالعمالة للأسبان وهم رجال الطرقة الذين تمكنوا من تجنيد الناس لمواجهة الخطر الأسبان وأيدوا عروج وخير الدين فمحاربتهم ضد بني زيان وضد الأسبان معا وقد تمكن هؤلاء من تحقيق انتصارات في مواجهة الأسبان خلال محاولتهم المتعددة لاحتلال مستغانم.

فالاستراتجية العسكرية نتج عنها انهيار المجتمع الزياني وهو ما يتأكد من المصادر المعاصرة وعلى الخصوص كتب النوازل التي تعرضت للموضوع في مجموعة من النوازل منها سئل شيخنا عن أهل قرية جاءها الأعراب خيلا ورحالا وكان أهل القرية وهم الجل فر بنفسه وبعياله وهؤلاء الأعراب يزيد رجالهم وفارسهم على خمسمائة وناشلوها القتال من جبهات من القرية فلما كان من عشية يوم القتال طلب كبير البلد تمييز من يعتني بها من الرجال المقاتلين فوجدهم عدد يسير وشاع الخبر عن الأعراب أنهم يعودون للقتال من الغد بأضعف ما جاءوا به من الأمس فاشتد الخوف وفر من في القرية ليلا نحو من ثلاثين رجلا وفيهم من يعتمد على مدافعته لكثرة العرب فقام هذا الكبير وصالح العرب على قريته عندما خاف من فسادها ورخصها من الأمراء بمائة دينار ذهبا وكان قبل ذلك من عشرة أيام أخذوا قرية مثلها وهتكوا حريما وغنموا أموالا.

وهناك نزلة أخرى تتناول هي الأخرى موضوع الجيش ورد فيها سئل عن رجل كان من جيش بعض الضلمة وقد غصبوا أقواما فحصل له من ذلك شيء فهل يلزمه ما أخذ الجيش كله أو الذي حصل بيده فأجاب اذاكان رئس الجيش فعليه غرم الجميع واذاكان منهم لا أرى له ولا وجه له فإنما عليه قدر ما حصل بيده خاصة والله تعالى أعلم.

يستخلص من النازلة أن الجيش الذي كان من المفروض أن يقدم خدامه للدولة ويحمي حدودها أصبح يغير هو الآخر على القبائل التابعة لها.

وهناك نازلة أخرى تتعلق بنفس الموضوع ورد فيها سئل أبو عبد الله بن عرفة عن قضية قتال الديان ورياح وسويد وبني عامر أمراء المغرب أغلا وسط الأوسط 796.

وكان السائل الفقيه أبو العباس المريض فكتب إليه بما نصه بعد اختصار بعض ألفاضه.

إذا كان بعض فقهاء هذا البلد ذكر عليه شيئا وصرح له في السؤال أن بلاد المغرب شاغرة من العلماء وكم يكون بها من يستفتيء على هذه النازلة والله تعالى أعلم بقصده جواب سيدنا أمتع الله بكم عن مساءلة وهي جماعة من العرب تبلغ مابين فارسها وراجلها قدر عشرة آلاف أو تزيد ليس لهم إلا شن الغارات وقطع الطرقات على المساكين.

التنظيم العسكري :

أما في ما يتعلق بالتنظيم العسكري فيلاحظ البحث في تاريخ الدولة الزيانية أنه مر بمرحلتين الأولى تمتد من عهد يغمرسن إلى نهاية القرن السابع الهجري وخلالها كان الاعتماد الكلي كما سبق على القبيلة وبذالك التنظيم لا يختلف عن ما كان سائدا لدى القبيلة قبل تحولها من مرحلة البداوة إلا لأنه أضاف إلى ذالك عنصرا جديدا تمثل في إدخال قوة أخرى من خارج القبيلة تتمثل في بني هلال حيث اقطعهم جماعة الأراضي القريبة من تلمسان وشاركهم في حربه ضد أعدائه وبذالك أدخل عنصر جديد في قوته ولم يقتصر الأمر على هؤلاء بل اعتمد على المرتزقة من القوة المسيحية إلا أن هؤلاء تآمروا عليه وعندما اكتشف المؤامرة تخلص منهم ولم يعتمدهم في عهده.

وفي المرحلة الثانية خاصة عهد السلطان أبو حموا موسى الأولى أعيد تنظيم الجيش لأن الذين كتبوا عن الدولة أكدوا بأنه حول الدولة من مرحلة البداوة إلى التحضر بإدخال إصلاحات عليها ومنها القوة العسكرية.

فقسم الجيش إلى مجموعة من الفرق وعين قادة على كل فريق ويبدوا لي أن التقسيم تم على أساس العصبية القبلية فبنوا عبد الوادي كانوا تحت قيادة القادة

من بطونهم وكذالك بنو راشد بينما كان المسيحيين بقيادة مسامح وهذا لأول مرة تظهر القيادة الأجنبية بالنسبة للقوة الزيانية والقبائل العربية كانت بقيادة احد شيوخهم إلا أن القيادة العامة كانت بيد السلطان نفسه لأنه هو الذي يحدد مكان الهجوم وتاريخه والخطة المتبعة في شأنه لكن هذا العمل من قبل أبي حموا خلق لهم مشاكل حيث كان يميل لبعض القادة مثل والي مليانة الملقب بعمير على حساب والي العهد أبو تاشفين الأولى مما جعل هذا الأخير يتخلص منه بتكليف عبيده من المسيحيين فقتله عند كان مستريح بمنزله المعروف بالدار البيضاء

وهذا التنظيم العسكري حافظ عليه خليفته السلطان أبو تاشفين الأول حيث كان التقسيم السابق وجعل القيادة لهلال الكاطاني لكن القائد العام الذي يتولى قيادة الجيش وتبليغ الأوامر هو وتمكن من تحقيق انتصارات كبيرة على أعدائه خاصة الدولة الحفصية حيث كاد أن يزيلها من الوجود ويستولي على تونس لولى التحالف الذي تم بين بني حفص وبني مرين وأدي إلى مهاجمة كل طرف عليه فانتقلت القوة الحفصية وهجمت الجهة الشرقية والقوة المرينية من الغرب حيث تمكنت من الوصول إلى تلمسان فتعرض لها ومات وهو يدافع عن دولته مع أبنائه.

أجور الجند المصادر المتوفرة لدينا لم تشير كثيرا إلي الموضوع ماعدا كتب النوازل الفقهية التي تعرضت إلى إقطاع السلاطين للقبائل والأفراد المساهمين في المجهود الحربي فكانت أرض المخزن تمنح للفرد مقابل الخدمة في الجيش وكان بتلمسان ديوان يعرف بديوان العسكر تسجل فيه تلك العقارات ويظهر للباحث أن هذا الأخير عندما ينهي الخدمة تنتقل إلى غيره وأما القبائل فالإقطاعات كبيرة وقد مست مساحات شاسعة من أراضي الدول المعادية لبني زيان خاصة خلال عهد السلطان أبو حموا موسى الثاني ومن جاء من بعده.

أما الجنود المرتزقة من النصارى فكانوا يتقاضون أجور حسب الاتفاق بينهم وبين السلطة الزيانية ويختلف بين مرحلة السلم والحرب وبين الجند البسيط والقائد وهو ما يتجلى من خلال الوثائق الأسبانية المتواجدة بالأرشيف سيمنكاس

حيث يتجلى للباحث من خلالها أن الاعتماد على القوة المسيحية المرتزقة استمر حتى نهاية الدولة الزيانية.

الإستراتيجية العسكرية للدولة الزيانية :

قبل التعرض لهذا الموضوع يجدر بنا أن نبدي الملاحظات التالية :

أن الدولة الزيانية تقع بين قوتين كل واحدة منهما تريد القضاء عليها والسيطرة على أملاكها.

أن الدولة الزيانية أغلب القبائل المتواجدة في محيطها تتعاون مع القوة الأجنبية من أجل تحقيق أهدافها المتمثلة في تأسيس دولة لها وبذلك تكون حملاتها العسكرية إما موجهة ضد أعدائها في الخارج أو القبائل المعادية لها في الداخل من مغراوة وبني توجين وبعض القبائل الهلالية وعلى هذا الأساس ستبني إستراتيجيتها العسكرية والتي ستتمثل على الخصوص أولا في :

التحصينات العسكرية :

بالنسبة لموضوع التحصينات العسكرية أن الدولة الزيانية استفادت من التحصينات السابقة لها والتي أقامتها دول المغرب الإسلامي التي سبقتها بالمغرب الأوسط ثم أعادت الدولة تحصيناتها من جديد ومن تلك التحصينات تلمسان عاصمة الدولة اهتم بها من قبل المرابطين حينما اتخذوها عاصمة لإحدى ولاياتهم واستمرت تلك الولاية حتى انهارت الدولة نتيجة لمعاركها مع القوة الموحدية حول تلمسان وهي معركة الصخرتين وهو ما يبرز لنا الموقع الاستراتيجي لتلمسان كما حافظت خلال العهد الموحدي على مكانتها العسكرية ولم تتمكن القوة المعادية لهم مثل بنو غانية من الاستيلاء عليها وعلى الرغم من هذه الحصانة فان يغمرا سن بن زيان قد أعاد تجديد أسوارها وهو ما جعلها تصمد خلال الحصار الكبير الذي تعرضت له في عهد السلطان أبو سعيد بن يغمرا سن والذي دفع بالمرينيين الى إقامة عاصمة لهم إلى جوارها هي المنصورة التي لا تزال أطلالها ماثلة للعيان لحد آلان بالقرب من تلمسان وبعد نهاية الحصار قام أبو حموا موسى الأول بإعادة بناء الأسوار الذي تهدمت نتيجة للحصار.

وآخر بناء لأسوارها كان في عهد السلطان المتوكل وكان على حساب مقبرة مجاورة للمدينة مما جعله يتلقى معارضة من قبل علماء تلمسان وفي مقدمتهم أبو العباس الونشريشي الذي فر بنفسه إلى فاس خوفا من قتله على يد المتوكل لمعارضته في بناء السور.

كما تناول ابن مرزوق سور تلمسان في نازلة له أوردها المزوني أهم ماجاء فيها أن سور المدينة قد انهار في المناطق التي يمر منها الماء نحو البساتين المجاورة لها وأن الدولة لم تقم بعملية الترميم فطلب أن يكون الترميم من قبل القاطنين منه وأصحاب الباستسن يضاف إلى تلمسان نجد ايضا ندرومة القريبة منها والتي كانت أول هدف لبني زيان عند إقامة دولتهم وجهت لها العناية فتم تحصينها خاصة أنها تعرضت باستمرار للاحتلال المريبو قد استقرت بها أسر لبني زيان لقربها من العاصمة وتعتبر القاعدة الأولى.

حصن تمزيزدكت هو من الحصون ذات الأهمية يقع في حدود الدولة إلى الجنوب من وجدة استعمل مرارا من قبل الدولة عندما تواجه الخطر الخارجي فقد لجأ إليه يغمراسن عندما هاجمه الجيش الحفصي بقيادة السلطان أبوزكرياء الأول سنة 639هـ ومنه كان يقوم بغارات على الجيش الحفصي.

كما استعمل أيضا خلال الهجوم الموحدي على الدولة الزيانية بقيادة الخليفة السعيد سنة 641 فالتجأ إليه يغمراسن وكان يخرج ليلا ويقيم الكمائن لقوة الموحدين وقد تمكن في احدى كمائنه من القضاء على الخليفة فقتل وانهزمت قوته وتحصلت الدولة على غنائم كبيرة.

يضاف إلى الحصون السابقة مدينة هنين ووهران وعلى الرغم من أنهما مخصصان للنشاط التجاري فإنهما تتميز بتحصيناتهما لأنهما تعرضا للخطر الخارجي خاصة من قبل بني مرين حيث أقام هؤلاء أبراج بداخل تلك المدن عندما تمم احتلالهما مثل البرج الأحمر في وهران الذي شيده أبو الحسن المريني وعندما استعاد أبو تاشفين المدينة منه أعاد تحصينها وما يقال عن وهران ينطبق أيضا

على مستغانم التي كانت من مضار الدولة زيانية فكانت محصنة مما حال دون استيلاء الاسبان عليها على الرغم من المحاولات العديدة 1543.1547.1555

هذا فيما يتعلق بالمدن الغربية وحصونها في المدن الوسطى عرفت هي الأخرى الاهتمام فتم تحصينها ومن بين تلك المدن مدينة المدية وملیانة والجزائر التي كانت محل الصراع بين الزيانيين والقوة المعارضة لهم من دول كالحفصيين والمرينيين أو من القبائل كمغراوة وبني توجين مما أدى بالدولة إلى تحصينها لهم مرارا.

التحصينات الهجومية:

أغلب حروب بني زيان كانت دفاعية بالدرجة الأولى لكن هذا لا يمنع قيامهم بهجومات منها الموجهة ضد القبائل التي توجد بمحيط الدولة فكانت الهجومات تنطلق من الحصون القريبة من مضارب تلك القبائل ومن أبرز تلك التحصينات قلعة بني راشد حيث كانت تابعة لبني راشد المتحالفين مع بني زيان وقلعت تاغزورت الموجودة ضمن مضارب بني توجين قبل أن تتحول إلى بني هلال وبعض القلاع والحصون التي تعود إلى عهد الدولة الرستمية وبعضها كان ملك للقبائل والدراسات الاثرية أكدت وجود هذه التحصينات والقلاع ومنها قلعة المغيلة القريبة من تيهرت.

فكانت الجيوش الزيانية تتجمع بها ثم تشن هجومها على مضارب القبائل أي القرى التابعة لهم وتلك القبائل كانت تلجأ هي الأخرى إلى حصونها للحماية أو إلى داخل مدنها كبرشك وتنس ومازونة بالنسبة للمغراويين أو الالتجاء إلى المرتفعات الجبلية للحماية الطبيعية وهذا يتجلى بوضوح في الصراع بين بني زيان وتلك القبائل

كما عمد بنو زيان خلال هجومهم على أعدائهم إقامة تحصينات ينطلقون منها للهجوم على مدنهم ومن بين تلك التحصينات التي أقاموها مدينة تمزيزدكت على ضفاف وادي الصومام بالقرب من مدينة القصر والتي كانت موجهة بالدرجة الأولى ضد مدينة بجاية وقد أسسها السلطان أبو تاشفين الأول حيث أقام بها قوة عسكرية تقدر بحوالى ثلاثة آلاف جندي كما جمع بها الؤونة لكي تستعمل حين يحين الهجوم

وكانت تتميز بقوة تحصيناتها ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أقام هؤلاء حصون قريبة من بجاية منها حصن اليافوة وحصن تيدكالت وتلك الحصون لم تكن حصون دفاعية بل كانت هجومية بالدرجة الأولى لبعدها عن عاصمة الدولة وبدلك تمت عملية ازالتها من قبل بني حفص عندما هاجموها في عهد السلطان يغمراسن بن زيان.

من بين الأساليب المعتمدة من قبل بني زيان الجوسسة الاستراتيجية العسكرية المتبعة من قبل الزيانيين تتمثل بالخصوص فيما يلي :

سبق لنا التعرض إلى التحصينات الهجومية ونتناول أسلوب المواجهة العسكرية ويتمثل فيما يلي :

الزحف المباشر : اهتمت الدولة الزيانية بهذا الأسلوب منذ قيامها ويتمثل على الخصوص في مباغتة القبائل المعارضة للدولة في قراها أو المدن التابعة لها فقد قام بغمراسن بمواجهة المغراويين وبني توجين بعد عودة القوة الحفصية إلي تونس فدمر مضارب تلك القبائل.

وما قام به يغمر أسن سلكه من بعد ابنه أبو سعيد بن يغمر أسن فداس هو الآخر مضارب تلك القبائل ومدنهم مما أدى بهم إلى اللجوء إلى الجبال المجاورة لكل من برشك ومازونة وتنس وأما السلطان أبو حموا موسى فانه بعد رفع المرينيين الحصار على المدينة قام بالزحف على القبائل التي وقفت مع بني مرين ضده ومن بين القبائل زغبه والسويد والديلم.

ولم يتوقف عند هذا الحد بل توجه إلى بجاية لمحاربة الدولة الحفصية وخلال الزحف عليها قام بمحاربة بني توجين ومغراوة واستولى على مدينة مليانة التي انفصلت عن الدولة خلال الحصار الكبير على تلمسان كما استولى على مدينة الجزائر وتمكن من نزعها من ابن علان حاكمها وهكذا نجد أن اسلب الزحف قام به أبو حموا ثم ابنه أبو تاشفين الأول الذي حاول هو الآخر السيطرة على بجاية لمد حدود دولته نحو الجهة الشرقية فداس أيضا مضارب قبيلة بنو توجين ومغراوة ولم يتوقف عند ذالك بل ضرب بجاية واستعمل الأسطول الأرجواني.

لم يكن السلطان أبو حموا موسى الأول هو الذي لجأ لهذا الأسلوب بل نجد أيضا ابنه أبو تاشفين الأول الذي لم يتردد هو الآخر في إرسال البعوث إلى قاصية الشرق والإلحاح بالغزو على بلاد الحفصيين، أغزى بجاية بجيوشه بقيادة موسى بن علي الكردي وابتنى بالقرب منها حصن تمبكر الأول على وادي بجاية الصومام وأنزل به العسكر تحت قيادة يحيى بن موسى قائدشلف.

كما أرسل سنة 723 قوة أخرى لمساعدة حمزة بن عمر بن أبي الليل ضد الحفصيين وتشكلت تلك القوة من بني توجين وبني راشد أمر عليهم القواد وجعل على رأس هؤلاء موسى بن علي الكردي فخرج إليهم السلطان الحفصي فانهزموا بنواحي مرماجنة وقتل مسامح.

ولعل من بين أسباب الهزيمة وجود قوة بني توجين ضمن صفوف الجيش الزياني لأن هؤلاء قد هاجمهم بنو زيان سنة 719 وهو ما يتأكد من نص ابن خلدون الذي قال في شانهم «خرج السلطان أبو تاشفين أغلبهم بعد أن احتشد القبائل من زناته والعرب على ونشريش فاقتحم عليهم الجبل فانحازوا لحصن توكال فاقتحم الحصن على محمد بن يوسف فجيء به أسيرا فوخزه برمحه وتبعه الموالي برماحهم».

وفي سنة 724 هزم بنوا زيان قوة أمارة بجاية خلال مواجهتها لهم وبعد هذه المدة بسنتين أغارت القوة الزيانية على نواحي قسنطينة ثم عادت إلى بجاية فحاصرتها وتبين الأمر لها أن حصن بكر غير صالح لتجهيز الكتائب بها على بجاية وجمع الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر فتمت أربعين يوما وسموها تمزيزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الوادي بالجبل قبالة وجدة وأنزل بها عسكرا يناهز ثلاثة آلاف أوعز أبو تاشفين لجميع عماله بنقل الجيوش إليها.

وعندما شعر بنوا حفص بخطرها على بجاية أرسل السلطان أبو يحيى سنة 727 عسكرا لتدميرها فخرج أبو عبد الله بن سيد الناس في ذلك الحصن وقد كان قائده موسى بن عبد الله عندما بلغه خبرهم لم يبقى بداخل الحصن بل استنفر الجند وبعث إلى قواد عسكر بني حفص يطلب منهم ملاقاته فالتقى الجمعان بناحية

تمزيزدكت فانهزم الجيش الحفصي وقتل قائده ظفر الكبير مقدم البلاط من العلوجيين بباب السلطان.

ثم بعث السلطان قوة أخرى لمواجهة قوة بني زيان ترأسها بنفسه فوقعت بين الطرفين معركة انهزم فيها بنو حفص بعد انسحاب القبائل العربية التي أحشدوها فاستولى بنو زيان على ما كان بمعسكره بما فيه من الحريم.

وبعد هذه الانتصارات المتوالية كلف أبو تاشفين عيسى بن مزروع من مشيخة بني عبد الوادي بقيادة الجيش أوعز إليه بناء حصن آخر بالقرب من بجاية فبناه بالمنطقة المعروفة باليا قوة من أعالي وادي الصومام قبالة بجاية فاخذ بمحاصرتها.

لم يتوان بنو حفص في الدفاع على بجاية من وراء أسوارها بل تحالفوا مع بني مرين الذين رأوا في تطور قوة بني زيان خطر عليهم زيادة على طموحاتهم المتمثلة في توحيد المغرب تحت رايتهم فقبلوا العرض وتم التصاهر بين الدولتين.

ولتنفيذ المشروع كان الاتفاق ينص على أن ترسل الدولة الحفصية قوة نحو الجهة الشرقية لدولة بني زيان والقوة المرينية نحو غربها وكانت تلك القوة بقيادة أبو الحسن المريني الذي يعتبر من أهم ملوكها فحاصر تلمسان وضرب عليها سياج الأسوار وسرادقات الحفائر ونصب عليها المنجانيق فكانت قذائفه تسقط في كل مكان داخل المدينة مما دفع بسكانها إلى طلب الأمان إلا آن آبا تاشفين لم يستسلم له بل قاوم حتى قتل هو وأبنائه مدافعا عن ملكه 737 وفي نفس الوقت نهض السلطان الحفصي من بجاية إلى تمزيزدكت أجلى عنها عسكر بني عيد الوادي فلحقت بهم عساكر الموحدين فعاثوا فيها تخريبا ونهبا فنسفت نسفا ألحقت بالأرض.

لكن مقتل السلطان الزياني لم يكن النهاية بالنسبة لهذه الدولة وتاريخها العسكري بل تمكنت من استعادة سلطتها بعد هزيمة السلطان أبو الحسن المريني في معركة القيروان وظهرت قيادة جديدة بقيادة أبو سعيد وأبو ثابت حيث اقتسما السلطة فتولى الأول تسيير أمور الدولة والثاني قيادة جيوشها وكان أسلوبه لا يختلف عن ما

سبقه من الزيانيين وقد وجه جهوده في البداية لاستعادة نفوذ الدولة بالنسبة للقبائل الأمازيغية كمغراوة وبني توجين ثم مواجهة المرينيين الذين استقروا بالجزائر.

ولمواجهة هذه القوات عند محاولة انسحابها من الجزائر وتوجهها إلى المغرب التقى بها الجيش الزياني بالونشريش قرب شلف فانكشف الجيش المريني وقتل محمد بن على قائد الأسطول المريني الذي غرق بدلس ومجموعة من قاعدة الجيش وحريم السلطان ومنهن بنات السلطان أبو الحسن فبعث بهن السلطان الزياني أبو ثابت لأبي عنان بفاس.

وفي سنة 753 التقى بنو عبد الوادي بالقوة المرينية بانجاد واجمع بنو عبد الوادي على صدمة العسكر المريني وقت القائلة وهو أسلوب الكر والفر المستعمل من قبلهم في حالة عدم توازن قوتهم مع قوة بني مرين وكانت المباغتة قبل تهيؤ الجيش المريني للقتال وهو ما يؤكده ابن خلدون بقوله :

اجمع بنو عبد الوادي على صدمة العسكر وقت القائلة وقبل ضرب الأخبية وسقاة الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم فأعجل وهم عن ترتيب النصاب إلا أنهم تمكنوا من جمع قوتهم ودارت الدائرة على بني عبد الوادي وهذه المعركة التي حاول فيها بنو زيان تطبيق أسلوب المباغتة تؤكد بأنهم لهم عيون تتابع القوة المعادية أينما حلت لوضع كمائن لها.

وفعلوا ذالك مع المغراويين وبني توجين والقبائل العربية فكانت أغلب المعارك تقع بالقرب من حصونهم بعد محاصرتهم وإرغامهم على الالتجاء لها كقلاع مغراوة بالظهرة وقلاع بني توجين بالونشريس.

لكن تلك الجهود لم تحقق النتائج المرجوة منها لأنه بعد السلطان أبو الحسن تولى السلطة المرينية بعده ابنه الذي كان هو الآخر متبعا لسياسة أبيه فيما يتعلق بتوحيد المغرب تحت الراية المرينية وهو ما جعله يشن حربا ضد بني زيان أدت إلى مقتل أبو سعيد وأبو ثابت وسيطرة الجيش المريني على تلمسان من جديد لكن الدولة تعود من جديد بقيادة السلطان أبو حموا موسى الأول الذي تعاون مع القبائل العربية وتمكن بواسطتهم من استعادة سلطته.

وقد بلغ الجيش الزياني في عهده حسب ما ورده يحيى ابن خلدون خمسة آلاف في المرحلة الأولى واثنا عشر ألفا ثم أضاف إليهم ثلاثة آلاف فارس من القبائل العربية إلا أن هذا الجيش لم يضع حدا لخطر القوة الأجنبية على الدولة فتعرضت تلمسان من جديد للخطر المريني وعندما علم أبو حموا بتقدم القوة المرينية ترك تلمسان واتجه نحو الجنوب فاستقر بجرارة وبعد الانسحاب عاد إلى تلمسان وهنا يظهر خطر جديد يتمثل في انقسام الزيانيين على أنفسهم في المرحلة الأولى الصراع بين أبو حموا وأبو زيان وفي المرحلة الثانية الصراع بينه وبين ابنه هذا الصراع أدى إلى مقتله وبذالك انهارت القوة الزيانية أصبحت معرضة باستمرار للتدخل الحفصي والمريني في شؤونها الداخلية فكان تعيين حكامها من قبل القوة الخارجية واستمر الصراع بين أفراد الأسرة في تولى السلطة فأصبح الابن يقتل أبيه لكي يتولى الحكم فانهارت المؤسسة العسكرية الزيانية وظهرت قوة جديدة تتمثل في الأخوين عروج وخير الدين من جهة والأسبان الذين استولوا إلى موانئها الحيوية كالمرسى الكبير ووهران ستهنين.

لكن التحصينات حالت دون تحقيق هدفه فتوجه إلى قسنطينة وحاول السيطرة عليها إلا أنها كانت هي الأخرى تتميز بشدة تحصيناتها فهي زيادة عن تحصينها الطبيعي كانت الأسوار عالية لم يتمكن من السيطرة عليها وحتى سكانها عارضوا احتلالها وساهموا في الدفاع عليها فكانوا يقومون بقذف الجيش الزياني من فوق الأسوار.

لكن يبدوا لي أن الدولة الزيانية لم تكن لديها أسلحة ثقيلة لاستعمالها ضد أعدائها كما الحال بالنسبة لبني مرين وبني حفص لأن المصادر التي أرّخت لهذا الزحف لم تشر إلى استعمال القوة الزيانية للدبابات أو المجانيق عكس المرينيين والحفصيين أثناء محاصرتهم لتلمسان.

وبعد إحياء الدولة بعودة السلطانين أبو سعيد وأبو ثابت إلي تلمسان عادت المواجهة من جديد بين الزيانيين والمغراويين فزحف أبو ثابت معلى مضرب مغراوة بعد قتلها لأحد أفراد عائلة بني زيان بحد مروره بمازونة فزحف عليهم وجعلهم يتركون مضاربهم ومدنهم ويستقرون بالجبال المجاورة لتنس ومازونة سنة 752.

لم يتوقف الأمر عند الزحف المباشر فقد حاول الزيانيون ضمن استراتيجيتهم العسكرية استغلال الصراع بين القبائل لصالحهم.

لم يكن هذا هو الأسلوب الوحيد الذي اتبعه بنو زيان بل نجد أيضا أسلوب المواجهة المباشرة مثل ما حدث في عهد السلطان أبي حموا موسى الأول وأبى تاشفيت الأول في مواجهة بني حفص والأمثلة على ذالك كثيرة نذكر منها على الخصوص أن أبا حموا موسى أول عقد لمسعود ابن عمه الملقب ببرهوم على عسكره وأمره بحصار بجاية.

وفي نفس الوقت عقد لموسى بن عبد الله الكردي على عسكر ضخم ووجهه مع العرب الدواودة وزغبه على طريق الصحراء فوصلوا إلي بونه وبذلك نجد أن الزيانيين عندما يكونون في حالة حصار يتحولون من الدفاع إلى الهجوم ويجندون كل ما لديهم من قوة عسكرية لتحقيق أهدافهم.

أقسام الجيش :

إن تقسيم الجيش الزياني يبدوا لي انه لم يكن يختلف عن الجيوش المغربية المعصرة له ومن بين الذين تناولوا ذالك بالتفصيل السلطان أبو حموا موسى الثاني في كتابه واسطة السلوك حيث يقول عنه يكون ترتيب الجيش في العطاء بقدر بياناتهم وشجاعتهم وسابقتهم للخدمة واصطناعهم ومحبتهم وانقيادهم ألفتهم وهم القبيل والحماة والأنصار والأجناد ماعدا المماليك المنقطعين إليك فان جرايتهم في الرتب مشاهرة.

فالباحث يستنتج من النص ما يلي :

أن المجموعة الأولى تتشكل من قبائل بني عبد الواد لأقدميتهم في الخدمة العسكرية فقد رافقوا الدولة منذ قيامها وتشكلت أول الفرق العسكرية منهم وبفضل خدماتهم العسكرية استفادوا من اقطاعات كبيرة زيادة على الغنائم التي كان يحصلون عليها خلال مشاركتهم في المجهود الحربي.

يضاف إليهم القبائل البربرية حسب سابقاتها في الخدمة ويبدوا لي أن مشاركة تلك القبائل لم تكن منتظمة وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى مصلحة القبيلة فأحيانا تكون إلى جانب بني زيان وتحشد قوتها العسكرية معهم أحيانا تكون ضدها وبذالك تحول تلك القوة إلى صالح أعدائها من مرينيين وحفصيين وأتراك واسبان بعد ذالك.

يضاف إليها القبائل العربية التي كانت هي الأخرى تزود الجيش بمجموعة من الفرسان لاهتمام هؤلاء بالفروسية وقد تعرض الحسن الوزان إلي مشاركة هؤلاء في المجهود الحربي للدولة الزيانية فذكر مثلا أن بني عامر زودوا قوة السلطان أبو حموا موسى إثراء استعادته لتلمسان بحوالي اثنا عشر ألف فارس غير الرجالة وبفضلها استعاد العاصمة من القوة المرينية.

وأما الأحلاف في رينا فهي القبائل التي لم تغير مواقفها من الدولة منها على الخصوص قبيلة هوارة التي تولى بعض أفرادها قيادة الجيش الزياني وبذالك المساهمة في مجهودها الحربي وكذالك قبيلة بني راشد التي استمرت في موالاتها للدولة حتى سقوطها وقد برزت أكثر في المراحل الأخيرة من حياة الدولة حيث لعبت أسرة آل غانم دورا كبيرا في قيادة الجيش وكذلك الحشو ذات العسكرية.

ولم يتوقف دور هؤلاء على المشاركة في المجهود الحربي بل أسندت لهم الدولة وظائف إدارية مثل ولاية الأقاليم وتقربهم إلى مجلس السلطان ومنادمته في خلوته.

وقد وصف يحيى بن خلدون عند دخوله على السلطان أبى حموا موسى الثاني فقال وأتينا قصر الخلافة فجلس أمير المؤمنين في رحبة داره الكبرى بمنزل شرفه تحف به الأسرة الأعلون من قومه وعرب معقله وعامر يته واعيان الطبقات من أهل حظرته.

فالحروب المتواصلة في أرض الدولة الزيانية خلقت طبقة عسكرية استفادت منها الدولة أحيانا وأعدائها أحيانا أخرى أصبحت تلك الطبقة تقوم بحروب متواصلة سواء داخل القبيلة بين بطونها وبين القبائل المختلفة والأمثلة على ذالك كثيرة منها أنه خلال فتنة قامت بين عرب بني عامر من زغبه في أحيائهم خرجت فرسانهم للموجهة والمنافسة.

وفيما يتعلق بالحشم هل المعروفين الآن بولاية معسكر التي كانت معسكرا للقوة الزيانية مند عهد يغمر أسن ولعبوا دورا كبيرا في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية.

وأما المامليك فهم المرتزقة المسيحيون الذين كانوا يعملون في الجيش.

عناصر الجيش :

لعل أول سؤال يتبادر إلى ذهن الباحث ما هي العناصر التي يتشكل منها الجيش الزياني وقد أجاب على السؤال السلطان أبي حمو موسى الثاني بقوله (ينقسم الجيش إلى أربعة أقسام خاصتك وقبيلتك وأنصارك ومماليك)

أولا الخاصة : أي أقرب المقربين للأمير ويشكلون من أخلص شيوخ القبائل وعشائرها للدولة والدور المنوط بهؤلاء استشارتهم والتعرف على أسرار القبائل التي ينتمون إليها ويقومون أيضا بدور تجنيد أفرادها حين تتعرض الدولة الأخطار خارجية ولكي تستمر موالتهم للدولة لابد من إنزال كل واحد منهم في منزلته وترتيبه على قدر ما يليق به، ولعل أول من سلك هذه الطريقة السلطان يغمرا سن بن زيان عندما أستقدم القبائل العربية واستغلالها في مواجهة أعدائه من مرنيين وحفصين وقبائل زيانية[1].

أما في فترة موضوع البحث نجد ضعف الموالاة من طرف القبائل البربرية والعربية لأنها استقلت عن الدولة واستولت على ما كانت في حاجة إليه من أراضي بفضل قوتها ولذا فهي ليست في حاجة إلى إقطاعيات من قبل أمراء بني زيان.

يضاف إلى ذلك أن المجتمع الزياني لم يكن متماسك مثل ما كان عليه الحال في عصر قوة الدولة فالقبائل التي كانت تمول الدولة بالجند أصبحت تزود به أعدائها ومن الأمثلة على ذلك ما حدث لقبيلة بني عامر التي جندت قوتها لصالح أعداء بني زيان من الأسبان[2] وكذلك قبيلة سويد بزعامة شيخها حميد العبد حاكم، لكن هذا لا يمنع أنه في بعض الأحيان تجند تلك القبائل وتتوحد لمواجهة القوى الخارجية مثل ما حدث خلال الهجمات الأسبانية على مستغانم ومزغران 1543 1547 1553. [3]

ثانيا : قبيل الملك المقصود به قبيلة بني عبدا لوادي[4] وخاصة البطش الذي تنسب إليه الأسرة الحاكمة وحتى يمكن المحافظة على عصيبة القبيلة وقوتها يجب أن لا يوجههم الأمير لغيره ولا يمنعهم من خيره ويختص منهم من يكون محبا ناصحا مخدما وتقديم الأشياخ على المجموع :

لكن من خلال دراستنا لهذه الدولة منذ تأسيسها إلى تاريخ سقوطها لاحظنا أن العصبية القبيلة بدأت تضعف منذ تأسيسها نتيجة للصراع بين بطون القبيلة مما أدى ببعضها إلى التحالف مع أعدائها والهجرة إلى الخارج (مضارب القبيلة) وخلال فترة موضوع البحث زاد الضعف أكثر مما كان عليه من قبل نتيجة لموقف الأمراء من شيوخ القبيلة فتنصب الأمراء لم يستشار فيه شيوخ بني عبد الوادي مثل ماكان عليه في العصر الذهبي للدولة كما أن الصراع المستمر بين أمراء الفترة الأخيرة من عمر الدولة الزيانية جعل في عبد الوادي ينقسمون على أنفسهم مما حال دون تجنيد أفرادهم لصالح الدولة فقل الجيش، لكن هذا لا يمنع من استمرار وجود قادة ينسبون إلى بني عبد الوادي[5] هذا فيما يتعلق بالمتطوعين أما الجيش النظامي فيشكل مما يلي :

أولا :

أنصار الملك : يتم اختيارهم وفق شروط معينة وهي الشجاعة والأقدام ومعرفتهم بأساليب القتال، ولذا فهم لا ينحدرون من قبيلة واحدة واجهة بل من قبائل وجهات مختلفة.

ويكون تواجدهم باستمرار إلى جانب الملك إلى الإقامة عاصمة الدولة تلمسان وإما تنظيم هذه المجموعة فهو لا يختلف عن ما هو مألوف في الجيوش الإسلامية ميمنة وميسرة ومقدمه وساقة بحيث تكون صورة الجيش مثل الطير يمثل الملك فيه القلب النابض.

الميمنة تتشكل من أشجع الجند وأقواهم لأنهم هم الذين سيصطدمون بقوة العدو في حالة الهجوم أو الدفاع.

والميسرة يكونون من مشاهير الفرسان وبما أن الجيش الزياني في العصر الذهبي كان الجزء الأكبر منه من قبيلة بني عبد الوادي[6] الزيانية وزناته تشتهر بالفرنسية وإن قائد هذه الفرقة لا بد أن تتوفر فيه شروط منها أن يكون عارفا بأساليب الحرب قد مارسها المرة بعد المرة.

وأما المسافة فهم الذين يتصلون بالأمير مباشرة لذا يجب أن يكونوا من الحماة يبدو لي أن الدولة الزيانية قد حافظت على هذا التنظيم حتى نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي لأن القوة التي واجهتها خلال تلك المدة أسلحتها لا تختلف عن ما كان لدى بني زيان إلا أنه خلال للنصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وقع تطور كبير في تنظيم الجيش والأسلحة المستعملة التي لم يراكبها تطور بالنسبة لبني زيان وبقية بلدان المغرب الإسلامي والأمثلة على ذلك كثيرة منهاإن القوة الأسبانية المحتلة للمرسي الكبير والتي لا يزيد عددها عن ستة الألف جندي استطاعت أن تواجه قوة زيانية تتشكل من عشرين ألف قدمت لاستعادة المرسى الكبير ومنعتها من التقدم للأسوار المدينة باستعمالها المدفعية المرابطة يحصون المدنية[7]. وحتى الوثائق الأسبانية للاتصال من شجاعة جند بني زيان بل الفرق يرجع بالدرجة الأولى إلى وقوع السلاح لهذا نلاحظ أن قوة بني زيان في بعض الأحيان نجت للأمان يعرف بجرب العصابات وأحسن مثال على ذلك أن الكونت الكودتي عندما كان عائد من تلمسان اعترضته فرق من الجيش الزياني استعملوا في مواجهتهم المباغتة[8] ثم الانتقال إلى الجبال الصعبة وإسقاط الحجارة على الجيش خلال اختياره المناطق الجبلية الصعبة.

وعندما كان يحصل على السلاح الذي يأتيه من الجزائر يكون النصر لصالحة مثل ما حدث في معركة تفادا. 1536 التي أسر فيها أكثر من ستمائة جندي أسباني زيادة على حلفائهم من بني عامر.

وأما القسم الرابع من أقسام الجيش فهو يتكون من العناصر الأجنبية وهم الأعلاج والنصارى والإعزاز والوصفان ويكون قدر هؤلاء قدر الحماة والأنها[1]

والهدف من وراء ذلك خلق توازن بين عناصر الجند وعند خروج عنصر من العناصر ضد الأمير يمكن أن يشغل العناصر الأخرى في قمته.

استعملت الدولة الزيانية العناصر الأنفة الذكر في عصر الذهبي خاصة منذ عهد يغمرا سن إلى نهاية السلطان أبي تاشفين الأول.

فالأعلاج هم العبيد القادمون من البلدان الأوروبية وقد سبق للدول الإسلامية استعمال هؤلاء الذين عرفوا بالصقالبة وخلال عهد السلطان أبو حمو موسى الأول تولى أحدهم وهو مفتاح قيادة الجيش الزياني وأن تواجدهم بكثرة يرجع في رأينا إلى ازدهار المبادلات التجارية بين بني زيان والدول الأوروبية وما يقال على هؤلاء ينطبق أيضا على الأفواج الذين قدموا من إفريقية بواسطة القوافل لأن تجارة العبيد عرفت مرحلة الازدهار خلال العصر الذهبي للدولة. وأما الأغزاز فهم مهاجرون من أصل كردي قدموا من المشرق بعد سقوط بغداد تحت ضربات أشار 655 هـ/ وقد استخدموا في جيوش دول المغرب الإسلامي ومنها الدولة الزيانية وخاصة في عهد السلطان أبي تاشفين الأول حديث تولى موسى الكردي قيادة الجيش وحقق انتصارات كبيرة لصالح بني زيان ثم نكبه ولعل ذلك أثر على هؤلاء.

وأخيرا النصارى بدأ استعمالهم منذ عهد يغمرا سن بن زيان واستمر تواجدهم حتى المرحلة الثانية من حياة الدولة الزيانية.

فرقة مماليك الملك ضعفت هي الأخرى خلال فترة موضوع البحث العوامل التالية منها ضعف الحالة الاقتصادية لأن الوصفان والعلوج كانوا يشرون من أسواق العبيد فضعف التجارة الخارجية بسيطرة الأوروبيين على أسواق العبيد في إفريقية وانعدام الأمن في الطرقات حال دون وصول الأعداد التي يحتاج إليها الجيش الزياني.

وما يقال عن الزنوج ينطبق على العبيد الأوروبيين لأن أوضاع أوروبا خلال فترة موضوع البحث تغيرت كما كانت عليه في العصور الوسطى مما قلل من استغلال رجالها كعبيد.

كما كان للصراع بين أمراء بني زيان دور في التخلص من عنصر الأغزاز الديني لم يرد ذكره خلال النصف الأول من القرن 10 هـ/16 م

أما التفرقة وخاصة من أسبانيا قل استعمالهم عما كان عليه في الماضي لعدم الثقة فيهم لأن أمراء بني زيان دخلوا في حرب مع الأسبان الذين يحتلون أراضيهم زيادة على ما سبق أن تجنيدهم يحتاج إلى أموال أكثر مما كان يدفع لغيرهم من عناصر الجند.

قيادة الجيش :

فيما يخص القيادة يرمي السلطان أبو حمو موسى الثاني أن يكونوا من أتجاد جندك صادقين في محبتك وافين بوعودك دون حزم وكفاية ومعرفة ودراية لا يصلون إلى الرعية بمضرة وبابي الدابة بل يسدون الثغور وسيصدون العدو المحدود ويحطون البلاد ويمنعونها من كل باع وعاد [10] يستنتج من النص أن هناك شروط في قولي قيادة الجيش الزياني إلا أنها لم تحترم في جميع المراحل التي مرت بها الدولة الزيانية فالكفاءة إذا وجدت يكون التصدي لها من خلال المؤامرات التي تحدث بداخل قصور بني زيان فقد تمت تصفية موسى الكردي بعد انتصاراته.

وعن علاقة الجيش بالرعية فالمصادر التي بين أيدينا تعرضت إلى عملية النهب والسلب التي عرفتها أرياف الدولة الزيانية وقد أورد المازوني مجموعة من النوازل لها علاقة بهذا الموضوع وخاصة في مرحلة انحطاط الدولة. أما فترة موضوع البحث فإن أهم مصدر تناول موضوع القيادة هي الوثائق الأسبانية ومن خلالها تستنتج بأن القائد العام للجيش هو المزوار الرجل الثاني في الدولة[11].

وخلال وفاة مولاي أبو عبد الله 1534[12] كان قائد حرس الأمير أحد أفراد الأسرة الزيانية أبو زيان إلى جانبه القائد على التركي يضاف إليهما مولاي مغنى وابن فرد من الأسرة الحاكمة.

كما ورد اسم قادة آخرين وهم ابن خدوش العبد الوادي وابن الملاح وأبو شيمة المليانى وابن هلال وابن عمور.

وتنظيماتها وهي المتمثلة في استعمال الجوسسة ضد العدو وفي هذا الصدد يقول يجب أن يكون لك جواسيس في بلاد العدو يراقبون أفعاله وعيون تلاحظ أعماله

وتشاهد أحواله لإظهار قوته ليلا ونهارا يسألون عن أحوال العدو سرا وجهارا فكلما زاعم هذا العدو خداما وأظهر فيك أطماعا جاءت الجواسيس بأخباره[13].

وظف بنو زيان هذا السلاح في العصر الذهبي واستعملوا وسائل جد متطورة للحصول على معلومات تتعلق بقوة العدو وقد تعرضت المصادر إلى الموضوع إلا أنها لم تعطيه ما يستحق فقد ذكر أن السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمرا سن أرسل مخبرة إلى قصر السلطان المذكور وكلفها بإيصال المعلومات عنه إليه، وبالفعل كانت تراسل أبو عثمان عن قوة بني مرين وعلى الخصوص ما يتعلق بخططهم المتمثلة في إحتلال بني زيان.

أما فترة موضوع البحث فإن الدولة الزيانية قد تخلت عن استعمال الجوسسة عكس القوى المعادية لها وعلى الخصوص الأسبان الذين تمكنوا بفضل جواسيسهم المندسين في تلمسان وغيرها من المدن الدولة الزيانية التعرف على النقاط الضعف كما لعبوا دورا هاما في كثرة المؤامرات التي عرفها البلاد بني زيان ومن بين العناصر التي جندتهم إسبانيا لصالحها أفراد من الجالية اليهودية وفي بعض الحالات بعض أنصار الملك يضاف إلى هؤلاء أفراد من الأسرة الحاكمة وشيوخ القبائل الذين كانت سياستهم متذبذبة في موالاتها للأطراف الصراع.

وخلاصة للقول أن المؤسسة العسكرية الزيانية عرفت هي الأخرى انحطاطا كان من أبرز العوامل التي حالت دون مواجهة القوى الخارجية التي تكالبت عليها الحصون.

عرفت الدولة الزيانية منذ تأسيسها حتى نهاية عصرها الذهبي إعطاء أهمية كبرى لتحصين مدنها وعلى الخصوص عاصمتها تلمسان وبناء حصون وقلاع بالقرب منها أو في المناطق المجاورة للدولة المرنية والحفصية وقد تعرض السلطان أبو حمو موسى الثاني إلى الموضوع فقال : وصفة المعقل أن يكون حصنا حصينا قد يشتمل على الماء والمختزن تجعل فيه ذخائرك وأموالك وأثاثك وأمتعتك وأثقالك يسكن فيه أجود أجنادك وحماتك وقوادك تشحنه بالرجال المرتجلة وأثر

عداء من الرجال المخصصة وتسكن فيه أهل الصناعات وأرباب النجارات والبضاعات حتى لا يحتاج الحض إلى غيرهم وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون فيه الانتفاع مثل التين والزيتون[14].

أما ما جاء فهذا النص ينطبق على الحصون والقلاع التي أسستها الدولة الزيانية ومن بينها حصن تمزيز دكت بولاية بجاية حاليا وقد توصل الأثريون في بجاية إلى تحديد موقعه ومساحته ووضعوا له مخططا هذا الحصن شيد في فترة زمنية قصيرة كان الغرض منه التطبيق على مدينة بجاية، كان يحتوي أيضا على المؤونة التي تسمح للجند البقاء بداخله فترة زمنية طويلة.

خلال فترة موضوع البحث لم تتعرض المصادر إلى قلاع أو حصون شيدت من قبل أمراء بني زيان في هذه المرحلة من حياة الدولة بل كل ما ذكر أنهم شاركوا في بناء حصن الأسبان في كل من أرزيوا وارشقول، وقلعة العناية بالقلاع والحصون وإعادة تحصين مدينة تلمسان كان عاملا من العوامل التي ساعدت القوى الخارجية في السيطرة على أراضي للدولة واحتلال عاصمتها مرارا، كما حدث من قبل عروج سنة 1517 والكوديتي 1543.

الجوسسة :

يتعرض السلطان الزياني إلى نقطة حساسة في تاريخ الجيوش، هذا فيما يتعلق بالجيش أما الأمن فإن الدولة الزيانية في عصرها الذهبي أعطت أهمية للشرطة وحددت لنا جوانب تدخلها وفي هذا الصدد يقول أبو حمو موسى الثاني ويدخل عليك صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك ليخبرك بما تزايد في ليلتك ثم لا تخفى عليك شيء من أحوال رعيتك وبلدك ومع ضبط مملكتك عن القليل والكثير والجليل والحقير.

فالذين يستفاد من النص أن بني زيان كانوا يملكون جهاز للأمن يتواجد بعاصمة الدولة الزيانية وبقية مدنها إلا أنه تعرض هو الأخر للضعف مما أدى إلى انعدام الأمن بداخل المدن وبالأسواق والممالك التجارية خلال الفترة موضوع البحث.

الأجور :

بالنسبة لأجور الجند يقول السلطان أبو حمو موسى الثاني ترتيب الجيش في العطاء يكون على قدر شجاعتهم وأسبقيتهم في الخدمة واصطناعهم ومحبتهم وانتقادهم واجتهادهم وهؤلاء أهل الطاعات والمجابي.

أما المماليك المنقطعين إليك المتطرفين في الخدمة بين يديك فإن جراياتهم في المرتب مشهور وأرزاقهم من بيت المال مباشرة جريا على توالي الشهور وهم عندك في جريانهم على قدر طبقاتهم.

فأصحاب البلاد يحبونها في أوقات معينة [15] ويتجلى من النص هناك تنظيم فيما يتعلق بأجور الجند العاملين لدى الدولة الزيانية وهؤلاء ينقسمون إلى نوعين منهم من يأخذ أجره في أوقات معينة وفي مقدمتهم المتطوعين الذين يلتحقون بالجيش في ظروف معينة مثل تعرض الدولة الأخطار الخارجية فتقدم الأموال لهم بمجرد التحافهم بقرتهم وهناك الجند النظامي الذين يتقاضون أجورهم خلال كل شهر [16] ويربط السلطان أبو حمو موسى الثاني زيادة الجند بوفرة الأموال في خزانة الدولة لذا فمن بين العوامل التي أدت إلى نجاح بني زيان ضد أعدائهم خلال العصر الذهبي للدولة وفرت الأموال نتيجة للازدهار الأنشطة الاقتصادية وعلى الخصوص التي تأتي من الضريبة الجمركية إلا أنه في مرحلة موضوع البحث فقدت الدولة أغلب موانئها وتوقف النشاط التجاري حتى في أسواقها الداخلية لانعدام الأمن في المسالك. يضاف إلى ما سبق أن الدولة أصبحت تدفع نسبة كبيرة من أموالها لصالح أطراف الصراع مما حال دون تسخير جزء من أموالها لإعادة بناء قوتها العسكرية يتضح مما سبق أن هناك عوامل كثيرة أثرت على الجيش الزياني حالة دون قيامه بمواجهة الأخطار المحدقة بالدولة مما جعلها تسقط مرارا بعد تغلب أطراف الصراع عليها.

الهوامش :

01 – ابن خلدون العبر مجا 7 ص 222 213 يحي بن خلدون بقية الرواد.ج 1، ص 39 من الباب الأول

02 – الفصل الأول من هذه الرسالة ص

03 – الفصل الثاني من الباب الأول ص

04 – ابن خلدون العبر مجالا ص 165

05 – أنظر رسالة المنصور بن غانم حاكم وهران الكونت دون الكوديني الموجودة بأرشيف سيمتكاس مجموعة الشؤون العسكرية الملف رقم 6 ورقة 37

06 – أبو حمو موسى الزياني المصدر السابق ورقة 44.

07 – أنظر الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة ص

08 – الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة ص

09 – الباب الأول: الفصل الثالث من الرسالة ص

10 – أبو حمو موسى الزياني المصدر السابق ورقة 35

11 – من أبرز العائلات الراشدية الذين تولوا هذا المنصب خلال فترة موضوع البحث أغانم الراشدي ومن أبرزهم المنصور إبن غانم انظر الباب الأول الفصل الثالث من هذه الرسالة ص

12 – نفس الباب والفصل ص

13 – حمو موسى الزياني المصدر السابق ورقة 56 ب

14 – أبو حمو موسى الزياني واسطة السلوك ورقة 49 ب

خلال الملتقى الخاص بذكرى مرور الفتي سنة عن تأسيس مدينة سطيف أطلعت على مخطط تمزيز دكب في المعرض المقام بهذه المناسبة وكان الملتقى في أواخر أفريل 1997 بمتحف سطيف.

15 – أبو حمو موسى الزياني المصدر السابق ورقة 71

16 – الوثائق الإسبانية أشارت إلى رواتب الجند الزياني وقالت عنها أنها تختلف بين الورشاة والفرسان.

الاستراتيجية العسكرية في عهد العثمانيين

الصبايحية (الفرسان) :

تشتهر الجزائر بتربية نوعين من الخيول الأصيلة هما الحصان العربي والحصان المغربي المسمى بارب (BARBE) وقد سمحت تربية هذين النوعين من ترقية العمل الحرفي للعتاد والأدوات المتصلة بالخيل مثل صناعة الجلد والسروج والحدادة. .. كما سمحت بتطوير المهارات المتعلقة بامتطاء الخيل والمبارزة من على ظهورها وتطبيق طرق الكر والفر وإطلاق النار واختراق الصفوف. .. والفرسان في العصر الإسلامي الحديث هم الخيالة، لكن معظمهم من غير النظاميين وليست رتبة الفارس ذات المعنى التشريفي مثل ما كانت عليه التنظيمات في أوروبا في العصر الوسيط بعد اجتيازهم لتدريب معين. [1]

إذا كانت فرقة المشاة في الجيش النظامي تتكون في الغالب من الأتراك أصلا أو المستتركين، أي الأجانب من مسيحيينالذين دخلوا الإسلام بعد أسرهم، ومسلمين الذين جاءوا إلى الجزائرحبا في المغامرة والجاه، فإن فرسان الدولة جلهم من العرب، أي من أبناء الأوطان والقبائل المحيطة بالمدن، يضاف إليهم القليل من الأتراك الذين أنهوا الخدمة العسكرية وتجزأروا، أو من المنتمين إلى الخارجين عن الصفوف، أو من الكبار المتزوجين من مواطنات جزائريات، لأنه نظرا للخدمة الإلزامية في الجيش لا يسمح للأتراك إلا بصعوبة ترك العسكرية في فرق المشاة والانضمام للفرسان. [2]

يجهز الداي فرق الصبايحية من وحدات إقليمية من أهل المخزن خاصة، فعملهم يكون بجانب البايات في أوقات السلم، لكن عندما تعلن التعبئة العامة فإن البايات ينضمون إلى الآغا ويعملون تحت قيادته، وبالتالي فإن فرق الصبايحية تدمج كفرقة موحدة مع فرق الجيش.

للآغا قادة من المشائخ العرب تحت حكمه يتمتعون بامتيازات عديدة، وهم تحت حماية فعالة، ولهم عوائد كثيرة يتناولونها، وهم من بين الرعية الذين يلبسون الخلعة

يوم عيد الأضحى، وهم موزعون على الأوطان القريبة من مدينة الجزائر والتي تشكل سهل متيجة وهي :

وطن بني خليل، وطن بني موسى، وطن الخشنة، وطن بني جعد، وطن بني سليمان، وطن عريب ووطن حجوط. [3]

هذا هو النوع الأول من الفرسان الصباحية الذين يكونون قوة الخيالة التي ترتبط مع وزير الدفاع والقائد الأعلى للجيش برباط تقليدي سياسي واقتصادي، استطاع الداي بفضلهم حماية عاصمة الدولة وحواضر المدن الكبرى (البايلك). ثم هناك نوع ثاني من فرق الصبايحية يشكلون ما هو معروف اليوم بالشرطة القضائية تتبع خوجة الخيل ومساعدة آغا العرب.

يشرف خوجة الخيل على رعية من عرب الصحراء وله أتباع يركبون الخيل يسمونهم السرارجة.[4] وعليهم كبراء يسمونهم المقاديم يرافقون خوجة الخيل على ظهور جيادهم، ويقفون بين يديه وقت الحكم، وإذا أراد أمرا فإنه يعين رجلا أو رجلين من السرارجة ليأتوا بخصم المشتكيأو يرسلهم لحمل المكاتيب للرعية.[5] وهو الدور الذي يقوم به اليوم المحضر القضائي.

أما آغا العرب فإنه يتبع خوجة الخيل، وهو مستقر في سهل متيجة له أشياخ أو جباة لجمع المطالب المخزنية، وله أربعة كبراء هم : الباش شاوش أو كبير الحرس وكاهيته، أو نائبهو باش علام وهو رئيس حملة الرايات، وباش مكاحلي وهو كبير (القناصين) من الجيش البري، وهم بمثابة فرق مساعدة للعدالة مهمتها فرض الأمن، فهم الذين يعينون الصبايحية للأشغال أو المكاتب ولتخليص الحقوق والإتيان باللصوص وقطاع الطرق. [6]

من أهم الهدايا التي يقدمها الداي للبايات عند خروجهم لتقديم الدنوش فرس بعدة كاملة، تتمثل هذه العدة في سرج مذهب ومسدسات يوضعان في مقدمة السرج، أما هدية البايات لدار الإمارة فمن بينها 40 حصانا، وما يماثلها لكبراء الدولة ولأتباع الآغا وكبراء الرعية، ويصاحب البايات فرق الفرسان تمتطي خيولا مسومة ذات سروج ذهبية وعليهم لباسهم الفاخر

أما النوع الأخير من فرق الصبايحية فإنهم الحرس الخاص بالداي (الحرس الجمهوري حاليا) ومعظمهم من المسنين الذين قدموا خدمات للجيش أو الذين دخلوا الإسلام وربوا من طرف الباشوات القدامى، ومن بين هؤلاء الصبايحية، الذين لم يأتوا عن طريق الدائيات، من وصل إلى رتبة آغا. [7]

وللداي مجموعة من الخيل تربط بالسباط الذي يحاذي مدخل قصر الداي ويقع جنوب المدخل الرئيسي للقصبة، وتكون هذه المجموعة دائما على أتم الاستعداد للامتطاء، تقابل كل زائر للقصبة، وتظهر أهمية الخيل في حياة أكابر الدولة، من جهة، وعظمة الملك من جهة ثانية. [8]

أما الإسطبلات التي كانت مخصصة لفرقة الصبايحية (أو السياس.) والتي تعرف بإسطبلات الداي فقد كانت تبعد عن القصبة . مقر الحكم المركزي . بحوالي 150 م. [9] بالجهة الجنوبية الغربية وهي عبارة عن بنايتين متوازيتين. تبلغ مساحة الأولى 4200 م2تتوسطه ساحة رباعية الشكل تبلغ مساحتها 455 م^2. إما البناية الثانية فهي عبارة عن بناية مضلعة تتوسط ساحة واسعة.[10]

كما نجد بمداخل كل مدينة إسطبلات مخصصة لخيل العامة والتجار والمسافرين، وتعرف هذه المرافق بأسماء الأبواب التي تكون بمحاذاتها. مثلإسطبلات باب عزون وإسطبلات باب الوادي. .. الخ

يترأس فرق السياس قائد مكلف بتنظيم وتنظيف وحراسة الإسطبلات وخاصة التابعة للداي وللجيش، يدعى الباش سياس.[11]

ج . المدفعيون(الطوبجية)

تتكون فرقة المدفعيين (الطوبجية أو الطوبجيلر) من ثلاثة أقسام رئيسية. يعمل كل قسم منهم في اختصاص مرتبط بالمدفع، ويتمثل في :

1 . صناع المدافع.
2 . صناع البارود.
3 . مستعملو المدافع.

1 . صناع المدافع :

ليس لدينا أدلة كافية على وجود صناعة للمدافع قبل القرن السادس عشر، لكن استعمال هذا النوع من السلاح الناري قد ورد إلينا ذكره من خلال الكتابات الإسبانية عن حملاتهم ضد السواحل الجزائرية، إذ أن الحملة الإسبانية على المرسى الكبير (13 سبتمبر سنة 1505). كانت قد عرفت تبادل القصف بالمدفعية، وكانت الفرق الجزائرية من أعلى حصونها ترمي بقذائف من الحجارة زنة كل واحدة منها 20 كلغ، وهذا ما جعل الأسبان يعمدون إلى وضع أكياس من الصوف على مقدمة السفن حتى لا تصيبها قذائف المسلمين. [12]

وعند دخول عروج إلى الجزائر سنة 1516 شرع في إقامة حصن مقابل لحصن الصخرة (البنيون دارخيل) الإسباني ويأخذ في قصفه بالمدافع ثم أمر المعلمين بصنع البارود لتزويد المدافع والبنادق.[13]

وقد جاء أيضا في كتاب غزوات عروج وخير الدين أن هذا الأخير طلب المدد من الباب العالي، وعندما جاءه ما طلب من عتاد حربي تكونت لديه كمية هامة من الذخيرة تضاف إلى ما كان عنده وما صنعه هو في الجزائر من مدافع وبارود . [14] أي أن الجزائر كانت بها صناعة للمدافع ولو على نطاق ضيف، خاصةبعد توافد مهاجري الأندلس.

يقوم على صناعة المدافع عدد من المسؤولين والفنيين والعمال والصناع نذكر منهم :

- المعلم : وهو المسؤول الأول على دار الصناعة وعلى لجنة الاختبار والتفتيش للمدافع.

- وكيل الحرج : المقتصد الذي يستلم المدافع جاهزة.

- الباش طبجي : وهو قائد المدفعيين والمسؤول على العمال والسباكين والمسؤول على دفع رواتبهم.

- مجموعة السباكين : وهم المكلفون بصب المعدن وتهيئة القوالب. ..

- مجموعة الخراطين : لصقل المدافع، وصناعة القنابل والقذائف والقواعد المعدنية والعجلات. ..

- مجموعة النجارين : لإعداد أسرة المدافع.

- العمال : مكلفون بإيصال الحطب وإيقاد النار ورفع القوالب وتحضير المواد الأولية التي تدخل في الصناعة.

- الحراس.

ونظرا لوجود مسبكة واحدة بالجزائر لصناعة المدافع فإننا نعتقد أن عدد هذا النوع من المنتمين إلى فرقة المدفعيين قليل أيضا مقارنة بالعاملين بها بمختلف التحصينات والمؤسسات العسكرية الأخرى.[15]

2 . صناع البارود :

يدخل تحت هذا القسم من مدفعيين، صناع البارود وكذا المشرفون على مخازن البارود مع الإشارة إلى أن صناعة البارود كانت تقوم بها الدولة في مصانعها العمومية كما كانت تقوم بها مجموعة من الأسر ترتبط مع الإدارة المركزية بعقود تمكنهم من مزاولة الحرفة مقابل تقديم ضرائب معينة.[16]

يتكون فريق العمل بمصانع البارود عادة من :

- أمين المصنع : وهو المسؤول عن إدارة الورشات.

- الوزان : وهو المكلف بمراقبة الموازين والمكاييل المعدة الطحن الكبريت والفحم والملح.

- العمال الفنون : ويقومون بتصفية وتنقية الملح وحرق الحطب وطحنه وغربلته.

- الحراس : وهم المكلفون بحراسة مخازن البارود ومصانعه.

يبلغ عدد المنتمين إلى هذا القسم بكل مصنع حوالي 20 عاملا جلهم من مختلف الشرائح الاجتماعية.[17]

3 . مستعملو المدافع :

إذا كان تحديد عدد ونوع رجال الصناعة الحربية يتم من خلال وجود أماكن الصناعة سواء كانت للأسلحة (طوبخانة) أو لصناعة البارود وتخزينه، فإن عدد العاملين بالمدافع (النظاميون) نجدهم يخضعون لسلم ترتيبي يبدأ من الطوبجي (المدفعي)إلى الباش طوبجي، أو قائد سرية من الطبجية أو فيلق إلى الباش طبجي باشي (القائد العام للمدفعيين).

تتوزع فرق المدفعية على سفرات أو سفارات أو وحدات على البروج البرانية والأسوار والحصون والقلاع والموانئ والسفن الحربية والمتاريس والطبانات.

يختلف عدد المدفعيين من برج لأخر وبين سفينة وأخرى حسب أهميتها ومكانتها وعدد المدافع المنصبة فوقها فإذا كانت السفن هجومية فإن تسليحها يكون يتراوح من 10 و62 مدفعا ويصل طاقم بعضها إلى 400 شخص [18]. وإذا كان بشرفة بطارية بخمسة مدافع فإن عدد القائمين عليها يكون في حدود العشرين أو يزيد، حسب أهمية الموقع وأهمية المعركة لأن العمل بالمدفع يتطلب وجود أربعة أشخاص، لكل منهم مهمة محددة بدقة وهم:

- حامل المشعل : أو حامل قبس الفتيل الذي يجب أن لا ينطفئ أثناء العمل بالمدفع ولو لوقت قصير (لحرق فتيل البارود).

- حامل المكيال : المكلف بتطعيم وملئ سبطانة المدفع بالبارود.

- حامل المدك : لاكتناز وتكتيل البارود بالصمامة في مؤخرة السبطانة، بينما يستعمل الطرف الثاني من المدك في تنظيف السبطانة قبل حشوها مرة ثانية.

- مسؤول التسديد : قائد الوحدة المشرفة على المدفع ويجب أن يكون هذا عارفا بتوجيه فوهة المدفع وقياس زاوية الرمي من ارتفاع المدفع وانخفاضه، كما يجب أن يعرف زنة كل قذيفة تستعمل في فوهة المدفع.

مع الإشارة إلى ضرورة ضمان الحد الأدنى من المدفعيين بكل سرية أو بطارية ولو لإعادة المدافع إلى فتحات الرمي بعد تنظيفها وحشوها من جديد، أي كل

مدفع يحتاج إلى حد أدنى من ثلاثة أشخاص، يضاف إليهم عدد من الجند لحماية البطارية أو البرج يستعملون البنادق والغدارات أو المسدسات لحماية المدافعين عند أداء مهامهم، لكن نظرا لقلة عدد المدفعيين الناجم عن صعوبة التوظيف لقلة الإعتمادات من جهة وتوقف الباب العالي عن إرسال المتطوعين من جهة ثانية فإن الحاميات والسفرات كانت تستعين بالمتطوعين من المواطنين عندما تعلن التعبئة العامة للجهاد.

كان لهذا النقص في الإمداد لوحدة المدفعية أثره السلبي مما جعل الدايات يطلبون المساعدة من الباب العالي.[19] تتمثل عادة في طلب المواد الأساسية لإعادة بناء دار الصناعة الحربية في الجزائر أو في إرسال فنيين للإشراف على إدارة هذا المصنع، بعد أن كانت الدولة العثمانية تطلب من الجزائر مساعدتها بفرق المدفعية مع التزام الباب العالي بتحمل جميع النفقات والمرتبات للفرق التي ترسل في شكل نجدات. [20]

استفادت دار الصناعة الحربية في الجزائر من الجهاد البحري خاصة في القرن السابع عشر والثامن عشر حيث كان الأسرى الذين لا يختارهم الداي لخدمته ولا يشتريهم الوزراء ولا التجار يوزعون على دار الصناعة البحرية ودار النحاس ولترصيف الطرق بالحجارة. [21]

مدافع لها صدى في تاريخ الجزائر.

إذا كان دوي المدافع في القسطنطينية قد حول التاريخ في مرحلتيه من وسيط إلى حديث فإن للمدافع الجزائرية أيضا دور في العلاقات الثنائية خاصة بين الجزائر وفرنسا ومنها :

1. مدفع بابا مرزوق :

تم صبه سنة 1552 تخليدا لتسليح دار الصناعة الحربية بعد حملة شارلكان، يبلغ طول هذا المدفع 7 أمتار، ويبلغ مدى رمايته أكثر من 4800 م.

لهذا المدفع ذكرى أليمة عند الفرنسيين حيث لقي حتفه بواسطته القنصل لوفاشي (LEV/ACHER) سنة 1683 حينما كانت قوات الحملة الفرنسية بقيادة ديكان تقنبل الجزائر سنة 1683، وعندما جاءت الحملة الفرنسية الموالية بقيادة الأميرال ديستري سنة 1688 لقي القنصل بيول نفس المصير (PIOLLE)، ونظرا لهذه الذكريات الأليمة فإن قوات الحملة الفرنسية الأخيرة في 1830 وبعد أن تمكنت من احتلال ميناء الجزائر أخذته القيادة الحربية إلى مدينة بريست حيث نصب كمعلم تاريخي.

2. المدفعان المهريان إلى فرنسا سنة 1610 :

كان سيمون دانزير البلجيكي يعمل بدار الصناعة البحرية وفي غفلة من الحرس سرق مدفعين وفر بهما إلى فرنسا حيث باعهما للدوق دي قيز حاكم مقاطعة بروفانس، فاعتبرت الجزائر قضية إستردادهما قضية سيادة وشرف ومسألة مبدأ لأنهما لم يؤخذا كغنيمة حرب ولم تفقدهما الجزائر في معركة، فقطعت الجزائر علاقاتها مع فرنسا معتبرة شرط إستردادهما شرط أساسي في كل المفاوضات وعند وضع الترتيبات لمعاهدة السلم سنة 1619 نشبت حرب بين الجزائر وفرنسا ذهب ضحيتها حوالي 60 جزائريا بمرسيليا في مذبحة سميث (مذبحة الوفد والتجار الجزائريين). وبقيت الأمور متوترة بين الدولتين حتى 1626 عندما جاء المفاوض صانصون إلى الجزائر ومعه المدفعين وعدد من الأسرى الجزائريين حيث أطلق سراحهم. [22]

3. مدفع أحمد باي.

يذكر أحمد باي في مذكراته أنه بعد نزول الحملة الفرنسية في سيدي فرج في 14 جوان 1830 وبعد انتصار الفرنسيين على المقاومة، تراجع المدافعون إلى سهل أسطاوالي حيث بنيت حصون بسرعة وزودت ببعض المدافع، كما سلمت مدافع إلى القادمين من بعيد، فسقط مدفع أحمد باي بيد الفرنسيين فجمع فرسانه وهاجم القوات الفرنسية لإنقاذ المدفع الذي له قيمة معنوية لا تقارن، وبعد معركة خاطفةتمكن من استرداد المدفع مقابل سقوط أكثر من مائتي جندي. [23]

الهوامش :

01 – سميل، فن الحرب عند الصليبيين. ص. 11

02 – الزهار، مذكرات. ص ٤٨.

– أنظر أيضا سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية. ص 49 .11E

03 – أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا ص. 205

04 – السرارجة نسبة لمستعملي السروج أي الفرسان.

05 – الزهار، مذكرات ص. 48.

06 – الزهار، مذكرات. ص 48.

07 – أنظر VENTURE de PARADIS ,Tunis et Alger au 18 .siecle .p 177.

08–BOUTIN ,o .p .Cite .P.p.506 .509

09 - CLAUSEL ,l'algerie picturesque ,Histoire de la regence d'alger .. .p 352

10 - PARADIS (de) op .cit . .p 274 .

11 – أنظر O,la viequotidienne d'alger . .,p 17OBOUER

12 - P (de) ,op .cit ..p .274 .PARADIS

مصلحة الخرائط والتصاميم المكتبة الوطنية بباريس رقم. G E C ..3893

13 – المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا. ص 99 و100.

14 – مجهول، غزاوات عروج وخير الدين. ص 76.

15 – مجهول، نفس المرجع. ص 67.

16 – درياس (لخضر) المدفعية الجزائرية في العهد العثماني. مخطوط. ص 85.

– درياس، المرجع السابق. ص 49.

17 -Peysonnel et des fontainesvoyage dans la regence de Tunis et d?Algerie .T1 .P .34 .

18 – أنظر75. La croiy (de) relation ineverselle de l'afriqueancienne et modern .t.2 p.p.74

. أنظر أيضا 207. Liyon 1688 piquet ,op .cit . .p

19 – المجموعة 3190. م.و.ج. رقم 137. 138. 139. ثم رقم 30 ورقم 32 ورقم 45.

20 – المجموعة 3204م وج رقم 1/ 43. 44. 54. تتحدث عن طلب إرسال مجموعة من المدفعيين فقدر بخمسين مدفعيا لدعم الجيش العثماني في الحرب ضد روسيا.

21 – سبنسر، المرجع السابق. ص 130.

22 – قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا. ص 64.

23 – أحمد باي، مذكرات. ص 15.

الملاحق

نصوص تتعلق بالجيش

وروسوم تتعلق بخطط المعارك

المخطوط رقم 1612:

هذا المخطوط عبارة عن مقطع مبتور الأول والآخر خاص، بفتوح إفريقية وقد كتب فيها في أعلى وجه الورقة الأولى على ورقة ملصقة وبقلم مخالف بعد البسملة والصلاة على النبي فتوحات البلدان.

أوله: « قصة فتوح شقب نار قال بعدما إجتمعوا بالناس عند الأمير عقبة بن عامر رضي الله عنه فمنهم من يقول نسيروا إلى الملك الأكبربالمعلقة ومنهم من يقول نسيرو إلى شقب نار ومنهم من يقول نسيروا إلى حيدرة.. ».

آخره: «صاحب ساطيف على عبد الله واحملوا كلكم لعلنا نخصلوا من عدو الله تعالى ونرجوا أن لايحوجنا الله تعالى ثم خرجت بنت المالكالأكبر زوجة عبد الله بن جعفر وهي تلطم وجهها».

كتب هذا المخطوط بقلم مغربي وبمداد أسود وأحمر وأصفر وبه آثار أرضة ورطوبة وترميم وتعليق حول النص عدد أوراقه 31 ورقة وعددالأسطر في الورقة 26 سطرا ومقاس الأوراق 149-204 مم والغلاف 151-212 مم وهو بالورق المقوى مغلف بقماش أخضر به آثار أرضة.

هذا ما يتعلق بالجانب المادي للمخطوط أما فيما يخص المحتوى فإننا سنورد العناصر الموجودة مرتبة ثم ما تعلق بمناطق جزائرية فإننا سننقلبعض العبارات الواردة والمتعلقة بالجيش والحملات العسكرية كما كتبت في المخطوط فنجد على ق 1 وقصة فتوح شب نار وعلى(ق2 ظ) قصة فتوح حيدرة وعلى (ق7 و) قصة فتوح قسطلة وعلى(ق8 و) قصة فتوح تبسة وهنا نقرأ مباشرة بعدالعنوان ما يلي: وقد ارتحلوا المسلمون إليها وكان فيها ملك عظيم من عظمائهم كبير القدر وكان يركب في مائة ألف فارس وثمانين ألف فارس من عظمائهم وليس له منازل من بلاده إلا أرض الجريد فكان اسمه طيروب بن سطنان لعنه الله وفي هذا المقطع نجد عدد فرسان جيش ملك تبسة حين الفتح.

وعلى (ق 11) ونقرأ العبارة التالية «... وقال اللهم لك الحمد ثم ناوله الفضيل

الكتاب وقرأه إلى آخره ثم استدعى بفرسان المسلمين من بني مخزوم وبني هاشم والفرسان المعروفة من العرب في ألف فارس... ». وفي هذه العبارة نقرأ تشكيلة جيش المسلمين من أي القبائل العربية وكذلك نقرأ العدد الذي يصل إلىألف فارس وعلى (ق 11 ظ) : « قصة فتوح قسنطينة» ونقرأ مباشرة بعد العنوان العبارة التالية: «فاتفق رأيهم على ذلك وأمر عقبة بالرحيل فرحلوا عند صلاة الظهر فلم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر فنزلوا بأرض يقال لها مسكيانة وباتوا فيها إلى أن أصبح الله بخير الصباح».

ففي هذا المقطع نلاحظ المسار الذي اتخذه جيش المسلمين عند اتجاهه لفتح قسنطينة وعلى (ق 12 و) نقرأ العبارة المتعلقة بالعدة العسكرية لأهل قسنطينة إبان الفتح الإسلامي وكانت كثيرة النبل لقد بلغنا أن فيها عشرة آلاف رام أو أزيد من ذلك ونصبوا الأقواس وهنا يظهر لنا أن عدد الرماة بلغ 10 آلاف وهو عدد ضخم وعلى (ق14 و) قصة فتوح باجة وعلى (ق15 و). قصة فتوح المعلقة وعلى (ق29 و) قصة فتوح ساطيف والمقصود بها سطيف ونقرأ على (ق 31 و) العبارات التالية : وأخذوا من المسلمين ثلاثة آلاف أسير وقتلوا ألف وخمسمائة وأخذوا ثلاثمائة مرأة وقتلوا منهم ألف وأربعمائة وعشرين رحمهم الله وحشرنا معهم ثم رجع صاحب ساطيف مغنما إلى بلاده وكان عبد الله بن جعفر نازلا على البلاد ففي هذا المقطع نلاحظ عدد الأسرى والقتلى من المسلمين حين فتح سطيف.

ونقرأ على (30 ظ) ما يلي : « وكان الأمير عقبة في تسعين ألف من خلايط العرب ولم يكن عندهم من بني هاشم ومن بني مخزوم واحدا قد تقدموا كلهم مع عبد الله في أخيلة الأولين وهم خمسمائة فارس... » وهذا المقطع يبين لنا عدد جيش المسلمين الفاتحين سطيف وإلى هنا ينتهي المخطوط فتوح إفريقية.

المخطوط رقم 3/1588 :

« أخبار ملوك بن عبيد وسيرتهم » من تآليف أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي المتوفى سنة 628هـ/1231م.

يتعلق هذا المخطوط بسير ملوك الدولة العبيدية، وقد كتب بخط مغربي يوم الجمعة أوائل ذي الحجة 1265هـ وبمداد أسود وأحمر على ورق به آثار أرضة ورطوبة وترميم ويقع في 95 ورقة بتسعة أسطر، في كل ورقة وهو كامل وبقياس 179x 124 ملم للورقة، و186x120 ملم للغلاف، كما توجد زخارف داخل النص وإطار بالأحمر حوله مع بعض التعليقات في الهامش.

وهذا الكتاب هو الثالث ضمن مجموع يبدأ من الورقة (10 ظ إلى 104 و).

البداية: البسملة. ..« الحمد لله الذي لا يزال ملكه ولا ينتقل ملكه وصلى الله على سيدنا محمد الذي نسخت ملته الملل ونسخت دولة ملته الدول، فهذه جملة من بني عبد الله قيدتها في هذا التأليف، فبعضها التقطته من مفرقات التواليف وبعضها عرفني به من وثقت منه بالتعريف، ودعاني إلى هذا التأليف ما دعى المؤلفين المؤرخين إلى أمثاله، وما من شيء إلا وقد أفرغ في قالبه ونسج على منواله ولله الحمد من قبل ومن بعد ومنه نسأل العون والقصد ... ».

النهاية: « ... وكتبوا بذلك إليه فأنفاهم حيث أنفاهم وعند الله تجتمع الخصوم ويلتقي الظالم والمظلوم إذ يلقى كل دين بما طاله منا ويجتمع المشكو والشاك.

وحدثني بعض طلبة الحجاج عن رجل كان فيهم يسمى داوود أسمر أنه لو أطلع إلى أهل مصر سجدوا، وكانت دولتهم كلها منذ بويع عبيد الله بسجلماسة إلى أن مات العاضد وعبد الله مائتي سنة اثنين وثمانيا وستين سنة ».

أما ما يتعلق بالجيش ومن خلال تصفحنا للمخطوط فإننا نقرأ على (ق 13 ظ و14 و) : « ... فلما تم لأبي عبد الله ما أراد قاد الأنجاد والأجناد واستفتح المدن وملك البلاد وبنى بموضع يعرف بالكجال على مقربة من قسنطينة مدينة وسماها " دار الحرة " وسمى أتباعه من كتامة وغيرهم المؤمنين وإذا ركب نادى مناديه في الجيش يا خيل الله أركبوا، وكتب على أفخاذ الخيل: الملك لله، وكتب في بنوده : سيهزم الجمع ويولون الدبر، وآيات كثيرة من القرآن...».

* حول نسخ المخطوط في مكتبات أخرى وبيانات النشر والترجمة أنظر رسالتنا للماجستير: مخطوطات المؤلفين الجزائريين...، ص 73 - 75.

وعلى (ق 45 وجه وظهر) : « وحشد الجم الغفير من صنهاجة وعجيسة ووصلا إليه بكل ما قدر عليه ونزل إسماعيل بالمسيلة فأقام بها أياما تعدل أعواما بما فرق فيها من الأموال وسدد من الأحوال وجند من الجنود وعبأ من العساكر وجهز من الجيوش وكتب إلى هوارة الذين كانوا بالغدير يأمرهم بأخذ أبي عمار الأعمى وأصحابه وكانت قبل ذلك على أبي يزيد هزيمة عظيمة بموضع يعرف بعين السودان بين جبال كياتة فانهزم أبو يزيد وتبدد أصحابه. .. ».

وعلى (ق 51 ظ و52 وجه وظهر) : « ... ورحل إسماعيل من المسيلة غرة شهر رمضان يوم الجمعة سنة 355هـ فنزل بموضع يعرف بالناظور وهو موضع معروف بأروس من جنات القلعة محاصرا لأبي يزيد ثم صعد يوم السبت الثاني من رمضان إلى جبل كياتة وصعد في وعر بين صخور ومشى فيها راجلا في أماكن كثيرة فكانت بينه وبين أبي يزيد وقعة عظيمة تعرف بوقعة الحريق وأحرق فيها إسماعيل أخصاصا كثيرة لأصحاب أبي يزيد وقتل منهم عددا كثيرا ثم انهزموا في آخر النهار وسبا إسماعيل نساءهم وذراريهم وأخذ لهم من الخيل والجمال وصنوف الحيوان... ».

وعلى (ق 54 وجه وظهر) نقرأ « ... ثم توجه إلى بني عوسجة وهي من عجيسة فقاتلهم في وعر شديد وجبال متمنعة حتى تغلب عليهم وتمكن منهم وحارب قلعة تناكر وتقول البربر للموضع الآن شيكر فاستأمنوا إليه ثم نهض إلى كياتة فكان قيصر هذا يقاتلها من جهة غربها وإسماعيل يقاتلها من جهة شرقها وجاء الفطر فصلى إسماعيل وخطب على ما تقدم وتمادى على حصار أبي يزيد وحفر خندقا حول معسكره يسمى الآن خندق الديباج... ».

وعلى (ق 65 ظ و66 وجه) نقرا « ... فخرج المعز في جيش عظيم إلى جبل أوراس فلما سمعوا بخروجه جملعوا) هكذا كتبت وقد يقصد بها جمعوا (له بصفح غزالة على مقبرة من مدينة باغية فلما وصل الأريس جهز بلكين بن زيري بن مناد وجهه إليهم ورجع هو إلى القيروان فهزمهم بلكين وفرق جموعهم وشتتهم فتمزقوا أيادي وتبددوا في بلاد الزاب وغيرها ومنهم من وصل إلى بلاد السودان فأقام بها فما التقى رايح منهم بمبتكر... ».

المخطوط رقم 1622 :

« الخبر عن قدوم عروج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين بعده وذكر أخبارهما وغزواتهما البحرية وكيفية ذلك على التفصيل » وهذه العبارة هي أول ما يبدأ به المخطوط ويدور موضوعه حول عروج وخير الدين وأصولهما إلى غاية حملة شارل الخامس على مدينة الجزائر عام 948هـ.

وقد كتب هذا المخطوط وهو كامل بخط مغربي ومداد أسود وأحمر وعدد الأسطر في الورقة 24 سطرا بمقاس 138 x 213 ملم للورقة و 140x 220 ملم للغلاف ويبلغ عدد أوراقه 58 ورقة بها آثار أرضة ورطوبة وترميم مع وجود إطار بالأسود حول النص وتعليقات في الهامش، أما التسفير فهو حديث بالجلد.

أما ناسخ المخطوط فهو محمد بن أحمد بن قاسم الذي انتهى منه ليلة الأحد السابع من ربيع الثاني عام 1177هـ.

بدايته بعد البسملة: « أصل هاذين الرجلين من جزيرة يقال لها مدلي، وذلك لما فتح السلطان محمد جزيرة مدلي أودع فيها عسكرا برسم حراستها وجعل عليهم رئيسا قويا فبقوا في تلك الجزيرة مدة طويلة فطلبوا من رئيسهم أن يكاتب السلطان ويلتمس منه الإذن في نكاح بنات أهل الذمة الكائنين بالجزيرة المذكورة فأنعم لهم رئيسهم وكاتب السلطان المذكور فأجابه بوفق مرادهم، من أراد أن يتزوج من العسكر فليتزوج بمن شاء ومن أبى من أهل الذمة يجبر على ذلك، وكان من جملة العسكر رجل اسمه يعقوب تزوج بنتا من بنات النصارى الذميات فرزق منها أربعة بنين: إسحاق، عروج، خير الدين وإلياس وترتيبهم على حسب ذكرهم...».

نهايته « ... وخلف للعين كثيرا من الأغربة والقربيلات وكثيرا من السفن العظام والعشريات والفرقاطات ومدافع عظام وخلف كثيرا من الرجال والنساء وأما خيله التي أتى بها فإنه لم يذهب بفرس واحد منها وعدتها أربعة آلاف فرس كما تقدم وحصل مما خلفه اللعين لأهل الجزاير ما ملأ أيديهم وكسبت من ذلك أموال طائلة والله تعالى أعلم ».

وعلى (ق 55 ظ و) في السطر الخامس يبدأ الحديث عن حملة شارل الخامس على مدينة الجزائر عام948 هـ/ 1541 م وهو كملحق لغزوات عروج وخير الدين إلى غاية نهاية المخطوط.

كما نقرأ بعد نهاية المخطوط ما يلي: « انتهى قال من كتب هذه الغزوات من خطه وهو محمد بن رمضان الدلسي هذه الغزوات أصلها مكتوبة على اللسان التركي والقلم التركي فعبرها بعض خواجات الترك لمفتي الحنفية بالجزائر بلسان العرب لأن المفتي المذكور لا يحسن اللسان التركي وهو العالم الصالح النحوي المفسر الماهر في العلوم الأستاذ في علم القراءات الشاعر المفلق الشيخ سيدي محمد بن علي القلقلي الجزايري رحمه الله تعالى ورضي عنه بمنه آمين ».

ومن خلال هذه العبارات نفهم أن أصل المخطوط كتب بالتركية وترجم إلى العربية ونقل من نسخة بخط محمد بن رمضان الدلسي*.

أما ما يتعلق بالجوانب الخاصة بالجيش هنا في الجزائر والتي تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي الموافق للعاشر الهجري بهذا المخطوط وخاصة أنه يتعلق بغزوات عروج وخير الدين فإننا سنختار بعض المقاطع المناسبة.

فعلى (ق7 و) نقرأ: »... وقد كان سمع بأن بجاية أخذها النصارى من أيدي المسلمين فظهر له أن يغزوها بمن معه من جماعة الغزاة، فسافر إلى ناحية بجاية وأرسى بقربها فرأى خمسة عشر جفنا من أجفان الكفار قادمين إلى بجاية فخرج خير الدين ومن معه من الأجفان إلى البحر طلبا للفسحة فظهر للكفار أنهم فروا منهم فحين توسط خير الدين البحر جعل يقلل في السير فقرب منه أجفان العدو وطمعا فيه ورموا عليه بجملة مدافعهم فحين اشتغل الكفار بعمارة مدافعهم هجم عليهم المسلمون فدهش الكفار من تلك الهجمة، وكانت أجفان المسلمين التي قدموا فيها أربعة * (كتبت هذه العبارات في الهامش) فأغرق عروج واحدة وأخذ خير الدين واحدة وفر الباقون إلى مرسى بجاية ثم إن خير الدين بعث الجفن الذي اغتنمه إلى تونس...«.

وعلى (ق 11 ظ) نقرأ: «... رجعنا إلى خبر عروج وكان في مدة إقامته في جيجل كتب إليه أهل الجزائر كتابا يرغبونه في القدوم عليهم وجهاد عدوهم المجاور لهم في الحصن الكائن بالجزيرة وكان قد أضر بهم غاية الضرر وضيق بهم غاية التضييق، فلما وصل كتابهم إليه وعلم ما هم عليه من العدو الكافر أدركته حمية الإسلام وداخلته نخوة الجهاد واستخار الله تعالى في الذهاب إليهم فأوصى تلك الناحية من أهل جيجل أنه إذا قدم أخوه خير الدين يهيئ له مدادا من الغزاة يستعين بهم على جهاد ذلك الحصن.

فبعد ذلك بمدة وصل أخوه خير الدين إلى جيجل فلقيه أهل تلك الناحية بالترحيب والتسهيل وعرفوا له قدره الملوكي وبلغوه وصية أخيه المتضمنة لإرسال المدد فهش لذلك وأنعم به وجهز له مائتين وثمانين من الغزاة بجميع ما يحتاجون إليه...».

وعلى (ق 12ظ): «... ولما رجعت عمارة النصارى إلى بلدهم بالخيبة والحسرة وعلموا أنهم لا طاقة لهم بخير الدين وأن جماعة غزاته لا يرهبون من الموت.

* وقد قام بتحقيق غزوات عروج وخير الدين مولاي بلحميسي في إطار الحصول على دكتوراه الدرجة الثالثة من جامعة aix emprovence عام 1972، أنظر كتاب: Moulay Belhamissi, Marine et marine d'Algérie 1518-1830

Bibliothèque Nationale d'Algérie 1996,t1,p20

* كتبت هذه العبارات على الهامش

وأنهم يبذلون أنفسهم في جهاد عدوهم ويحرصون على الموت حرص الكفار على الحياة، أخذوا في المشورة فاتفق رأيهم على غزو مدينة الجزائر والإستيلاء عليها، فأخذوا في الأهبة لذلك قائلين أن الترك إذا استوطنوا مدينة الجزائر وتمهد ملكهم بها وافتتحوا عمالتها كثرت أجفانهم وعساكرهم فيقطعون عنا البحر ويمتد طمعهم إلى بلادنا.

وكان من جملة ما اعتدوا به على فتحها حصنهم المجاور للمدينة من ناحية البحر فإنهم كثيرا ما كانت تحصل منه الإذاية لأهل المدينة، بحيث أن النصارى كانوا يرمون على أهل المدينة بالمدافع والمكاحل فكان هذا شجىمعترضا في صدور أهل الجزاير إلى أن خلصهم الله منه على يد زعيم المجاهدين خير الدين. ...».

وعلى (ق18 و): «... ثم أن خير الدين عزم على الانتقال إلى إقليم الروم لأجل الغزو ومواصلة الجهاد، فجمع أهل الجزائر كلهم وأعيانها من العلماء والصلحاء والمشايخ وقال لهم أني قد عزمت على السفر إلى حضرة السلطان وقد أمنت الآن على بلادكم لما أخلفه عندكم من العسكر المجاهدين وقد وصل إليكم من أهل الأندلس عدد كثير وعندكم من السلاح والعدة ما تقومون به بأمر الجهاد وعدوكم الكافر قد خيبه الله تعالى ورده على عقبه مذموما مدحورا، فلا مطمع له في غزو بلادكم مرة أخرى وأني لما قدمت إليكم لم يكن عندكم مدفع واحد والآن قد تحصل بأيديكم مما خلفه العدو أكثر من أربعمائة مدفع فاختاروا واحدا منكم يكون من خياركم تقدمونه أميرا عليكم وقد كان استعمل على الناحية الشرقية من عمالته رجلا اسمه أحمد بن القاضي وعلى الناحية الغربية رجلا آخر يقال له محمد بن علي، وكانا حاضرين في هذه المشورة...».

وعلى (ق21 و) : «... فأكمل الحركة إلى مدينة مستغانم فإذا فتحتها أقمت أنا بها وبعد ذلك يقع الرأي على استخلاص تلمسان والتوصل إليها، فوقع الاتفاق من خير الدين على ذلك وجهز إلى مستغانم ثمانيا وعشرين جفنا بجميع ما تحتاج إليه من العدة والعدد وجهز محلة عظيمة في البر فيها عسكر عظيم عازما على حصارها برا وبحرا فيسر الله فتحها واستخلصها من يد صاحب تلمسان المسعود. ... ».

وعلى (ق 22 وجه وظهر) : «... رجع خبرنا إلى صاحب تونس قد تقدم أنه اجتهد في التضريب بين أحمد ابن القاضي وبين خير الدين وألح عليه في ذلك إلحاحا كثيرا ولم يزل * (كتبت على الهامش) يعده ويمنيه إلى أن ركن إليه ووقع في أشراك

مكره ففسدت نيته على خير الدين وكشف له عن وجه العداوة، فلما سمع بذلك خير الدين وجه كتابا إلى صاحب تونس يلومه على هذا الفعل، فأعرض عنه سلطان تونس ولم يجبه وأخذ في تجهيز عسكر الجزائر فسمع بذلك خير الدين فوجه إلى الناحية الشرقية عسكرا برسم حراستها فلقوا عسكر تونس فتقاتل العسكران ووقعت الهزيمة بعسكر تونس، ففرا إلى جبل بذلك المحل وتحصنوا فيه، فأتى عسكر الجزائر إلى ذلك الجبل وحاصروهم فيه فأتاهم عند ذلك أحمد بن القاضي مظهرا للصداقة مموها عليهم بالحب القديم وأشار عليهم بالصعود إلى الجبل لاستئصال عسكر تونس والإتيان على جميعهم فاغتر العسكر بقوله وصعدوا معه إلى الجبل وقد كان أحمد بن القاضي المذكور قسم جيشه الذي قدم معه قسمين، قسم صعد معه إلى الجبل مع العسكر الصاعدين وقسم خلفه مع العسكر الذي في المحلة وقال لهم إذا أنا غلغلت في الجبل صاعدا فاقتلوا أنتم هؤلاء العسكر الذين معكم في المحلة وأنا أقتل العسكر الذين يصعدون معي ثم أنه قال للعسكر الذين صعدوا معه تقدموا أنتم وأنا أكون من ورائكم، فذهبوا على هذا الترتيب ولم يبق في المحلة من العسكر إلا القليل، فحين صعد عسكر الجزائر مع جماعة أحمد بن القاضي وجدوا عسكر تونس في مكان ضيق من الجبل، فأراد عسكر الجزائر الهجوم عليهم فبينما هم يدبرون في هذا الأمر وثب جماعة ابن القاضي على العسكر المخلفين بالمحلة على حين غفلة منهم فاستأصلون قتلا.

وسمع بذلك عسكر الجزاير الذين في الجبل فعلموا المكيدة التي وقعت عليهم بين حجرين دامغين، ابن القاضي خلفهم وعسكر تونس أمامهم فصاح بهم العدو من كل ناحية وهجموا عليهم من كل موضع فقتلوا عن آخرهم... ».

وعلى (ق 29 وجه وظهر وق 30و) : « ... ولما تم لمولاي عبد الله ما أراده من شأن هذه الحركة توجه قاصدا إلى الجزائر برسم قتال خير الدين، وخرج خير الدين أيضا إليه فالتقيا ووقع بينهما قتال عظيم كانت الكرة فيه على جيش تلمسان ففر صاحبها يطلب النجاة لنفسه، وتبعه جيش الجزاير فقتلوا كثيرا من أصحابه ورجعوا منصورين ولما علم صاحب تلمسان أنه لا طاقة له بمناهضة عسكر الجزاير ولا

قدرة له على ملاقاتهم رجع إلى المراهنة وإعطاء الطاعة ظاهرا... ثم أنه فكر في أمر الحصن المجاور للمدينة وما يحصل لأهلها منه من الإذاية فوجه إليهم قائلا إما أن تكفوا عما أنتم عليه من الإذاية وأما أن أتفرغ لكم ولئن ظفرت بكم لا أبقي منكم أحدا فلم يلتفتوا إليه وتمادوا على ما هم عليه وكان هذا الحصن حصنا عظيما لا يعادله حصن ببلاد النصارى، ولم نتعرف كيفية بناء النصارى له ولم يصل إلينا خبره ولا خبر استيلائهم على هذه البقعة...

وبالغ النصارى في بنائه وتحصينه لكونه بمرأى ومسمع من الجزائر بحيث أن السهام كانت تصل إليه من المدينة وتصل إلى المدينة منه، ولما عزم خير الدين على فتحه لم يجد عنده من البارود ما يقوم بذلك لتوزيعه في الحروب المتقدمة، فأمر المعلمين بصنعه وقد كان بعض أجفان جربة غنم بعض أجفان بندقية موسوقا بالبارود، فسمع بذلك خير الدين فوجه في شرائه وفي شراء ما يحتاج إليه من المدافع، فلما تم له ما أراده من هذا الاستعداد وعزم على محاربة الحصن توجه إلى الله في الليلة التي عزم على محاربته في صبيحتها وبات ليله كله راكعا وساجدا مبتهلا إلى الله سبحانه وتعالى وراغبا منه أن يعينه على فتح ذلك الحصن، فلما كان صباح تلك الليلة وكان ذلك اليوم يوم جمعة، أمر بالمدافع أن تنصب على حصن بالجزائر مقابل ذلك الحصن ومواجها له وكان أقربه إليه من سائر الجهات وكان المدد قد أتى إلى الحصن من بلاد النصارى لما سمعوا أن خير الدين عزم على فتحه فشرع خير الدين في قتاله والرمي عليه بالمدافع واجتهد النصارى لعنهم الله في المدافعة، يرمون بالمدافع والمكاحل رميا واحدا حتى صارت البنادق والكور تنزل على المدينة كالمطر وصاروا يقصدون صوامع الجوامع بالرمي، ينكون المسلمين بذلك حتى هدموا صومعة الجامع الأعظم وكثيرا من شرافات الجوامع*(في الهامش صححت الكلمة وكتبت الصوامع) وأتى الهدم على دور كثيرة عديدة من دور أهل الجزائر وبقوا في هذه المقاتلة إلى الجمعة القابلة، فلما كان صباح يوم الجمعة ظهر لخير الدين وعسكره الغزاة أن يفتح عليهم الحصن، فلما صلوا الجمعة توكلوا على الله عز وجل وركب العسكر في القوارب وهجموا عليه من كل ناحية فيسر الله

عليهم دخوله فاستولوا عليه فوجدوا فيه خمسمائة مقاتل من النصارى ومن المدافع وسائر أنواع السلاح مما كانوا يستعدونه لمدافعة المسلمين شيئا لا يحيط به الحصر ثم أن خير الدين أمر بهدم الحصن وإكفاء أثره لدفع طمع النصارى في أخذه مرة أخرى فاستولى عليه الهدم حتى صار أثرا بعد عين... ».

وعلى (ق 44 و) : « ... ودخل الطاغية إلى مدينة تونس واستولى على قصبتها ودار له أهلها بالطاعة فذهب عند ذلك خير الدين ومن معه من عسكره إلى بلد العناب فدخلها بعد خمسة أيام من هذه الواقعة وكان بها خمسة عشر جفنا من أجفانه فسمع بها الطاغية فوجه إليها ثلاثين جفنا برسم الاستيلاء عليها، فلما قربوا من بلد العناب نصب خير الدين المدافع للرمي عليهم فمنعهم بذلك من الوصول إلى أجفانه فرجعوا إلى حال سبيلهم... ».

وعلى(ق52 و) نقرأ : « ... وكان الطاغية بعث إلى صاحب بلاد الجنويز يأمره بتجهيز ما عنده من الأجفان وإعدادها للسفر ووجه هو بالعمارة إلى بلاد جنوة فاجتمع العمارتان هنالك، وكان عدد ما فيها من الأجفان أربعمائة وقيل أربعمائة وخمسين جفنا، وكان عدد المقاتلة خمسين ألفا ولما تهيأ له ما أراد من تجهيز هذه العمارة سافر بها بنفسه إلى الجزائر فأرسى بجون تمانتفوس يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الثانية سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وكان إرساؤه وقت العصر وخيل لأهل الجزائر حين طلعت هذه العمارة عليهم أنها جبل يسير في البحر فحين أرست بذلك الجون خيل لهم أيضا أن جبلا استقر هنالك وحصلت بذلك ضجة عظيمة لأهل البلد لأنهم لم يروا مثل هذه العمارة سابقا فعند ذلك جمع حسن آغة أهل المدينة ونصب ديوانا عظيما جمع فيه علماء البلد وصلحائهم ومشائخهم وجعل يسكنهم ويطيب نفوسهم ويهون عليهم أمر هذه العمارة وهو مع ذلك يستشيرهم وينظرون ما يتفقون عليه من الأمر... ».

وعلى (ق 52 ظ) نقرأ : « ... فحصلت لأهل الجزائر قوة عظيمة بكلام حسن آغة ووصلوا أنفسهم على جهاد العدو فعند ذلك فتح خزائن السلاح ووزعه في أهل

المدينة مع ما يحتاجون إليه من البارود والرصاص، فعند ذلك أخذوا في الدعاء إلى الله تبارك وتعالى والتضرع إليه سبحانه في نصرهم على عدو الدين وجعل حسن آغة في كل برج من أبراج الجزاير الطبول والأنفرة فهدرت تلك الطبول وزعقت تلك الأنفرة حتى عمت آفاق الجزاير ونصب ألويته المظفرة على تلك الأبراج وعلى أسوار المدينة وأما النصارى فإنهم شرعوا في النزول إلى البر وأنزلوا جميع آلاتهم الحربية وصنعوا مترسا هائلا... ».

وعلى (ق 53 ظ و54 و) نقرأ: «... وختم الكتاب وأعطاه للرومي الذي وجه به الطاغية، فلما وصل به إلى الطاغية وكان الكتاب باللسان التركي فأمر أن يترجم له فحين فهمه استشاط غيظا وغضبا وقام اللعين وقعد لهذا الكتاب وأمر بنصب المدافع على المترس موالي المدينة بالمحل الذي يقال له كدية الصابون وهو المعروف بمحل برج مولاي حسن في زمننا فعند ذلك حسن آغة مع أهل المدينة أنهم يخرجون من المدينة ليلا ويهجموا عليهم في محل نزولهم لينتهزوا بذلك فيهم فرصة ويكسروا شوكتهم بذلك فصوب العسكر وأهل المدينة رأيه فاختار من عسكره ستمائة مقاتل من الرجال المعدودين لمثل هذا اليوم وجعل معهم ألفي فارس أمثالهم في النجدة والقوة، فلما كان الربع الأخير من الليل فتحوا أبواب المدينة وخرجوا إلى النصارى من ناحية واحدة فلما قاربهم كبروا بصوت واحد عال ورموا عليهم بالمكاحل دفعة واحدة وكان الكفار بين نائم وسكران وناعس فاعتقد النصارى لعنهم الله أن المسلمين خالطوهم فأخذوا سلاحهم وجعلوا يقتلون بعضهم بعضا والمسلمون على بعد يواصلون الرمي عليهم ولم يزل ذلك دأبهم إلى أن انبلج صباح هذه الليلة فعند ذلك شرع النصارى في الرمي بالمدافع على المسلمين من سفنهم ليردوهم عن إخوانهم الذين في البر فعند ذلك رجع المسلمون إلى المدينة وافتقد الكفار بعضهم بعضا من الصيحة التي وقعت عليهم بالليل فوجدوا عدة القتلى أكثر من ثلاثة آلاف فانكسروا لذلك وحصل لهم حزن عظيم بسبب من قتل منهم وحصل للطاغية بذلك غيار عظيم فعند ذلك هاج اللعين واشتد غضبه وأمر بنصب المدافع على المدينة وكان عدتها مائتي مدفع وشرعوا في الرمي على المدينة من المحل

الذي يعرف بكدية الصابون وبقي على ذلك أياما وأهل المدينة يقاتلونهم على الأسوار ثم أن الله سبحانه وتعالى تدارك أهل الجزائر بلطفه الخفي فهاجت الرياح وساقت السحاب أمثال الجبال وأمطرت السماء مطرا كالطوفان وهال البحر واشتدت أمواجه وكثر اضطرابه بما لم يعهد مثله فجعلت سفنهم تتكفأ يمينا وشمالا هذا والبحر في الزيادة والأمواج تتراكم كالجبال ففرقت كثيرا من سفنهم وعطب على الساحل سفن كثيرة... فحين رأى حسن آغا ما هيأه الله لأهل الجزائر من نصرته خرج في جماعة عسكره وأهل المدينة طالبين النصارى فوقع بينهم قتال عظيم ودافع النصارى على أنفسهم دفاعا قويا وكان مع الطاغية لعنه الله عشرون ألفا لحمايته لم يقاتلوا قتالا فهجم عليهم المسلمون وقاتلوهم قتالا عظيما مقدار ساعتين وتأخر المسلمون قليلا قليلا إلى المدينة بعدما وفوا ذلك اليوم حقه من جهاد الكفار فدخلوا المدينة وألوية النصر تخفق عليهم ومات في هذا اليوم من الكفار قتلا أزيد من أربعة آلاف واستشهد من المؤمنين مائتان ختم الله لهم بالسعادة. ... ».

وعلى (ق 55 و) نقرأ: « ...ثم أن حسن آغا كتب كتابا إلى الديوان العالي يخبرهم بما كتب الله سبحانه وتعالى لأهل الجزائر مع عدوهم وكيف نصرهم عليه وعين للسفر غلياطة وجهها بهذا الكتاب إلى حضرة السلطان وأما المدافع التي خلفها النصارى يقال أن عدتها مائتان وقيل مائة فإن المسلمين حملوها وزينوا بها الحصون الحربية وسائر أسوار المدينة... ».

وكما أشرنا في بداية الكلام عن هذا المخطوط فابتداء من ق 55 ظهر السطر الخامس يبدأ الحديث عن حملة شارل الخامس عام 1542 م حيث نقرأ في البداية: «يقال أن سبب قدوم الأنبلادور إلى الجزائر أنه عمر مركبا من مراكبه بالمال والسلع وبعثه إلى وهران فأخذه رئيس من رؤساء الجزائر من الترك يقال له كجك علي ودخل به إلى الجزائر بعدما وقعت بينهما حرب فوجد فيه رئيسا عظيما مع جملة الرؤساء...».

وعلى (ق56 و) نقرأ: «... ولما سمع اللعين صاحب أصبانية بما تم على هذين الجفنين وكان أهل طاعته قد ضجوا إليه بالشكوى مما يفعله أهل الجزائر بهم خصوصا أهل السواحل منهم بحيث أنهم قالوا للطاغية أما أن تكفنا أمر الجزائر وإلا يعطي الطاعة لصاحبها فشرع في الحركة إلى الجزائر وأطلق النداء في سائر أنصاره بذلك فانجاشت إليه جيوشه أفواجا أفواجا... ولما أتم هذا العرس وصار مثلا سائرا ونزهة من نزه الدنيا، أدار وجهه إلى تحصين المدينة والاستعداد لمقابلة العدو فبنى أسوار المدينة وأصلح ما انهدم منها ونصب عليها المدافع وعلى سائر الأبراج وعين أربعمائة أسير من الكفار لهذا البناء...».

وعلى (ق56 ظ) نقرأ : «... وأما حسن آغة فأقام في حصن من الحصون تصل مدافعه إلى العدو برا وبحرا ومعه جماعة العسكر وطبوله تصعد أصواتها إلى الجو وألويته المنصورة تخفق على رأسه وجعل على باب هذا الحصن مدفعا عظيما يصعق الآدمي عند صيحته وتزهق النفس عند دفعته وجعل من الحصن إلى القصبة قائدا ومعه طائفة من العسكر اسمه القائد حسن ولحراسة باب الوادي رجلا اسمه قايد يوسف ومعه جماعة من العسكر وعين معه ثلاثة من القياد اسم أحدهم سافير جعله في برج من الأبراج وقائد آخر اسمه أصلان عينه لقاع السور والقائد الثالث اسمه رمضان أقامه قريبا منه في بعض النواحي، وأما كجك علي وحيدرة فإنهما أقامهما بباب الجزيرة ومعهما قبطان السفن اسمه خضر... وأما عمارة النصارى فقد كان ظهورهم يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من جمادى الثانية سنة ثمان وأربعين وتسعمائة ويوم الخميس وقت العصر أرسوا بجون تمانتفوس الموالي للجزائر فيقال أنهم لما أرسوا في البحر سقط بعض ألويتهم في البحر والمسلمون ينظرون إليه. ...».

وعلى (ق 57 وجه وظهر) « وكان نزول العدو إلى البر يوم الأحد ونزل سلطان إصبانية ودارت عليه عساكره ويقال أن عدتهم تنازع تسعين ألفا فأراد المسلمون أن يمنعوهم من النزول إلى البر فرمت عليهم سفنهم بالمدافع من البحر فأوسع المسلمون لهم المجال حتى تمكنوا من النزول وبات العدو ليلة الإثنين بالحامة قرب البلد وكان زعيم من زعماء الترك يقال له : الحاج باشه عزم أن يضرب على العدو ليلا

ففتح له باب المدينة لما بقي الرابع الأخير من الليل فلم يشعر العدو وهو في منزله الذي نزله وكان الفصل شاتيا لأنهم وصلوا في شهر أكتوبر من الأشهر العجمية إلا والمسلمون قد خالطوهم ورامواعليهم بالمكاحل دفعة واحدة ورشقوهم بالسهام فحصلت فيهم ضجة عظيمة وانتبه ملكهم مذعورا من نومه وصاح برجاله وخواص وزرائه وقال لهم أهؤلاء الذين أخبرتموني عنهم أنهم لا يقومون لحربنا أنظروا ما عملوا فينا هذه الليلة ثم أن المسلمين رجعوا إلى البلد بعدما قتلوا منهم مقتله عظيمة فلما كان يوم الإثنين تحركت النصارى إلى المدينة ومعهم الطاغية حتى قربوا الأسوار وهم يزعقون بأنفرتهم وألويتهم منصوبة عليهم فخيل لأهل الجزائر أنهم نمل أسود قد ملأ الفضا وكان فيهم من الفرسان أربعة آلاف فارس فشرع المسلمون في قتالهم من الأسوار بالمدافع وبنادق الرصاص والسهام وكان ذلك اليوم تقدمت رجال من الأتراك إلى القتال وظهرت منهم شجاعة عظيمة منهم رجل اسمه الحاج باشه وآخر اسمه الحاج مامي وآخر يقال له القايد خضر وآخر يقال له الحاج باكير، والعدو كما ذكرنا لأسوار المدينة قد جاوروا المحل المعروف برأس تافورة وأنزلوا محلتهم في تلك الوعور وشرعوا كما ذكرناه وصبت عليهم مدافع المسلمين بكور الحديد فمات بها كثير من العدو وعلموا أن لأهل الجزائر قوة ودفاعا ولما حصل لهم ما حصل من مدافع المسلمين وخاب رجاؤهم من المدينة صعدوا وألويتهم منشورة إلى الكدية المعروفة بكدية الصابون وشرعوا قتال البلد منها ... فلما كانت ليلة الثلاثاء أرسل الله ريحا عاصفا فقطعت حبال أجفانهم ونشروا صواريهم وتمت هذه الريح في الزيادة فتشوش الجلنار من ذلك واسمه اندارية وكذلك كل من كن معه في الأجفان وساقت هذه الريح العظيمة التي أرسلها الله عليهم جملة من أجفانهم إلى البر فعطبت على الساحل وخرج منها أسارى المسلمين ومالت أهل عرب الجزاير على أهل تلك الأجفان من الكفرة فاستأصلوهم قتلا ...».

ويتواصل وصف هذه الواقعة أي حملة شارل العاشر حيث نقرأ : «... فكيف يكون رجوع هذا العسكر إلى بلادهم فها أنا أيها الملك ذاهب إلى تمنتفوس أنتظرك هنالك فبادر أنت ومن معك من العسكر بالرحيل لتركب في الأجفان الباقية وتخلص

إلى بلادك فعند ذلك رحل الطاغية عن الجزائر ونزل على وادي الحراش وكان حاملا هذا وقد أجهدهم الجوع فأكلوا أربعمائة من الخيل وباتوا تلك الليلة والمطر متراكم عليهم فلما كان صباح يوم الخميس نظر الطاغية إلى الواد فهالته رؤيته فاستشار رجاله كيف يتأتى القطع إلى الناحية الأخرى فعقدوا واجسرا من أخشاب سفنهم المنعطبة على الساحل وقطعوا عليه فلما خلصوا إلى العدوة الأخرى هجمت عليهم فرسان العرب وصاحوا عليهم وأثخنوا فيهم قتلا ولم يزل الطاغية سايرا وفرسان العرب تطأ عقبه إلى أن وصل إلى تمنتفوس وأقام به أياما إلى أن تأتى له الركوب فيما بقي من أجفانه وسافر إلى بلاده ما يصدق النجاة بنفسه وخلف اللعين كثيرا من الأغربة والقربيلات وكثيرا من السفن العظام والعشريات والفرقاطات ومدافع عظام وخلف كثيرا من الرجال والنساء وأما خيله التي أتى بها فإنه لم يذهب بفرس واحد منها وعدتها أربعة آلاف فرس كما تقدم وحصل مما خلف اللعين لأهل الجزاير ما ملأ أيديهم غناء وكسبت من ذلك أموال طائلة والله تعالى أعلم » وهنا ينتهي المخطوط ومعه الحديث عن هذه الحملة.

المراجع:

- خير الدين الزركلي، الأعلام ط 10، بيروت: دار العلم للملايين، 1992، ج5 ÷ ج7.
- محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب: من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، الرباط: جامعة محمد الخامس 1983، 271 ص.
- E.FAGNAN, Catalogue Général des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale d'Algérie , 2éme édition, Alger Bibliothèque Nationale d'Algérie, 1995, 680 p.
- دار الكتب الوطنية بتونس، فهرس المخطوطات، تونس، دار الكتب الوطنية، 1980، ج5، 232ص

الخاتمة

لا شك أن الإشارات الواردة في كل هذه المخطوطات قد تفتح آفاقا للمهتمين بالتاريخ العسكري للجزائر في العصر الوسيط، ونحن ندرك أن الصعوبة تكمن في استخراج المعلومات والوصول إليها، خاصة أنها متناثرة بين الكتب وقد تحتاج إلى قراءة شاملة للوصول إليها، وهنا يصبح لزاما علينا إعداد قراءة لكل هذه المصادر حتى نثمن محتواها ونيسر سبل البحث العلمي.

العمود والدبوس

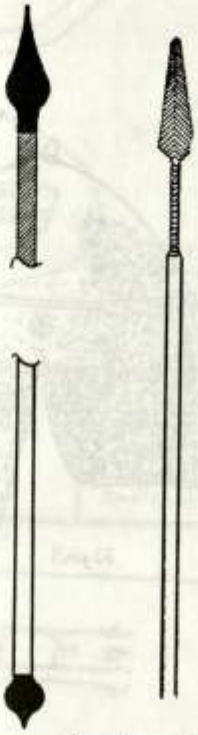

الرمح والحربة

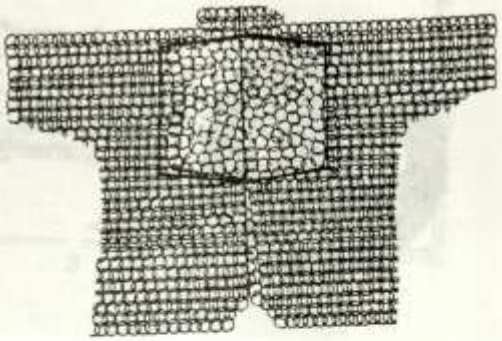

الدرع

الخوذة

الخوذة

الدرع

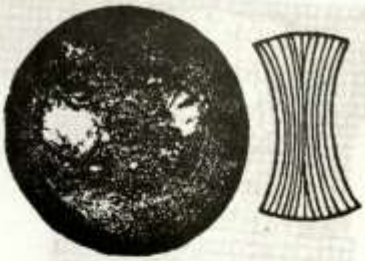

الترس

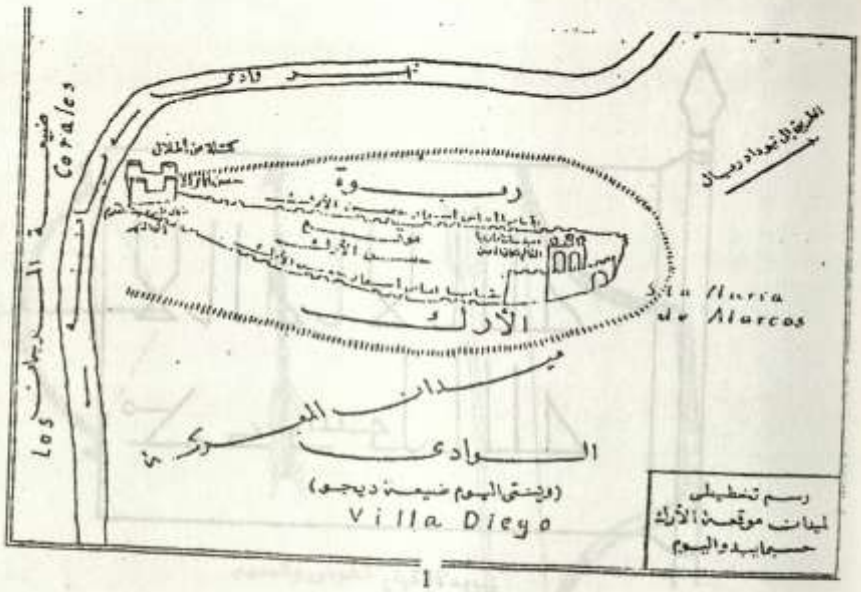

1

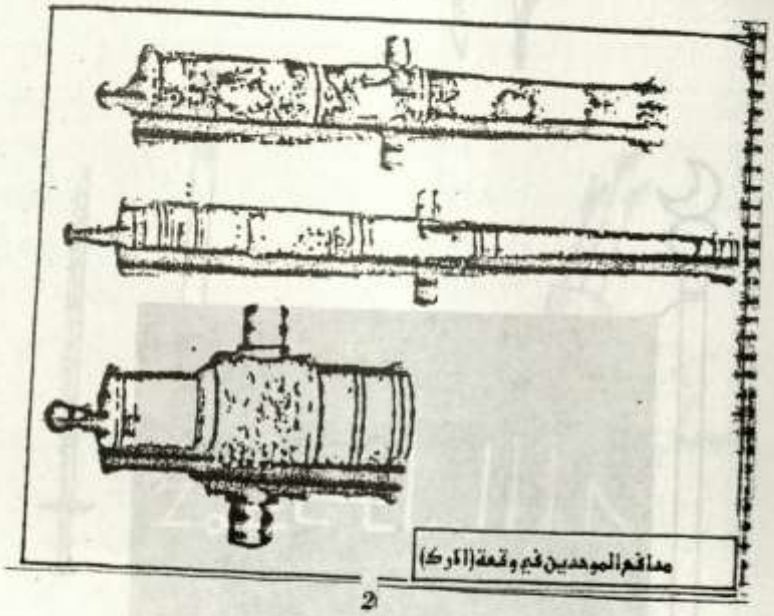

2

1. عبد الله عنان : عصر المرابطين في المغرب والأندلس. القاهرة 1964، ص 205.

2. عبد العزيز بن عبد الله : الجيش المعزبي عبر العصور، الرباط 1986، ض 160.

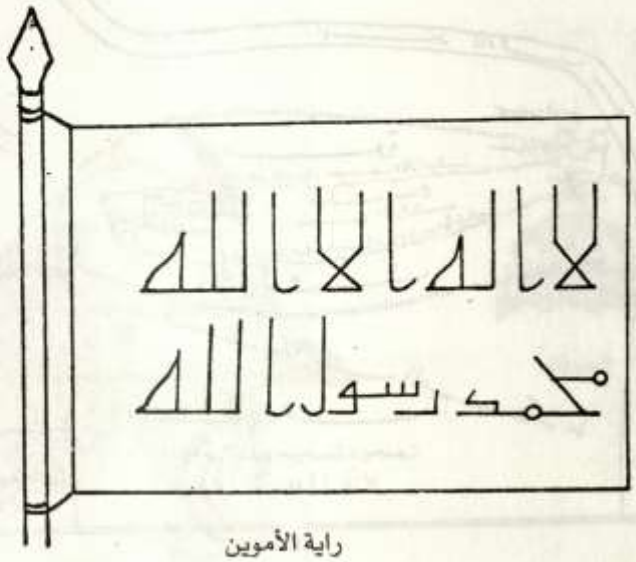

راية الأمويين

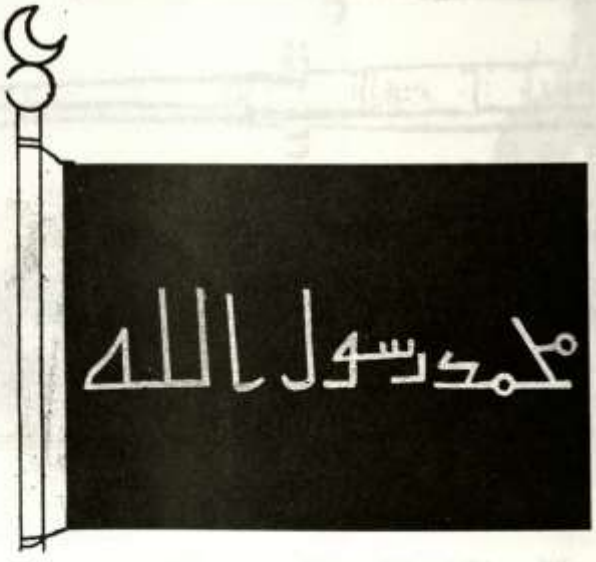

راية العباسيين

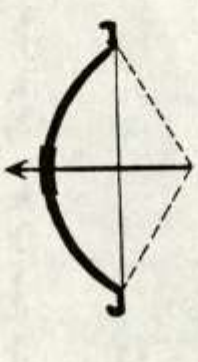

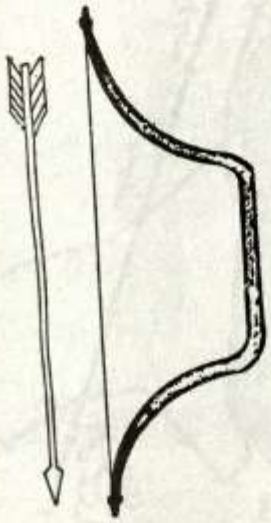

القوس والسهم

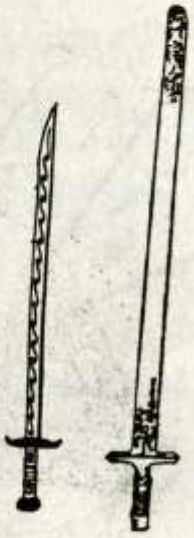

السيف العربي مستقيم

منه الطويل ومنه القصير

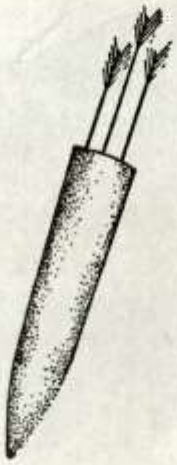

الجعبة

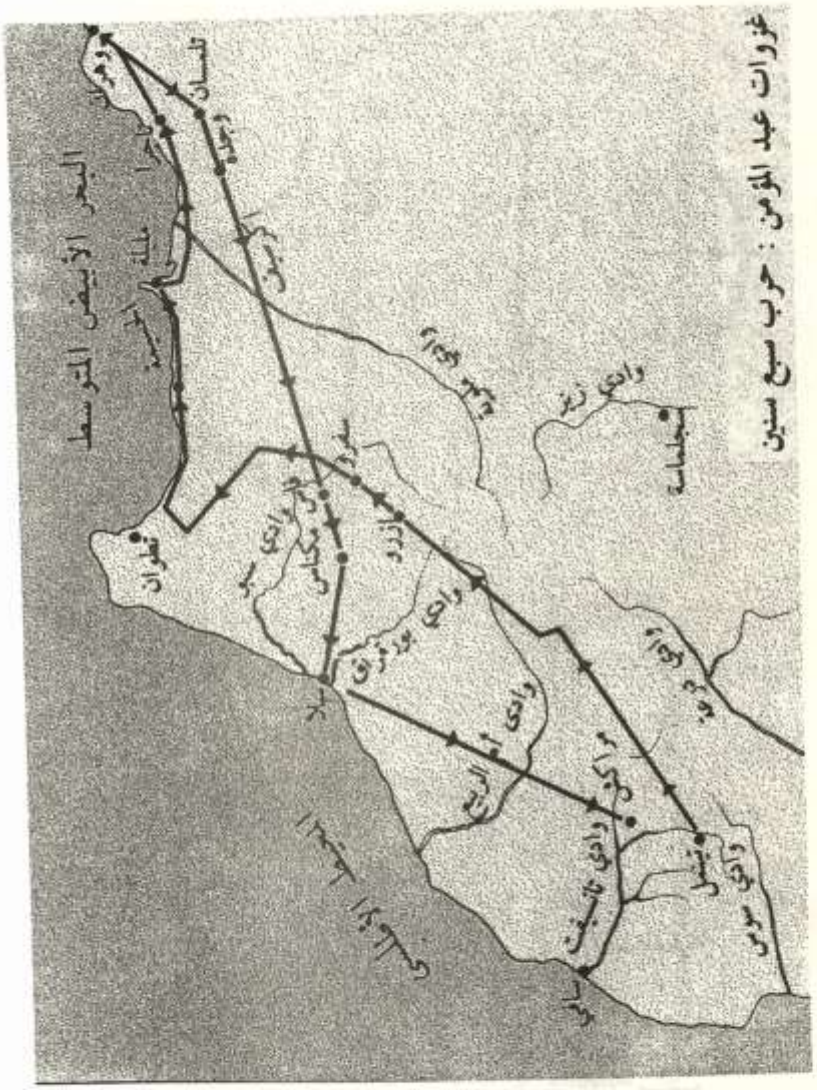
غزوات عبد المؤمن : حروب سبع سنين
البحر الأبيض المتوسط
وهران
تلمسان
وجدة
مليلة
تاهرت
أكرسيف
قلعة بني حماد
قلعة بني راشد
وادي زيز
بجاية
سطيف
قلعة بني حماد
وادي شلف
وادي مجرد
وادي الحمام
وادي الزيبان
مراكش
وادي تافيلت
فاس
سجلماسة
وادي درعة
وادي سوس
الصحراء الكبرى

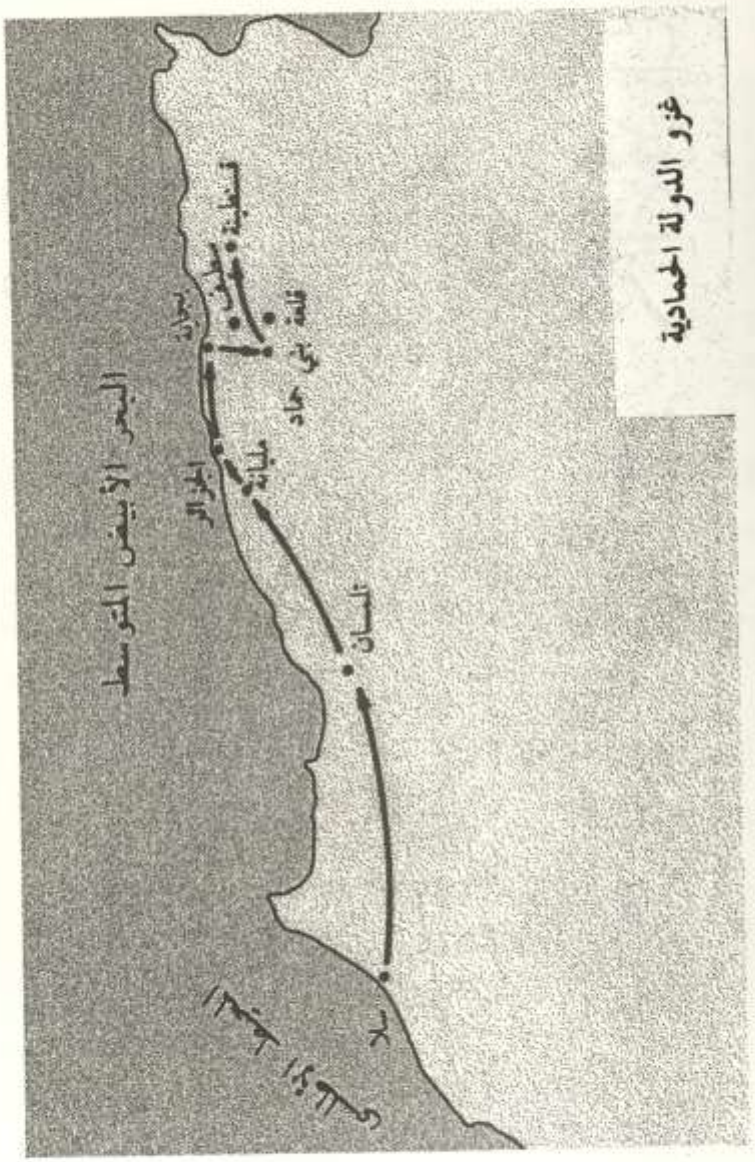

1. رشيد بورويبة : عبد المؤمن، وزارة الاعلام والثقافة، الجزائر 1976، ص ص 20 - 30

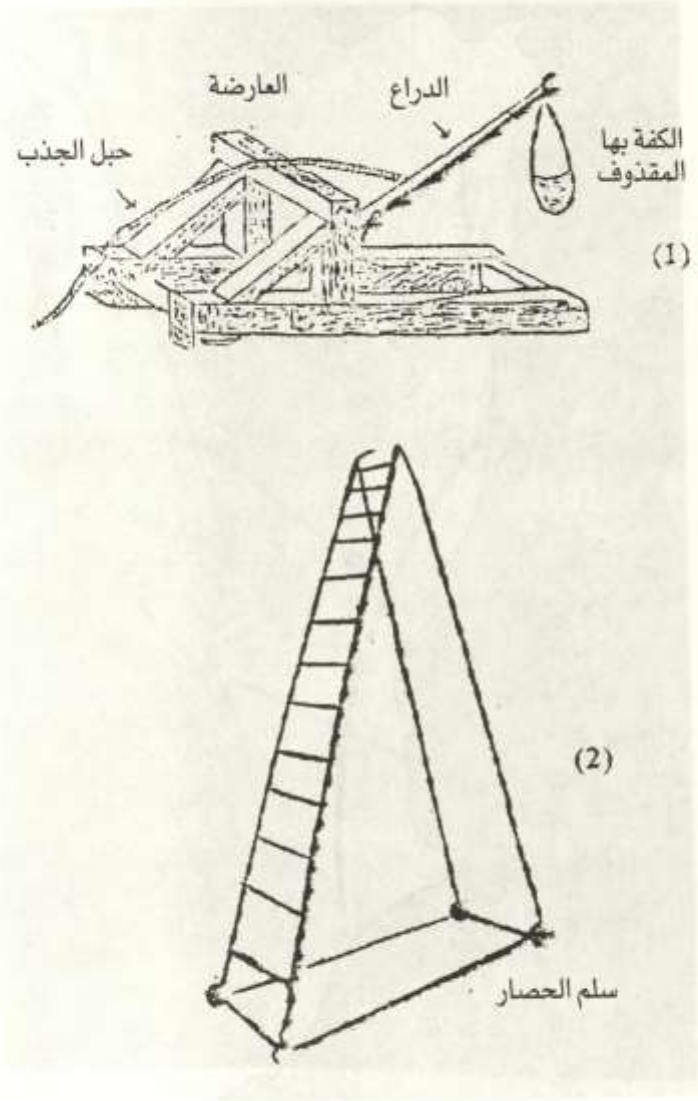

1 . أنور الرفاعي : قصة الحضارة في الوطن العربي، دار الفكر، بيروت 1973، ص ص 402–403

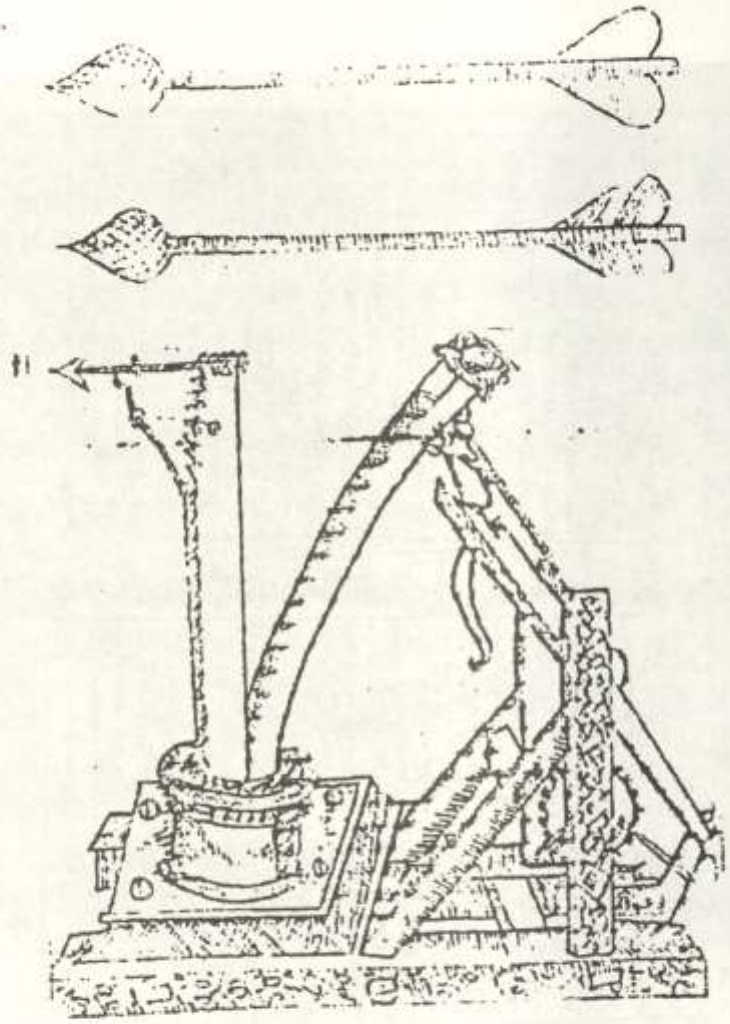

1. عبد الحق المريني : الجيش المغربي عبر التاريخ، الرباط، 1967، ص 30.

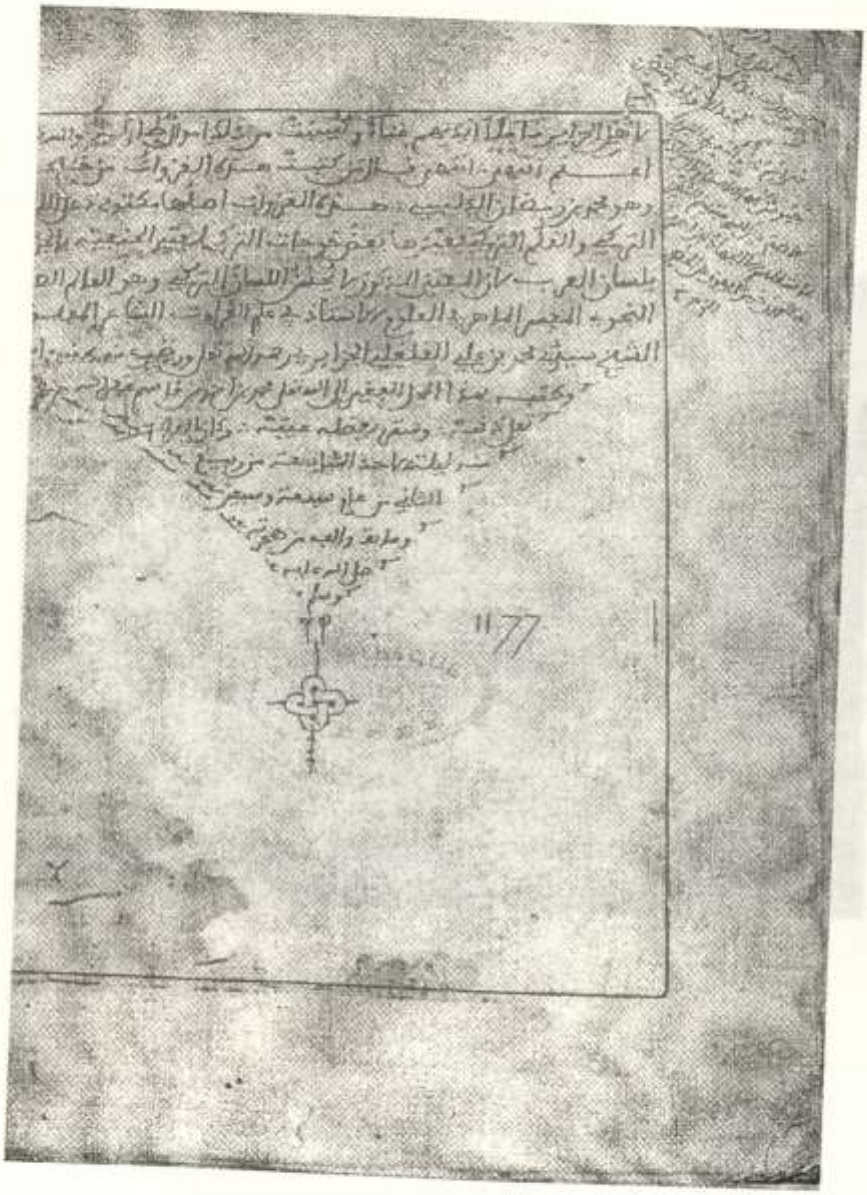

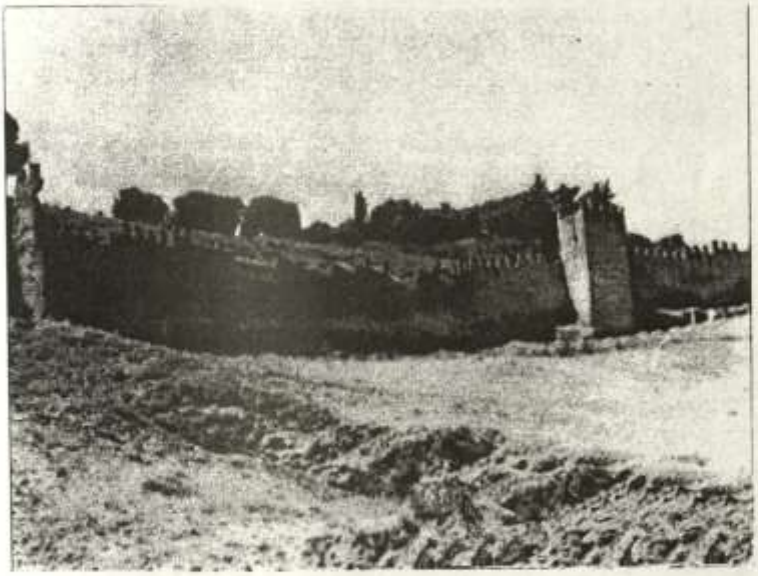

أسوار تازة

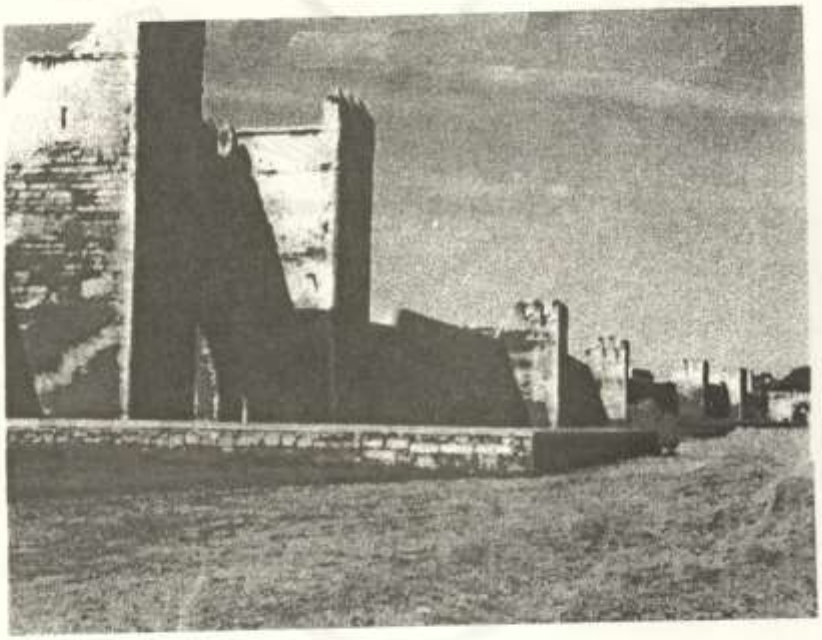

تحصينات سلا

1 - رشيد بورويبة : عبد المؤمن، وزارة الاعلام والثقافة، الجزائر 1976، ص ص 27 - 123

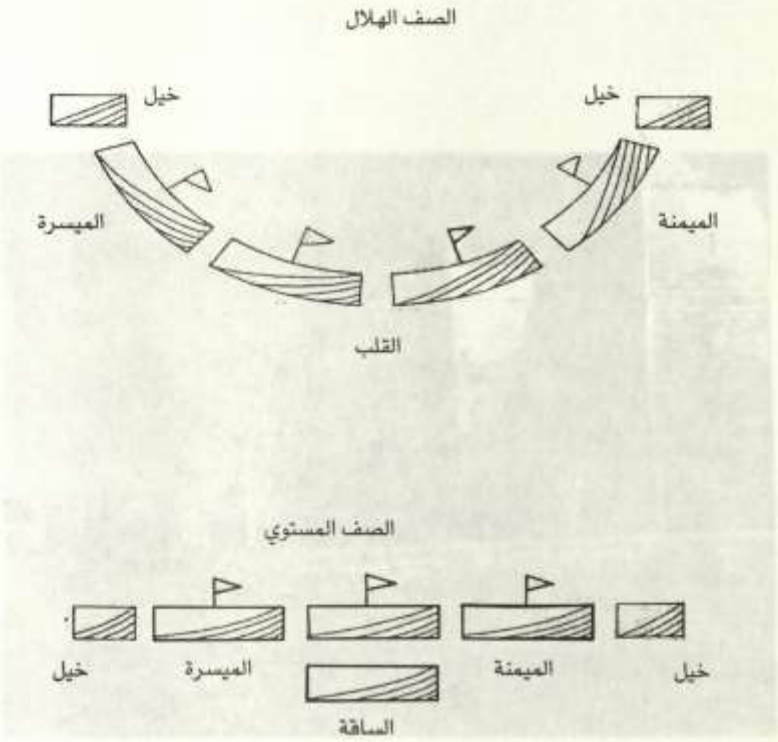

01 **الخطط الحربية التوضيحية**

شكل المعين أو المربع المنحرف

شكل المثلث

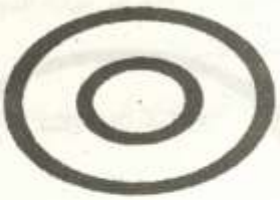

شكل الدائرة المزدوجة

02 **الخطط الحربية التوضيحية**

شكل الهلال المرسل أو الحاد

شكل الهلال المركب

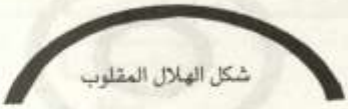

03 الخطط الحربية التوضيحية

فهرس الموضوعات

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين 3

تقديم بقلم مدير المركز 5

المقدمة 7

الباب الأول

تنظيم الجيش الإسلامي في بلاد المغرب

من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 10 هـ/16 م

الفصل الأول : الجيش الإسلامي من الفتح إلى نهاية الدولة الرستمية 11

التنظيمات العسكرية للجيش الإسلامي عموما 11

الجيش الإسلامي في المغرب من الفتح إلى قيام الدول الأغلبية 22

جيش الأغالبة 28

الجيش الرستمي 30

الفصل الثاني : الجيش الفاطمي والحمادي 37

الجيش الجزائري في عهد الفاطميين 37

الجيش في العصر الحمادي تعداده وتنظيمه وعدته 64

الفصل الثالث : الجيش في عهد المرابطين والموحدين 87
جيش المرابطين 87
جيش الموحدين 113

الفصل الرابع : الجيش الزياني والعثماني 149
الجيش الزياني 149
الجيش الجزائري في العهد العثماني 161

الباب الثاني

الإستراتيجية العسكرية

الفصل الأول : الاستراتيجية العسكرية في المغرب من الفتح
إلى نهاية الدولة الرستمية 179
الإستراتجية العسكرية للجيش الإسلامي 179
الاستراتيجية الحربية العربية في بلاد المغرب
خلال القرون الأربعة الأولى 182
الاستراتيجية العسكرية الرستمية 196

الفصل الثاني : الاستراتيجية العسكرية الفاطمية والحمادية 199
الاستراتيجية العسكرية الفاطمية 199
الاستراتيجية العسكرية في عهد الحماديين 212

الفصل الثالث : الاستراتيجية العسكرية المرابطية والموحدية 219
الاستراتيجية العسكرية لدى المرابطين 219
الاستراتيجية العسكرية لدى الموحدين 229

الفصل الرابع: الاستراتيجية العسكرية الزيانية والعثمانية 239
الاستراجية العسكرية للدولة الزيانية 239
الاستراتيجية العسكرية في عهد العثمانيين 269
الملاحق : نصوص تتعلق بالجيش وروسوم تتعلق بخطط المعارك 279